الجامعة الإسلامية – غزة
عمادة الدراسات العليـــا
كليـــــــــــة الآداب
قسم اللغة العربيـــــــة



المرأة في شعـــر الصعاليك فـــي الجاهليـــة والإســـلام

رســـــالة ماجستيـــــــر

إعداد الطالـــب

أحمـــد سلمـــان مهنـــا

إشـــراف

الأستاذ الدكتور / نبيل خالد أبـــو علي

رسالة ماجستير مقدمة إلـــى قسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية – غزة، كمتطلب تكميلي لنيـــل درجة الماجستير

1428هـ – 2007 م

الإهـــداء

إلى والدتي العزيزة ... وفـــاءً وعرفانـــا ..

إلى زوجتـي وأبنائي (آية وحسن وسامر) ..

إلـــى إخـوانـــــي وأخــواتـــــي ..

إلى كل من ساهم في إخراج هذه الرسالـة إلى حيز الوجـــود ،،،

أهـــدي هذا الجهد المتواضع

الباحث

شكـــر وتقديـــر

" **لئن شكرتم لأزيدنكم** " إبراهيم : من آية (7) .

الحمــد لله العلــي العظيم الــذي مَــن علــيّ بنعمــه فألهمنـــــي روح الــصبر والمثابرة لأُتم هــــذا العمــل، وما كـــان لِيَتــم إلا بفضلـــه وتوفيقـــه، أشكـــــره شـــكراً عظيماً يليق بجـــلال وجهـــه وعظيم سلطانـــــه وبعــــد :

فإنني يسعدني في هذا المقام أن أتوجه بخالص الشكر وعظــيم الامتنـــان لوالـــدتي الحبيبة الغالية على ما بذلته من جهد ورعاية وعناية ودفع وتشجيع، كي أصل إلى ما أصبو إليـــه .

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور نبيـــل خالـــد أبو علـــي لتكرمـــه بالإشراف علـــى دراستي هـــذه، ولما قدم لي من نصائـــح ثمينة ساهمت فـــي إخراج هذه الدراسة على هذه الصـــورة .

كما وأتقدم بالشكر والتقدير لزوجتـــي على مؤازرتها ومساندتها لي في كل خطـــوة من خطوات هذه الدراسة حتى خرجت إلى النـــور .

كما أشكر مديرة المدرسة الأخت الفاضلة وداد جمعـــة السميري، لتعاونها الراقـــي والبناء، من أجل إنجاز هذا العمـــل .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للجامعـــة الإســـلاميـــــة على إتاحتها الفرصة لي للبحث والدراسة في جوٍ علمي مفعم بالود والمحبة والاحتـــرام .

وأخيـــراً أتقدم بجزيـــل الشكـــر والعرفـــان لكل من ساهم في انجاز هذا العمـــل، راجيـــاً المولى القديـــر أن أكـــون من العارفين للناس فضلهم، وأن يمكنني من رد الجميـــل .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب

الباحث

ملخص

تتناول هذه الدراسة المرأة في شعر الصعاليك ، في الجاهلية و الإسلام ، و هي مكونة من مقدمة و تمهيد ، و ثلاثة فصول ، و خاتمة .

عرض الباحث في المقدمة أسباب اختياره للموضوع و خطوات البحث ، أما في التمهيد فتناول بالبحث و الدراسة مفهوم الصعلكة ، و أسبابها في الجاهلية والإسلام ، و كذلك مكانة المرأة في الجاهلية و مكانتها في الإسلام .

أما الفصل الأول و المعنون بـــ " المحبوبة في شعر الصعاليك " فقد تناول بالدراسة النقاط التالية : مقدمات قصائد الصعاليك ، والحب وآثاره عندهم ، وملامح المحبوبة في شعرهم ، ووفاءها لهم .

أما الفصل الثاني فتحدث عن " الزوجة في شعر الصعاليك " ، ومكانتها عندهم و حضورها في شعرهم وحياتهم ، وصفاتها وملامحها ، وتناول الفصل النقاط التالية : مكانة الزوجة في الشعر الجاهلي ، وحضورها في شعرهم ، وصفات المرأة و أخلاقها ، و أخيراً أثر الزوجة على الصعلوك من حيث لومها له و خوفها عليه ، و حثها له على الشجاعة ، و حرصها على ماله و عياله ، و عصبيتها و علاقتها بأهلها .

وفي الفصل الأخير كان الحديث عن الأم و مكانتها في الشعر الجــاهلي ، وكــذلك مكانتها عند الصعاليك ، وحبها لأبنائها و تربيتها لهم ، كذلك شمل هذا الفصل موضوع السبية في شعر الصعاليك و الفتاة و الأخت و المرأة القريبة و غير القريبة .

أما الخاتمة فاشتملت على نتائج البحث و توصياته .

Abstract

This thesis is intended as an attempt at a general investigation of the firm position of woman in the middle ages, and in particular to the pre Islamic and Islamic period , that what is so called the Sa'alik literature .
The study is aiming to evaluate the poems described by the Sa'alik poets on woman.
It is of great importance to realize the high impact of woman, not only in the Sa'alik poems , but also in the pre-Islamic and Islamic poets . Thus in this study we shall show some reflections on lines or poems done by Sa'alik poets.
The study consists of three main chapters and a general conclusion. At the outset of the thesis, there is a preface about the world Sa'alik, it's a meaning, it's concept, and the role of woman in the Arab daily life.

In chapter one, I have tried to show the concept of love in Sa'alik poems, and how they look for the relation between the man and the woman. It's note worth that woman has achieved great tendencies in this (spha.)

In chapter two, I have tried to discuss the role of woman as a wife in the Sa'alik poems. Most of the extant poems of Sa'alik consists of no more than some long poems scattered here and there in the historical pack ground.

In most of their surviving poems, Sa'alik is motivated by tribe's solidarity and partisan ship. This phenomenon apparent in most of the famous Arab poets of Arabian desert. In fact they occupied themselves with tribal issues, and each of them was nothing more a month-peace for his trip.

Chapter three deals with woman as a mother, and how she loves her sons, and how she treats them, and looks after them.
The surviving verses of Sa'alik indicate strongly that Sa'alik poets did not follow the traditional artistic constrains of ancient Arab poetry. In fact the are considered to be a prominent poets among Arab poets. They are distinguished by deep privacy and different experience from other poets, due to their Bedouin origin and long experience of the Arabic desert.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد ،،،

كثيرة هي الدراسات التي تناولت العصر الجاهلي بالبحث والدراسة، حتى يخيل للباحث فيه أنه لم يعد شيء من هذا العصر إلا وأخذ نصيباً وافراً من البحث والدراسة .

ولو نظرنا إلى الشعر الجاهلي الذي هو المادة الأساس التي استقى منها الباحثون مادة أبحاثهم في معرض تلمسهم لمجاهل حياة العرب في الجاهلية بشتى مناحيها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، لو نظرنا لهذا الشعر نظرة عجلى لوجدنا أن المرأة نالت منه حظاً وافراً . حتى غدت معلماً من معالم هذا العصر فلا تكاد تفتتح قصيدة جاهلية إلا بمقدمة غزلية، كالوقوف على الأطلال وغيره .

لقد كانت المرأة ركناً من أركان المجتمع الجاهلي والإسلامي، وأساساً من أسسه، وحجراً مهماً في بنائه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . فهي التي تنجب الرجال وتربي الأبطال، وربما شاركت في القتال، كذلك نجدها الحضن الدافئ الذي يلجأ إليه الإنسان العربي يبثه همومه وأحزانه، وآلامه، كما أنها مثلت مصدر إلهام للشعراء يبكون على فراقها، ويتشوقون لرؤيتها، ويتعذبون بصرمها وقطيعتها، فطالما صورها في صور العفيفة الطاهرة المتمنعة، المصونة، وطالما افتخروا بحمايتها ورعايتها وصونها .

لذلك كثرت الدراسات التي تناولت المرأة العربية في العصر الجاهلي ولكن الذي أثار اهتمامي ولفت انتباهي أن هذه الكتب مرت مرور الكرام على شريحة مهمة في المجتمع الجاهلي شريحة آثرت العيش في مجاهل الصحراء، وشعاب الأودية واستصحاب الوحوش، وافتراش الأرض والتحاف السماء، شريحة آثرت نفسها التمرد على ظلم الظالمين، آلت على نفسها إلا أن تكسر قيود القبيلة، التي تميزت بقوتها وتعصب أهلها لها . رفضت الفقر وعيش الهوان ورأت العز في الغزو وانتزاع الحقوق من الظالمين انتزاعاً .

هذه الشريحة من المجتمع هي جماعة " الصعاليك " التي لم تنل حظاً من الدراسة والاستقصاء ولم أجد أحداً من الباحثين خصهم بدراسة مستقلة ـ وربما يرجع ذلك إلى قلة الأخبار عنهم، لأنهم عاشوا معزولين في مجاهل الصحراء . وكذلك قلة أشعارهم وتناثرها بين كتب الأدب وغيرها، وضياع الكثير منها، وهذا ما قد يسبب للباحث عناءً ومشقة، قد يجد نفسه في غنى عنها .

هذا الأمر دفعني إلى إنصاف هؤلاء الشعراء بأن أستقصي أشعارهم، وأجمع أخبارهم التي حاوروا فيها المرأة ووصفوها وأحبوها وشاطروها أحلامهم وآمالهم، وأحزانهم وهمومهم، حيث نجدها في شعرهم لائمة مرة محرضة أخرى، كما نجدها حيناً آخر تمتشق السيف مدافعة عنهم، ملهمة لهم في المعارك حيناً آخر، كذلك صوروها تصويراً بارعاً ودقيقاً، فهي عفيفة طاهرة شريفة تغض البصر وتكرم الجار وتحفظ الأسرار، وتظل عوناً للرجل في كل حين . سواء كانت محبوبة أم زوجة، وسواء كانت أماً أم أختاً، أم قريبة، أو غير ذلك .

إنني وأنا أقدم على هذا البحث المضني، الذي لا أظنه سهلاً أعرف مدى الصعوبة التي تواجهني، إلا أنني أرغب معتمداً على الله في أن أقدم شيئاً جديداً أنفع به الباحث والقارئ العربي، بتقديم صورة واضحة جلية عن صورة المرأة في شعر هؤلاء الشعراء والتي ظلت على مدى قرون صورة ضبابية غير واضحة المعالم .

وقد اتبعت في دراستي هذه المنهج الوصفي التاريخي، حيث قسمت البحث إلى تمهيد وثلاثة فصول، وهي على النحو التالي :

أولاً : التمهيد، وتناولت فيه نقاطاً ثلاثة وهي

1- التعريف بالصعلكة لغوياً واصطلاحياً.

2- مكانة المرأة في الجاهلية .

3- مكانة المرأة في الإسلام .

وبينت في النقطتين الأخيرتين، ما للمرأة من حقوق وما عليها من واجبات، ما لها وما عليها، وعرضت لبعض الظلم الذي تعرضت له في الجاهلية، ودور الإسلام في رفع هذا الظلم .

أما الفصل الأول من الدراسة، فقد أفردته للمرأة المحبوبة في شعر الصعاليك حيث تناولت فيه بالبحث والدراسة العناوين الآتية :

1- مقدمات القصائد عند الصعاليك، وأثبت فيه، أن الصعاليك كان لهم مقدمات غزلية وطللية كغيرهم من شعراء عصرهم .

2- الحب وآثاره، وفيه عرضت، لعلاقة الصعاليك بمحبوباتهم، ومعاناتهم، وشدّة تعلقهم بهن .

3- ملامح المحبوبة وصفاتها، وفيه، تتبعت تلك الصور الجميلة التي رسمها الصعاليك لمحبوباتهم، سواء الصور المعنوية، أم المادية .

4- وفاء المحبوبة، وتحت هذا العنوان قدمت صورة فريدة من صور وفاء المرأة للصعلوك .

وفي الفصل الثاني، تحدثت عن الزوجة في شعر الصعاليك، حيث تحدثت فيه عـــن عناوين مهمة وهـــي :

1- مكانة الزوجـــة في الشعر الجاهلي .

2- حضور الزوجة في شعـــر الصعاليك.

3- صفات الزوجة المادية والمعنوية .

4- أثرها على الصعلوك من حيث لومها له، وخوفها عليه من مخاطر الصعلكة، وحثها لـــه على التحلي بالشجاعة، وحرصها على ماله وعياله، وكذلك عصبيتها وعلاقتها بأهلهـــا .

وفي الفصل الثالث، تناولت فيه بالدراسة مكانة الأم عند الجـــاهليين عامـــة وعنـــد الصعاليك خاصة، كذلك حب الأم لأبنائها وتربيتها لهم، وعقوق بعض الصعاليك لأمهاتهم، كذلك تناولت في هذا الفصل السبية في شعر الصعاليك من حيث الفخـــر بالـــسبي، وتعييـــر الأعداء، وصورة السبية في شعرهم، ومعاملة السبايا، وحماية النساء مـــن الـــسبي والـــذود عنهن.

ثم ختمت الدراسة بالنتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسه .

أرجو من الله العلي القدير أن يسدد خطاي دائماً، وأن يوفقني إلى ما يحب ويرضى.

البـــاحث

التمهيـــــــــــد

أولاً: الصعلكة – مفهومها – أسبابها ي الجاهليــة والإسلام.

ثانياً: مكانـــة المـــرأة فـــي العصــــر الجـــاهلـــي.

ثالثاً: مكانـــة المــــرأة فـــي الإســــــلام.

أولاً : الصعلكـــــــــــة

(أ) مفهـــومهــــا:

الصعلكة – كما في معاجم اللغة – هي الفقر والصعاليك هم الفقراء .ففي لسان العرب : الصعلوك الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري ولا اعتماد ، وقد تصعلك الرجـل إذا كـان كذلك . يقول حاتم الطائي :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنـــى فكــلاً سقانـــاه بكأسيهما الــدهر
فمازا دنا بغياً على ذي قرابـــة غنانا ولا أَزْرَى بأَحْسَابنا الفَقْرُ [1]

وفي الصحاح = الصعلوك الفقير... وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه ،والتصعلك الفقر [2] لقد اكتفى معظم المعاجم بالمعنى المباشر للصعلكة وهو الفقر. ولكننا إذا ما أردنا أن نتعرف علـى المعنـى العُرفي للصعلكة ، فإننا نجد بعض إشارات لذلك فـي معرض حديث هذه الكتب عن معنى (ذأب) ففـي لسـان العرب، يقال لصعاليك العرب : ذؤبان لأنهم كالذئـاب . وذؤبـان العرب : لصوصهم وصعاليكهم الذين يتلصصون ويتصعلكون .

وذؤب الرجل وتَذَأَب خَبُثَ وصار كالذئب خُبْثاً ودَهَاءً [3] .

وفي الصحاح : " وذؤبان العرب صعاليكها الذين يتلصصون " [4] .

فالصعلكة إذاً تعني الفقر والتجرد من المال ، الفقر الذي يجعل الإنسان لصاً وقاطع طريق ، وغازياً ينتزع المال انتزاعاً . فيحيا في الصحراء حياه الذئاب الضارية. وهذا هـو المعنى اللغوي .

ولكن هناك معنى سلوكي عُرفي تنبّه له أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العـرب حين قال : " والصعلوك الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات " [5] .

والظريف الذي يبدو كأنه تناقض أو تباعد ، أننا حين نسأل اللغة عن المتصف بالصعلكة لا تقول أنه الفقير ،ولكننا نجده صاحب شيء يشبه المهنة أو الحرفة وهي الـصعلكة نفـسها ، وحينئذ لا تكون الصعلكة دالة على الفقر ، وإنما على اللصوصية وقطع الطريـق وسـائر أساليب السلوك العدواني الذي يهدف إلى المغنم .

---

(1) لسان العرب مادة (صعلك)

(2) الصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، مادة (صعلك)

(3) اللسان مادة (ذأب)

(4) الصحاح مادة (ذأب)

(5) جمهرة أشعار العرب ، أبو زيد القرشي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ص565 .

ويمكن أن نفهم هذا التباعد في الدلالتين ، على أن لفظ الصعلكة يدل أصلاً في اللغة على الفقر والحاجة ، وهذه الحاجة دفعت بعض أصحابها من ذوي الصفات المعينـــة إلـــى العدوان على الناس لسلبهم ما يملكون ، وأصبح الذين يزاولون هذا السلوك يُعرفــون فـــي عرف المجتمع العربي القديم بالصعاليك ، وإذاً فهناك استعمال لغوي للصعلكة وهو الفقـــر ، واستعمال عرفي وهو اللصوصية باعتبار أن الدافع لها أصلاً هـــو الفقـــر ، والاســـتعمالان متقاربان حيث لا ينقصهما إلا أن الخيط الذي يربط بينهما مقطوع أو غير واضح . وهو أن الفقر سبب أساسي في مزاولة الصعلكة وهي حقيقة من واقع المجتمع العربي القديم [1]

فالصعلكة وإن كانت تعني الفقر ،إلا أنها مهنة امتهنها أصـــحابها بـــسبب فقـــرهم وعوزهم وحاجتهم ،وتمردهم على النظم السائدة في مجتمعاتهم ،فبرز بذلك المعنى العُرفـــي الســـلوكي الـــــذي يـــدل على السلب والنهب والتجـــرد للإغـــارة مـــن أجــــل انتـــزاع الحقـــوق انتـــزاعـــاً .

---

[1] انظر شاعر الصعاليك الشنفرى ولامية العرب ، د عبد الحليم حفني ، المطبعة النموذجية ،ص31 .

(ب) أسبـــابهـــا:

1- الفقـــــر

إن من أسباب الصعلكة، الفقر وقلة الموارد المعيشية في أرض مترامية الأطراف، يعتمد أهلها على الماشية التي يرعونها ، فيأكلون من لحومها ويشربون ألبانها، ويلبـــسون مـــن أصوافها وأوبارها ، فهم رعاة تتقلب حياتهم من حيث الفقر والغنى تبعاً لظـــروف الحيـــاة القاسية من حولهم ، فالرعي دائماً يبقى رهين أحوال الطقس ونزول المطر فالفقر كان دائماً سبباً بارزاً ومهما في ظهور هذه الظاهرة في العصر الجاهلي يقول عروة بن الورد :

دعيني للغنى أسعى فـــإني رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيـــــــــرُ
وأبعدهم وأهـــونهـــم عليهم وإنْ أمســـىَ لــــــه حَسَبٌ وخيـــرُ
ويُقْصيه النَّـــديُّ وتَزْدَرَيْــه حليلتـــه ويَنْهـــَرُه الصَّغيـــــــرُ
ويُلْفى ذو الغنى وله جلالٌ يكـــادُ فؤادُ صاحبـــه يَطيـــــــرُ
قليل ذَنْبُـــهُ و الذنـــبُ جَـــمّ ولكنْ للغنـــى ربٌّ غَفُـــــــــورُ [1]

" لقد وقع نظر عروة على مجتمع متعسف ، يحتقر الفقير لأنه فقير وحـــسب ، ويجـــل الأغنياء لا لشيء أيضاً إلا لأنهم أغنياء فتألم لذلك وأعلن الثورة على الأغنياء " [2] .

لقد أدرك عروة أنه لا حياة للفقير في مجتمع يجل الأغنياء ويتجاوز عن أخطـــائهم ويحتقر الفقير المعدم لا لشيء إلا لفقره .

وهذا السليك يصور لنا فقره ، وما لحق به من الجوع حتى أنه إذا قام لحاجة أخـــذه الدوار وتراءت له الخيالات والأطياف حيث يقول :

ومانَلْتُها حتــــــى تَصَعْلَكتُ حقْبةً وكدْتُ لأسبـــاب المنيـــة أعــرفُ
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرَّني إذا قُمْتُ تَغْشاني ظلال فأُسْدفُ [3]

فالفقر والجوع كانا من الأسباب التي دفعته للغزو والبحث عن المال الذي يغنيـــه ، فنجده يصرح في شعره بأن الفقر أحد أسباب الصعلكة حين يقول :

أشاب الرأس أني كل يـــوم أرى لـــــي خالـــة وسط الـــرحال
يشق عليَّ أن يلقين ضيمـــاً ويعجز عن تخليصهن مالـــــي [4]

---

[1] ديوان عروة ، دراسة أسماء أبو بكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1992 م ، ص 79 0

[2] عروة بن الورد حياته وشعرة ، د. إبراهيم الخواجة ، مطبعة النصر نابلس ط2 ، 1987 م ، ص 98 0

[3] ديوان السليك ، د. سعدي الضنادي ، دار الكتاب العربي ، 1994 ص 84 0

[4] السابق ص89 0

ولقد جعل الفقر وتعرضه للغارات ووقوع حرماته في السبي مع عجزه عن تخليصهن من أسباب تصعلكه .

ويصور الشنفرى جوعه تصويراً دقيقاً فيه من البراعة ما فيه حين يقول [1]

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت   خيوطة ماري تغار وتفتل [2]

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا   أزل تهاداه التنائف أطحل [3]

فالجوع والحرمان والفقر كانا حاضرين في شعرهم الذي هو مرآه حياتهم ودافعهم للصعلكة والغزو والإغارة ، من أجل الحياة ، بل إن الرضى بالفقر والتقاعس عن الغزو والإغارة يعد عيباً وسبة عندهم حيث يقول عروة بن الورد موازناً بين الصعلوك الذي يرضى بالفقر ويتقاعس ويرضى أن يكون عالة على غيره ، وبين الصعلوك المتحفز المغامر فيقول [4] :

لحى الله صُعْلُوكاً إذا جنَّ ليله   مصافي المُشَاشِ ، آلفاً كل مَجْزَرِ [5]

يَعُدُّ الغِنَى من نفسه كلَّ ليلةٍ   أصابَ قراها من صديقٍ مَيسَّرِ [6]

ينامُ عِشَاءً ثم يصبحُ ناعساً   يَحُتُّ الحصا عن جنبه المتعفرِّ [7]

قليلَ التماس الزاد إلاّ لنفسه   إذا هو أمسى كالعريش المُجوَّرِ [8]

يعين نساءَ الحيِّ ما يستعنَّه   ويمسي طليحاً ، كالبعير المحسّرِ [9]

ولكن صعلوكاً ، صفيحةُ وجْهِهِ   كَضَوْءِ شِهابِ القابس المتنوِّرِ [10]

مُطِّلاً على أعدائه يزْجُرونَه   بساحَتِهِم ، زَجْرَ المنيحِ المشَّهرِ [11]

إذا بَعُدُوا لا يأمنون اقترابَهُ   تشوُّفَ أهلِ الغائب المتنظَّرِ

فذلك إن يلْقَ المنيةَ يلْقَها   حميداً، وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأجْدِرِ

---

[1] بلوغ الأرب في شرح لامية العرب ، تحقيق محمد عبد الحميد القاضي . دار الحديث ص 126–129 .

[2] الخمص : الجوع ، الحوايا : ما يحوي البطن – الخيوطة : الخيوط والتاء للكثرة – ماري :فاتل الخيوط

[3] الأزل : قليل لحم الوركين ، صفه الذئب – تنائف ، جمع تنوفة : الصحراء – أطحل : مغبر 0

[4] الأصمعيات تحقيق أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون دار المعارف ط 4 ص45 ، 46 .

[5] لحاه الله :قبحه – المشاش : رؤوس العظام اللينة – المجزر : موضع الجذر .

[6] الميسِّر :الذي سهلت ولادة إبله وغنمه ولم يعطب منها شيء .

[7] يقول : ليس بصاحب إدلاج ولا غزو .

[8] العريش : خيمة من خشب أو جريد . المجور : الساقط .

[9] الطليح : المعيي ، واالمحسر : المعيي أيضاً ، يقال (حسرت الدابة) أعيت وتحلّت .

[10] صفيحة وجهة : بشرة جلده ، الشهاب شعلة من نار ، القابس : الذي يقبس النار أي يأخذها .

[11] مطلاً على أعدائه : مشرفاً عليهم – يزجرونه : يصيحون به – المنيح ههنا : قدم مستعار سريع الخروج ، المشهر : المشهور

لقد كان الفقر سبباً بارزاً من أسباب ثورة الصعاليك على الأغنيــاء الــذين كــانوا يزدادون غنىً يوماً بعد يوم ، حيث فرض على المجتمع الجاهلي نظــامٌ اقتــصاديٌ غيــر متوازن جعل الفقير فقيراً ، والغني غنياً ، تبعاً لظروف البيئة ومكــان العــيش ، فــأرض الجزيرة لم تكن سواء فمنها ما هو خصب كثير الخيرات ، ومنها ما هو مجدب لا شيء فيه .

وهناك يثور الإحســاس بالفقـــر عند بعض الفقــراء ،حــين يجــدون جيــرتهم وأقرباءهم يتمتعــون بما يتمتعون به ،وهم يعانون ، فيثور فــي نفوســهم التطلــع للغنــى والحصــول علــى المــال [1]، المال الذي لم يكونوا عــاجزين عــن إدراكــه بالوســائل المشروعة ، غير أن مجتمعهم كان ظالماً ، فلم يهيئ لهم ســبل العــيش ،لهــوان منــزلتهم الاجتماعية ، فشعروا بذله الفقر شعوراً حاداً ونقموا على المجتمع الذي لا يجعــل العدالــة ميزاناً له ، والذي يعيشون في ظله بينما يفري الجوع أحشاءهم في هذه الصحراء القاحلــة الرهيبة ، فجاشت نفوسهم بالثورة على هذا المجتمع الظالــم [2] .

2- غياب الدولة والسلطة الجامعة :

لم يعرف الجاهليون الدولة الجامعة التي تبسط عليهم سلطانها ، وتفرض قوانينهــا ، وتنظم شؤونهم وتسير حياتهم ، بل كان النظام القبلي هو السائد في الجزيرة العربية ، وكلما كانت القبيلة قوية كلما كانت أقدر على بسط سيطرتها وفــرض رؤيتهــا علــى غيرهــا ، فأصبحت القبيلة بنظامها هي السلطة المــسيطرة لأمــور الحيــاة الــسياسية والاجتماعيــة والاقتصادية لمن ينتمون لها .

لقد أبى الصعاليك الخضوع لهذه السلطة " لأنهم لا يؤمنون بأي سلطان من أي نوع وتجد هذه النزعة شائعة في شعرهم " [3] .

يقول الشنفري في اللامية مفضلاً الحياة مع الوحوش الضارية علــى حيــاة وســط مجتمع ظالم جائر متعسف [4] :

أقيموا بنـــــي أميّ صدور مطِّيكُم   **فــإنِّي إلــــــى قومٍ سِــــــواكُم لأمْيلُ**
فقد حُمَّتْ الحاجــــــاتُ والليل مُقْمرٌ   **وشُــدَّتْ لطيِّــاتٍ مطــايا وأَرْحُــــلُ** [5]

---

(1) انظر شعر الصعاليك ، عبد الحليم حفني ، ص 59 .

(2) انظر دراسات في الشعر الجاهلي ، محمد مصطفى هدارة ، دار المعرفــة ، ص5 .

(3) شعر الصعاليك ، عبد الحليم حفني ، ص 46 .

(4) ديوان الصعاليك ، يوسف فرحات ، دار الجبل بيروت ، ص 38 .

(5) حُمّتَ : تهيأت – الطيّات : الحاجات .

وفيِ الأرضِ مَنْأَى للكريمِ عن الأذى ... وفيها لمن خَاف القِلى مُتَعَـــــزل [1]
ولــــي دونكم أهْلُــون سِيْدٌ عَمَلَّسٌ ... وأرقَــطُ زُهْلُــول وعَرْفاءُ جَيْـــأَلُ [2]
هم الأهــــلُ لا مستودَعُ السِّر ذَائِعٌ ... لديْهِم ولا الجاني بمـــــاجرَّ يُخْذَلُ

فالذئاب والضباع والنمور مجتمع الشنفري الجديد وأهله الذي يفـضله علـى أهلـه الحقيقيين وقبيلته لأنهم أحفظ للسر، وأقدر على نصرته وحمايته ، وفيها من الخصال مـالا يوجد عندهم إنها دلالة رمزية فيها ما فيها من التشهير بمجتمع البشر بكل سلبياته .

وهذا تأبط شراً يتمرد على القبيلة وأعرافها ، محاولاً فرض رؤيته عليها وإلا فـإن في الأرض الواسعة ملاذاً وملجأ له حيث يقول [3]:

إني زعيمٌ لئن لم تَتْركُوا عَذَلي ... أَنْ يسْأَلَ الحــيّ عني أهلُ آفاق
أن يسأل القوم عني أهل معرفة ... فــلا يخبرهـــم عن ثابتٍ لا قي
لتَقْرَ عنَّ علىَّ الســنَّ من نَــدَمٍ ... إذا تذكَّرت يوماً بعض أخــلاقي

وهكذا نجد نزعة التحرر من السلطة والنفور منها شائع في شعر الصعاليك ومعنـى ذلك أن الصعلكة والسلطة – الحقيقية المتمكنة – لا يتفقان ، فقد وجدت أو بمعنـى أصـح شاعت الصعلكة لعدم وجود هذه السلطة ، ومفهوم ذلك أنه حيث توجد هذه السلطة لا توجـد الصعلكة ، ولو كظاهرة اجتماعية ، وهذا لا ينفي وجودها كحالات فردية ، فإن الـشذوذ لا يخلو منه مجتمع ، وهذه الحقيقة هي التي نهدف للوصول إليها ،فإن عدم وجود هذه السلطة في المجتمع الجاهلي كان من الأسباب الأساسية في وجود الصعلكة كظاهرة [4].

والحقيقة أن الصعلكة بقيت حتى بعد وجود السلطة القوية وهذا يفـسر جانبـاً مـن شخصية الصعاليك ،حيث التمرد والنفور، وكره الانقياد ، ورفض العيش الذليل ، والرضى بالقيم ، فهذا مالك ابن الريب يتمرد على دولة بني أمية ويهجو الحجاج وذلك حين يقول [5]:

إن تُنْصفونا يال مـروانَ نقْتَرِبْ ... إليكم وإلا فَأْذنـوا ببِعَـــــادِ
فإنَّ لنا عنكــم مَزَاحاً ومزحلا ... بعيسٍ إلى ريح الفلاةِ صَوَادِي [6]
ففي الأرض عن دار المذلَّة مَذْهبٌ ... وكلُ بلادٍ أُوْطِنَتْ كبـــــلادي
فماذا تُرى الحجــاج يَبلُغُ جُهْـدُهُ ... إذا نحنُ جاوَزْنَا حفير زيــــاد

---

(1) القلى : البغض والعداوة .

(2) السيد الذئب – العملسَّ : القوي – الأرقط : صفة النمر – الزهلول : الأملس – الجيأل :الضبع

(3) ديوان الصعاليك ص 148

(4) انظر شعر الصعاليك ، عبد الحليم حفني ص 46

(5) الكامل للمبرد ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية 1993م ص630 .

(6) المزاح : المذهب – المزحل : المنتحي .

فلولا بنو مروان كان ابنُ يوسف كما كان عبــداً مـــن عبيد إيـــاد

زمان هــــــو العبد المقرّ بذلـــة يراوح صبيان القُرى ويُغـــــادِي

من هنا أرى أن غياب السلطة الجامعة العادلة التي ترسي دعائم العدل والمساواة بين أفراد المجتمع كانت من أسباب ظهور الصعلكة ، وهذا يفسره تلاشي الصعلكة في عــصر صدر الإسلام أي في عهد النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين ،- اللهم إلا من الشواذ مثل شبيب بن عمرو بن كريب – وظهورها في عهد بني أمية بعد ذلك .

(3) طبيعة الأرض في الجزيرة العربيــــة :

كانت الجزيرة العربية بطبيعتها الجغرافية المتميزة ، تعتبر ملاذاً آمناً للــصعاليك ، حيث الصحراء المترامية الأطراف ، والجبال العالية الممتــدة ، ونـــدرة الميـــاه وقلتهـــا ، وصعوبة الطقس من حيث شدة الحر ،وشدة البرد . كل هذا جعل الصعلوك يشعر بنوع من الأمن على نفسه ، والبعد عن كل من يطلبه من أعدائه .

لذلك كان عليه أن يكون عالماً بمجاهل الصحراء ،يعرف دروبها وأوديتهـــا ،وجبالهـــا وواحاتها وطرق تجارتها ،حتى يعرف كيف يغزو وكيف يفر ناجياً بنفسه من عدوه .

ولا عجب أن تجد في شعر العرب عامة ، والصعاليك خاصة ما يصور لنا جانباً من طبيعة البيئة القاسية التي كانوا يحيون فيها . فهذا امرؤ القيس يصف وادياً مجدباً مقفــراً لا حياة فيه ، تعوي فيه الذئاب الضارية فيقـــول [(1)] :

ووادٍ كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعــوي كالخليع المعيَّل

فقلتُ له لمّا عــوى إنَّ شأْنَنـــا طويـــلُ العَنـــا إنْ كنْتَ لمّا تَحَوَّلِ

كلانا إذا ما نـــالَ شيئاً أفاتَــــه ومن يْحْتَرِثْ حرثي وحَرْثَكَ يهزل

ويصف الشنفرى البرد الشديد الذي يجعل صاحب القوس يكسرها وهي التي لا غنى له عنها – كل يستدفئ بها فيقول [(2)] :

وليلةَ نحسٍ يصطلـــــي القوسَ ربُّها وأَقْطُعَـــــــــه اللائي بها يَتَنبَّلُ [(3)]

دعستُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ وصُحْبَتي سعـــارٌ وإرزيزٌ ووجـــرٌ وأُفْكُلُ [(4)]

---

(1) شرح القصائد المشهورات . ابن النحاس ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان جـــ1 ص 33 .

(2) بلوغ الأرب في شرح لامية العرب . ص 204– 206 .

(3) النحس : البرد – الاصطلاء : التسخن بالنار – الأقطع : جمع قطع وهو نصل قصير عيريض السهم التنبل : تكلف الرمي بالنبل .

(4) الدعس : الطعن والوطء – الغطش : الظلمة – البغش : المطر الخفيف (سعار) حر يجده الإنسان في جوفه من شدة الجوع والبرد – الإرزيز : البرد – الوجر : الخوف – الأفكــل : الرعـــدة ..

ويصف الحر الشديد الذي يجعل الإنسان يرى خيوطاً كخيوط العنكبوت من شدة الهاجرة ، فهذا الحر لا تحتمله حتى الأفاعي التي اعتادت العيش في الصحراء فهي تتململ تململ المريض على فراشة فيقول [1]:

ويوم من الشِّعْرِيْ يَذُوبُ لوابه　　　أَفَاعِيه فـي رَمْضَائِـه تَتَمَلْمَلُ
نصبت له وجهي ولا كنّ دونه　　　ولا سـر إلا الأتحمـيُّ المرعبلُ

كل شيء في هذه الصحراء إذن قاس وعنيف ، فلا عجب أن تنجب أبناء قساة أشداء يألفونها، ويحيون فيها ، لما تيسره لهم من الاختفاء في مجاهلها، وجبالها ومتاهاتها، لـذلك نجد أن الصعاليك على الرغم من نشأتهم في أماكن قريبه من الخصب إلا أنهم يفضلون دائماً أن يكونوا في كنف هذه الطبيعة صعبة المنال ، فتجدهم يألفون الجبال والقفار والأماكن التي يخشى غيرهم ارتيادها . وحين ننظر إلى شعرهم نجده حافلاً بذكر هذه الأماكن الوحشية الموغلة في الوحشة والامتناع ، فتأبط شراً يتحدث عن موضع موحش يخافه العرب لاعتقادهم أنه لا يخلو من السعالي والغول وهو رحى بطان، ولكن تأبط يألف هذا المكان ولا يخاف غيلانه وسعاليه [2] بل يتحدث عن قتله إحداها فيقول [3] :

ألا مَنْ مُبْلغٌ فتيـان فهم　　　بما لاقيتُ عنْـدَ رحى بَطَـان
بأني قد لقيت الغـولَ تهوي　　　بسهبٍ كالصحيفةِ صحصحانِ [4]
فقلت لها : كلانا نضو أيـن　　　أخـو سفـرٍ فخلِّي لي مَكاني [5]
فشدت شدَّة نحوي، فأَهْـوَى　　　لها كفِّي بمصقولٍ يمانـي
فأضربُها بلا دهـشٍ، فَخرَّتْ　　　صَرِيْعاً لليديـنِ وللجـران [6]
فلـم أنْفَكَّ متَّكِئاً عليْهـا　　　لأَنْظرَ مُصْبِحاً مـاذا أتـاني [7]
إذا عينـانِ في رأْسٍ قبيحٍ　　　كرأسِ الهرِّ ، مشقـوق اللسان

إنها الطبيعة التي قست على أهلها ، ولكنها لم تخذلهم يوماً بل كانت موطناً وملجأ ومسكناً ألفوا العيش فيه ، بل لقد كانت رواحلهم تألف العيش في هذه الطبيعة وتشتاق إليها ، يقول مالك بن الريب :

---

(1) السابق ص 226– 227 . ، ديوان الصعاليك : 47– 48 .
(2) انظر شعر الصعاليك ص 64 .
(3) ديوان الصعاليك ص 171– 172 .
(4) السهب : المستوى البعيد من الأرض – السهب : الفلاة – الصحصحان : الأرض المستوية .
(5) النضو : المهزول لكثرة السفر – الأين : التعب ، والإعياء .
(6) الجران : في الأصل مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، مقدم الصدر .
(7) مصبحاً : دخل في الصباح .

فإن لنا عنكم مزاحاً ومزحلاً   لعيش إلى ريح الفلاة صوادي

(4) التمـــرد والخروج على الأعراف الســـائدة :

إن الشذوذ وسوء الخُلق لا يكاد يخلو منه مجتمع ، وكان يقابل في الجاهلية بنظـــام قبلي صارم ، وبعقوبة شديدة في الإسلام ، ففي الجاهلية كانت القبيلة تتبرأ من الشخص الذي تكثر جرائره وجناياته ، بأن تعلن في مواسم الحج أو الأسواق أنها خلعت (فـــــلاناً) فـــلا تطالب به إذا اعتُدى عليه ، ولا يلحقها من جريرته شيء إن اعتدى على أحد فعرف هؤلاء بعد ذلك (بالخلعاء) مثل قيس بن الحدادية ، الذي خلعته خزاعة بسوق عكـــاظ ،وأشـــهدت على نفسها بخلعها إياه، فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرُّها أحد عليه [1] .

إن هؤلاء الصعاليك فرغوا حياتهم لمزاولة الأعمال العدائية مـــن ســـطو، وقطـــع للطريق واعتداء على الممتلكات ومـــن هـــؤلاء : الأحيمـــر السعـــدي، وأبـــو الطمحـــان القيني، وصخر الغى الهذلي وغيرهم كثير .

[1] الأغانـــــي للأصفهاني ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، 1990م ، جـــزء 14 ،ص 137 .

الإســــــلام والصعلكـــــة :

جاء الدين الإسلامي مبشراً بعهد جديد ، عهد نور وهداية ، أمن وأمان ، جاء ليوحد الناس على دين رباني واحد ، أنار به القلوب ، فرققها وهذبها ونقاها من كل شائبة تشوبها ، فأشرقت الأرض بنور ربها ، واستنارت بنور الهداية والإيمان ، فتغيرت النفوس ، وتلاشت الأحقاد ، وأصبحت الأمة جسداً واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

لقد بدأ التشريع الإسلامي يوضح الأسس السليمة للمجتمع المسلم فوضـــع القـــوانين الصارمة التي تحد من كل عمل من شأنه أن يعكر صفو الحياة ، خصوصاً تلك الأعمال التي عانى منها المجتمع أشد المعاناة مثل قطع الطريق ، والإغارة على القوافل والغزو والـــسلب والنهب والقتل وغيره .

فهذا رسولنا الكريم ﷺ يعد أصحابه بالأمن والأمان الذي ينشدونه والذي لا يتحقق إلا بانتشار الدين الجديد قائلاً : " **والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلـــى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه** " .

ووقف القرآن الكريم موقفاً حازماً من كل من تسول له نفسه تعكير صـــفو الحيـــاة واستتباب الحرمات والأموال ، وقطع الطريق وإرهاب الناس ، قال تعالى : " **إنمـــا جـــزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يـــصلبوا أو تقطـــع أيديهم وأرجلهـــم من خـــــلافٍ أو ينفـــوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم فـــي الآخرة عذابٌ عظيـــم (33) إلا الذين تابـــوا من قبـــل أن تقـــدروا عليهم فاعلمـــــوا أن الله غفـــور رحيـــم**" [1] .

لا عجب أن نرى بعد ذلك أن الصعلكة أصبحت غريبة في المجتمع المسلم بل لم تعد محل فخر كما كانت في الجاهلية لهذا نرى أن كثيراً من الصعاليك يترك الـــصعلكة ويعلـــن توبته ، وينخرط في الدين الجديد الذي طابت له نفسه بعد أن قضى على الفوارق الاجتماعية فلا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وعدل في تقسيم الأرزاق بين جميع أفراد المجتمع .

ومن هؤلاء التائبين الأحيمر السعدي الذي كان سيفه يهدد التجار وقوافلهم كما يقول

يُعَيرُنِي الإعْدَامَ والبدوُ معرضٌ وسيفي بأمـــوال التجار زعيمُ

وكان يستبشر إذا ما سمع نهيق حمار لأنه يؤذن باقتراب التجار حيث يقول :

نهق الحمار فقلت أيمن طائرٍ إن الحمار مـــن التجـــار قريب

ثم تاب فلم يخُفِ حنينه إلى عادة سيطرت على حياته ، ولكنه مع هذا الحنين مصر على التوبة بل ناصح للصعاليك بأن يسلكوا طريق التوبة فيقول :

---

(1) المائـــــدة 33-34 .

أشكو إلى الله صَبْري عن زوامِلهم وما أُلاقي إذا مرّوا مـــن الحُزن
فربَّ ثوبٍ كـــــــريمٍ كنْتُ آخُذُه من القِطَارِ بلا نقدٍ ولا ثمـــــــنِ
قل لِلصُوصِ بني اللّخناء يَحْتسبوا بَزَّ العراقِ ويَنْسَوا طُرْفَةَ اليمن [1]

ومن التائبين يزيد بن الصقيل العقيلي ، والذي تاب واطمأن للتوبة ، يقول مقارناً بين حاله قبل التوبة وبعدهـــا :

ألا قُلْ لأَربابِ المخائضِ أَهْملوا فَقَدْ تابَ مما تعلمـــــونَ يَزيدُ
وأَن امرءاً ينجو من النار بعْدَما تَزوَّدَ من أعمالهـــا لسعيــدُ [2]

ومن الذين تابوا وتركوا الصعلكة في الإسلام ، أبو خراش الهذلي الذي أسلم وعاش بعد النبي ﷺ مدة ومات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه [3] .

ومنهم عبدة بن الطبيب الــذي أسلم وشهد مــع المثنى بن حارثــة قتــال هرمــز سنـــه 13هـــ ، وله في ذلك 'آثار مشهــورة ، وكان في جيش النعمان بن مقــرن الــذي حـــارب الفــرس بالمدائن [4] .

لم يقض الإسلام على الصعلكة قضاء تاماً، بل بقيت فـــي جميـــع مراحـــل الدولـــة الإسلامية وإن كانت قد ضعفت في صدر الإسلام، وما إن بدأت الخلافات تدب بين المسلمين طوائف وأحزاب، ويستشري القتال، وتتقطع الأوصال، وتشتعل الفتن ،وتـضعف الـسلطة الحاكمة حتى بدت الصعلكة تظهر من جديد ،ولكنها تميزت عن صعلكة الجاهليـــة بالطـــابع الفردي، لأنها ظلت بعد الإسلام أقرب للشذوذ الذي لا يكاد يخلو منه مجتمع من المجتمعات ولكن الصعلوك ظل منبوذاً في المجتمع المسلم، مما جله يفرمن الناس خوفاً من العقاب الذي قد يلقاه، يقول الأحيمر السعدي مصوراً أنسه بالذئب وخوفه من الناس .

وإني لأستحـــــي من الله أن أُرى أجـــرِّرُ حَبْلاً ليس فيه بعيـــــرُ
وأنْ أَسأَلَ الجبس اللئيمَ بَعيْــــــرهُ وبُعْرانُ ربي في البلادِ كثيـــرُ
عوى الذئبُ فاستئنستُ بالذئبِ إذْ عَوَى وصَّوتَ إنســانٌ فكدْتُ أطيـــرُ
يرى الله أَنِّــــــــي للأَنيسِ لشانئٌ ويبغضهم لي مُقْلَةٌ وضميــرُ [5]

---

(1) ديوان عروة – المقدمة – أسماء أبو بكر ص 38 .
(2) السابق ص 97 .
(3) أنظر الأغاني جزء 21 ص 230 وما بعدهــــا .
(4) المفضليـــات ص 134 .
(5) مقدمة ديوان عروة ص 28 .

وهذا شبيب بن عمرو بن كريب يفر من علي بن أبي طالب على فرس لـــه تـــسمى العصا وكان علي قد أرسل في طلبه ابني شميط ، ففر منه ويذكر ذلك قائلاً [1]

ولم أن رأيت ابنـــي شُمَيْط بسكة طـــئ والبـــاب دونـــي [2]
تجللت العصـــا وعلمت أنِّي رهين مُخَيِّسٍ إن أدركـــــوني [3]
ولـــو أنـــي لبثت لهم قليلاً لجُــروني إلـــى شيــخ بطيــن [4]
شديد مجامع الكتفين بـــاق على الحدثـــان مختلف الشــؤون

فقال على بن أبي طالب معلقاً لما سمع : " والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو ظفرت به لصدقت ظنه " [5].

وهذا صاحب شرطة يوسف بن عمر يظفر بأبي الطمحان القيني فيحلق شعره فيقول فـــي ذلك :

وبالحيرة البيضاء شيخ مسلط إذا حلف الأيمان بالله بـــرّت [6]
لقد حلقوا منهـــا غـــدافاً كأنه عناقيد كرم أينعت فا سبكرت [7]

ومن الشعراء الذين هربوا من الحجاج مالك بن الريب المازني وفي ذلك يقول [8]:

إن تُنْصفُونا يال مروانَ نَقْتَرِبْ إليكم وإلا فَأْذنـــــوا بِبِعَـــادِ
فإنَّ لنا عنكـــم مَزَاحاً و مَزْحَلاً بعيسٍ إلى ريح الفـــلاةِ صَوَادِي

.... الأبيات سالفة الذكر .

وهذا أبو النشناش النهشلي الذي كان يعترض القوافل في شذاذ من العرب بين طريق الشام والحجاز فيحتاجها ، فظفر به بعض عمال مروان فحبسه وقيده مدة ، ثم أمكنه الهرب في حين غفلة ، فقال في ذلك شعراً سار فيه على نهج صعاليك العرب في فخرهم بالحصول على المغانم والأسلاب ، وأن العيش يطلب من صاحبه الجرأة وألاً يبالي بالموت في ســـبيل الظفر بما يغنمه من المال . يقـــول [9]:

---

(1) الحماسة ص 252 – 253 .
(2) السكة السطر من الشجر
(3) العصا : اسم فرس – مخيِّس : اسم سجن .
(4) السيخ البطين : يقصد على كرم الله وجهه .
(5) الحمـــــــاســـة ص 412 .
(6) الحيرة : بلد بالكوفة .
(7) اسبكرت : طـــالت .
(8) الكــــامــل ص 630 .
(9) الأصمعيات ص 118 – 119 .

وسائلة أين الرحيل وسائـــــــــل **ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبـــه**
وداوية يهماء يخشى بها الــــردى **سرت بأبي النشناش فيها ركائبه [1]**
ليدرك ثأراً أو ليــــدرك مغنمـــــاً **جزيلاً وهذا الدهرُ جمُّ عجـــائِبُهْ**
إذا المرء لم يَسْرَح سَوَاماً ولم يرُحْ **سَوَاماً ولم تَعْطِفْ عليـــه أقاربُه [2]**
فللموت خيرٌ للفتى مـــن قُعودِه **فقيراً ومن مَوْلــي تَدبُّ عقاربُـــه [3]**
ولم أر مثل الهم ضاجَعَـهُ الفتى **ولا كسوادِ الليِّـــل أخْفَقَ طالبُـــــه**
فمُتْ مُعْدَمَاً أو عِشْ كريماً فإنَّني **أرى الموت لا ينجو من الموت هاربُه**
ولو كانَ شيءٌ ناجياً مـــــن مَنيِّة **لكان أُثَيْــرٌ يوم جَاءَتْ كتائبـــــه [4]**

إنها حياة الصعلوك أيما وجد، حياة كلها حركة ونشاط، حياة لا خمول فيها، أمـــواج متلاطمة من الكرّ والفرّ، والجوع و الشبع، والخوف والأمن والحل والترحال .

إنه الإسلام العظيم الذي حارب الصعلكة حرباً لا هوادة فيها، جعل الصعلوك يشعر شعوراً صادقاً أن الحياة في المجتمع المسلم لا تستقيم للصعلوك إلا بتركه الصعلكة، وإلا فإن عليه أن يغادر هذا المجتمع، إلى مكان يتسع له لا يضيق به، وأنَّى له هذا المكـــان ؟ إنهـــا الصحراء إذن ثانية فهي المكان الآمن الذي لا يخشاه الصعلوك .

أنظر إلى عبيد بن أيوب العنبري الذي يترك حياة الناس ومجتمعهم ويعيش فـــي الـــصحراء برفقة سيفه الذي لا يفارقه فهو و إن كان من الإنس إلا أنه غـــدا كـــالجن فــــي الـــشكل والصفات ، يقول في ذلك :

فإنى وتركي الإنْسَ مِنْ بَعْد حبِّهم **وصَبْرِيَ عمَّنْ كنت مـــا إن أُزايلُهْ**
لكالصقر جلىَّ بعدما صـــاد مُنْيَـــةً **قديراً ومشوياً عبيطاً خـــــــرادِلُه**
أهابوا به فازداد بُعْــــداً وصـــــدّه **عن القُرب منهم ضَوْءُ بَرْقٍ ووابله**
ألم ترني صاحبت صفـــــراء نَبْعَةً **لها ربذي لم تُفلِّلْ معابِلُــــــــــــه**
وطال احتضاني السَّيْفَ حتى كأنما **يُلاطُ بكشْحي جَفْنُـــه وحمائِلُـــــه**
أخو فلوات صاحب الجن وانتحـــى **عن الإنس حتى قد تَقَضَّت وسائِلُهُ**
له نَسبٌ الإنسيِّ يُعْرفُ نجــــــره **وللجنِّ منه شكلُـــــهُ وشمائِلُـــه [5]**

---

[1] داوية :المفازة البعيدة الأطراف – اليهماء : الفلاة التي لا ماء فيها ، ولا يهتدي لطرفهـــا .

[2] يسرح : سرحت الإبل رعت ، (الـــوام) الإبل الراعية .

[3] تدب عقاربه : كناية عن الأذى .

[4] أُثيـــر : بضم الهمزة هو أُثير بن عمرو الكوني الذي دعي لعلاج علي بن أبي طالب ، وكان أبصر الأطباء بالطب

[5] الكامل للمبرد : ص 440 .

لقد ظل صعاليك الإسلام محتفظين بالطابع العام لشخصية الصعاليك من صلابة وشدة وتحرر واعتداد بالذات، وكان لهم من القوة والمنعة ما جعل كثيراً من الأطراف المتنازعة في صراعات الفتن تحاول استمالتهم، كما في أخبار عبد الله بن الحر الذي تودد له كل من معاوية وعبد الملك بن مروان لكنه ظل حصناً مستقلاً عن الانطواء تحت أي سلطان، وكذلك طلب منه الحسين بن علي العون في القتال، فأبى وظل معتصماً بقوته واستقلاله [1].

وحاول بعض الأمراء استمالة بعض الصعاليك الشعراء كي يستفيدوا من شعرهم، فقربوهم وأجزلوا لهم العطاء، من هؤلاء بكر بن النطاح الذي رافق أبا دلف ومدحه [2].

وكذلك ما كان من مرافقة مالك بن الريب لسعيد بن عثمان والي خراسان [3].

الأسباب التي أدت إلى عدم توقف الصعلكة في عهد بني أمية :

(1) جور وظلم الدولة الأموية :

كانت الأموال التي ترد على بيت مال المسلمين في عهد بني أمية كثيرة، وكثيرة جداً، ولكن خلفاء بني أمية لم يعدلوا بين الرعية في تقسيمها، حيث أن الخلفاء الأمويين أعطوا القبائل الموالية لهم، وحرموا كل من ناصبهم العداء، ولم يلق لهم عصا الطاعة، وأضف إلى ذلك قسوة عمالهم، وولاتهم في جمع الأموال من الرعية، دون شفقة أو رحمة، أو مراعاة لظروف اقتصادية أو غيرها، " إن الصعاليك الأمويين لم يكونوا بعيدين عن هذه المظالم، بل كانوا متصلين بها واعين لها، ساخطين علي الخلفاء الأمويين بسببها، ولعل أشهر صعلوك ندد بسياسة الأمويين الجائرة هو مالك بن الريب التميمي " [4] .

يقول مالك بين الريب منددا بجور الأمويين وظلمهم :

أحقاً على السطان أما الذي له فَيُعْطَى وأما ما عليه فيمنع
وما أنا كالعير المقيم لأهله على القيد في بحبوحة الضيم يرتع [5]

وفي أبيات أخرى يبدي رفضه لحالة الاضطهاد الذي يعاني منها، فيقول مهدداً :

---

(1) انظر خزانة الأدب للبغدادي جزء 2 ، ص 19- 22 ، عن الشعراء الصعاليك حفني (ص100) .

(2) انظر الأغاني جزء 19 ، ص 36 وما بعدها .

(3) السابق جزء 22 ص 304 وما بعدها .

(4) انظر الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ، حسين عطوان ، دار الطليعة ، بيروت الطبعة الثانية 1981م ، ص 58 .

(5) الأغاني ، جزء 22 ص 309 – 310 .

إن تُنْصفُونـــا يـــال مروانَ تَقْتَرِبْ **إليـكــم وإلا فَأْذنـــــوا ببِــعَــادِ**
فإنَّ لنا عنكم مَـــــــزَاحاً و مَزْحَلاً **بعيسٍ إلى ريح الفــلاةِ صَــوَادي**
ففي الأرض عن دار المذلّةَ مَذْهبٌ **وكلُ بلادٍ أُوْطِنَتْ كبــــــلادي** [1]

إن مالك بن الريب يشكو من ظلم بني أمية، وجورهم ،وعدم عــدلهم بــين القبائــل العربية، ومن الصعاليك الذين رافقوا مالك بن الريب وثاروا معه، شظاظ وهو مولى بنـــي تميم، وكان أخبثهم، وأبـــو حردبـــة أحـــد بني اثالـــه بن مـــازن، وغويث أحـــد بني كعب بن مالك بن حنظلةَ وفيهم يقول الراجـــز :

الله نجاك مــن القصيـــــــــمِ **وبطن فَلْـــج وبنـــي تميـــمِ**
ومن بني حـــرْدبــةَ الأثيــــمِ **ومالكٍ وسيفـــــهِ المسمــــومِ**
ومن شظاظ الأحمرِ الــزنيــمِ **ومن غُـــوَيْثٍ فــاتحِ العُكوم** [2]

(2) اضطـــراب الأحـــوال السياسيـــة :

كان عهد بني أمية عهد فتن وثورات وتمرد، الأمر الذي شغل الأمـــويين طـــويلاً، وكلفهم كثيراً، فكان الأمويون يستعينون ببعض القبائل العربيـــة العدنانيـــة علـــى أعـــدائهم الثائرين، هذه القبائل التي لا يلتفتون لها إلا في وقت الشّدة، فإذا ما أخمـــدوا نـــار الفتنـــة، واستتب لهم الأمر، انقلبوا على هذه القبائل، الأمر الذي يرى فيه بعض الشعراء الصعاليك، خيانة للعهد، وإنكارًا للفضل، يقـــول مالك بن الريب :

لو كنتم تنكرون الغدرَ قلت لكم **ياآل مـــروان جاري منكم الحكم**
لا كنت أحدث سوءاً في إمارتكم **والــــذي كـــــان مني قبل ينتقم**
نحن الذين إذا خــفتم مجلِّلَـــــةً **قلتم لنا إننا منكــــم لتعتصمـــوا**
حتى إذا انفـــرجت عنكم دُجُنَّتُها **حِرْتُمْ كَجَرْمٍ فلا إلٌ ولا رَحِـــــمُ** [3]

ومن أبـــرز الصعاليك الأمـــــويين الذيـــــن أنـــشـــأتهم الأحـــــوال الـــسيـــاسية المضطربة عبد الله بن الحجاج من قيس، وعبيد الله بن المر الجعمي، أما عبد الله بن الحجاج فيصفه أبو الفرج الأصفهاني بأنه " شاعر فاتك شجاع من معدودي فرسان مضر ذوي البأس والشجاعة والنجدة "، كما يصفه أيضاً بأنه : كان شجاعاً فاتكاً صعلوكاً من صعاليك العرب،

---

(1) الكامل للمبرّد : 630 .
(2) الأغـــــاني : جـــ22 : 305 .
(3) الأغـــــاني ، جـــ310:220 ، – الإل : العهد ، المـــرحـــم : القرابـــة .

متسرعاً للفتن [1] " وليس من شك في أنه لم يتصعلك ولا تسرّع إلى الفتن إلا لأنه رأى الأمويين قد أرهقوا قبيلته من أمرها عسرا، ونكلوا بها في موقعة مرج راهط أشد التنكيل، ومن أجل ذلك فإنه انحاز إلى كل من تمرد عليهم، نكاية بهم، وإغاظة لهم، وسعياً للإطاحة بهم [2] .

(3) العصبية الجاهلية :

نحن نعلم أن القبائل العربية آمنت بالإسلام واطمأنت له وعملت بتعاليمه ، فسادت الأخوة في الدين ، وذابت العصبية المقيتة فأصبح التعصب للدين ، و للقبيلة ،غير أن نفرا من العرب لم يعجبهم هذا الانقياد، وهذه الطاعة، فاستحكمت منهم الجاهلية بعصبيتها ، فأصبحوا شذاذاً، تخلت عنهم قبائلهم، ونفتهم، لكثرة جرائمهم . فلم يجدوا ملاذا لهم إلا الصحراء بعيداً عن عيون الدولة وكل من يحاول الإمساك بهم أواعتقالهم .

ومن هؤلاء الصعاليك يعلى الأحول اليشكري الذي خلعة قومه وتبرأوا من جرائره إلى العرب، فانضم إلى اللصوص وأخذ يغير على أحياء العرب ويقطع السابلة [3] . والأحيمر السعدي الذي كان (لصاً) كثير الجنايات ، فخلعه قومه، وخاف السلطان، فخرج في الفلوات وقفار الأرض [4] وعبيد بن أيوب العنبري، وكان قد جنى جناية فطلبه السلطان . وأباح دمه، فهرب في مجاهل الأرض، وأبعد لشدة الخوف ،وكان يخبر في شعره أنه يرافق الغول والسِّعْلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعي ويأكل مع الظباء [5] والقتال الكلابي، وهو من بني أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وهو القائل :

أَيُرْسِلُ مروانُ الأميرُ رسالَةً لآتيهُ، إنــي إذن لُمضَلّلَ
وفي باحَةِ العَنْقاءِ أوفي عَمَايَةٍ أو الأُدمى من رَهْبَةَ المــوت مَوْئِلُ

وكان فاتكاً متمرداً ، خلعته قبيلته لكثرة جناياته [6] .

---

[1] انظر الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ، دار الطليعة بيروت ، الطبعة الثانية 1981م ، ص 59- 60

[2] السابق : 60 .

[3] السابق : 61 .

[4] الشعر والشعراء : جـ2 : 671 .

[5] السابق :جـ2 : 668 .

[6] الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الجزء الثاني : ص 594 .

" وعلى اختلاف هذه الطبقات الثلاث وهم الذين تصعلكوا تمرداً علـى الظلـم الاجتمـاعي والذين ثاروا أنفة وشذوذاً وعصبية جاهلية، والذين خرجوا على السلطان عصبية لقبـائلهم وثورة على جور السلطان الحاكم التي تألّف منها الصعاليك في المجتمع الأُمـوي وتبـاين الأسباب التي حملتهم على التصعلك فقد وحد بينهم الفقر والتَّأبُّد والثورة ، ونزلوا بالصحراء أو بالمناطق التي لا يمتد إليها نفوذ والدولة ، خارجين عن قبائلهم ،وثائرين على السلطان ، ومتخذين الغزو والإغارة وسيلة إلى كسب آوادهم ومؤمنين بأنهم لا يرتكبون خطـأ ، بـل يحافظون على حياتهم ، ويحققون الكرامة لأنفسهم [1] " .

إن حركة الصعلكة ظهرت بقوة في العصر الأموي ، للأسباب السالفة الذكر . وظل صعاليك العصر الأموي يحيون حياة مشابهة لحياة صعاليك الجاهلية من حيث العـيش فـي الصحراء بعيداً عن الناس ، يغيرون على القوافل ، ويقطعون الطرق وفي بيئـة مترامية الأطراف سهلت عليهم سبل العيش والاختباء عن أعين الناس ، فظلوا مشردين منبـوذين ، مطاردين يحيون حياة الأنفة والكبرياء ، لا يرون لأحد عليهم فضلاً ولا يدينون لـسلطان ، يقول مالك حين وافته المنية بعيداً عن وطنه [2] :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكياً

وأشقر خنذيـذ، يجر عنانـه إليّ الماء لم يترك له الدهر ساقياً [3]

إنها حياة الصعاليك في الجاهلية والإسلام ، ليس لهم إلا التشرد والبعد عـن أهلهـم ووطنهم ، بعيداً في مجاهل الصحراء ، حيث الجبال و الأودية ، والملاذ الآمن من الأعداء . إنها البيئة العربية هي هي ، لم تتغير ، وذلك لأن الكثير من القبائل العربية في عهـد بنـي أمية كانت ما زالت محافظة على طابع عيشها ، ولم تتغير.

[1] الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ، حسين عطوان : 62 .

[2] جمهرة أشعار العرب ، الأبي زيد القرشي : 348 .

[3] الخنذيذ: الجواد الكريم الأصيل .

ثانياً – مكانـــة المــرأة فـــي العصـــر الجــاهلـــي

احتلت المرأة في عصر ما قبل الإسلام مكانة رفيعة سياسياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً مكانة يمكن استيضاحها بجلاء من خلال النظر في شعر العرب الذي هو مــرآه حيــاتهم ، ولسان حالهم ، الذي لا يوجد أصدق منه دليلاً ، كذلك بالنظر فــي بعــض كتــب التــاريخ وغيرهــا .

1- المكانــــة الاجتمــاعيــة :

لم يكن دور المرأة في الجاهلية خافياً على أحد ، حيث سادت ،و شُرفت ، وعلــت مكانتها ، فاعترف لها الرجل بالفضل والمنزلة الكريمة السامية ، بل تودد إليها أحيانا لينــال رضاها ، ويستميل قلبها ، فمن أجلها يحارب ، ويستبسل في حربه ، ولها يتوجــه بكــريم الصفات ، وعظيم الفعال ، يقول عنترة مخاطباً ابنة عمه ، ومفتخراً ببطولاته وتضحياته في الحــرب :

هلا سألت الخليل يا بنة مالك   إن كنت جاهلة بما لم تعلـــــمي

يخبرْك من شهد الوقيعة أنني   أغشى الوغى وأعف عند المغنمِ (1)

ومن الدلائل على المنزلة العظيمة التي تبوأتها المرأة وصــولها لمواقــع الــسلطة والرياسة مثل (زنوبيا) التي حكمت تدمر ، و(بلقيس) التي حكمت سبأ ، حيــث صــور القرآن عظم عرشها بقوله : " أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم" (2) ، ووصف حكمها الذي يقوم علي الشورى فقال " يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعــة أمــراً حتــى تشهدون " (3) .

ومن النساء من عرفت واشتهرت بالفطنة والذكاء واللسن واللقن والجواب العجيــب والكلام الفصيح والمثل السائر كما اشتهر بعض الرجال، فمنهن هند بنت الخــس – وهــي الزرقاء، وجمعة بنت حابس، ورابعة القيسية، ومعاذة العدوية، ومنهن صحر بنــت لقمــان، وحذام بنت الريان . ومن الشهيرات اللواتي ضــرب بهــن المثــل ماريــةَ بنت ظــالم بن وهب بن الحــارث الكنديــة، وهــي أم الحــارث الأعــرج ملك غســان، التي يقـــول فيهــا حســان بــن ثـــابت :

---

(1) ديــوان عنترة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، طـــ 1985م ص 123

(2) النمـــل (23) .

(3) النمـــل (32) .

أولاد جفنة حــول قبر أبيهم　　　　قبر بن ماريةَ الكريم المفضل [1]

وقد ضرب المثل بقرطيها فقيل : " خذه ولو بقرطي ماريةَ " أي خذه ولو بالــشيء العزيز الذي لا يقدر عليه [2].

ومن علو شأن المرأة في الجاهلية أنها كانت تجير كالرجال ويقبل جوارهــا ، فقــد أجارت فكيهة بنت قتادة السليك بن السلكة وحمته ، وفي ذلك يقول :

لعمر أبيك والأنبــاء تنمــــي　　　　لنعم الجارُ أختُ بنـــي عــوارا

من الخفرات لم تفضح أباهــا　　　　ولم ترفع لإ خوتهـــا شنـــارا

وما عجزت فكيهة يــوم قامت　　　　بنصل السيف واستلبوا الخمارا [3]

وحمت ريطة بنت جذْل الطَّعَّان دريد بن الصمة ، اعترافاً بفضله ، لأنه كــان قــد أعطى رمحه ربيعة بن مكدم يوم حمى الظعينة ، وألقت عليه ثوبها وقالت : ياآل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادي ، فحبسه القوم وقالوا لا ينبغي أن نكفــر نعمتــه ، وقال بعضهم والله لا يخرج من أيدينا إلا برضى المخارق الذي أسره ، فإنبعثت ريطة فــي الليل تقــول :

سنجزي دريداً عن ربيعة نعمة　　　　وكل فتى يجزى بما كان قدمـــا

سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة　　　　بإعطائه الرمح السديد المقـــومّا

فلو كان حياً لم يضق بثوابــه　　　　ذرعاً ، غنياً كان أو كان معدمــاً

ففكوا دريداً من أسار مخـــارق　　　　ولا تجعلوا البؤس إلى الشر سلما

فلما أصبح القوم تعاونوا بينهم فأطلقوه ، وكسته ريطة وجهزته ، ولحق بقومه ، فلم يزل كافاً عن غزو بني فراس حتى هلك [4].

بل لقد سمت بالمرأة مكانتها إلى أن تشترك أحياناً في حلف الرجال ، وتتعاقد معهم على ما يتاعقدون عليه ، فقد اشتركت عاتكة بنت مرّة بن هلال زوجة عبد مناف في حلــف الأحابيش بين عبد مناف وخزاعة ،وبني الحارث بن عبد مناف بن كنانة [5].

واشتركت أم حكيم البيضاء أو أختها عاتكة بنت عبد المطلــب فــي خلــف المطيبــين ، إذ أخرجت طيباً في جفنة ، فتطيب به بنو عبد مناف ، وأسد ، وزهرة ، وبنو تمــيم ، وبنــو

---

(1) الديــوان ، دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان طـــ. 1986م ص148 .

(2) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ص524 .

(3) ديوان الصعاليك ، 187، 188 . الخفرات : الحييّات ، الشنار : العيب والعار .

(4) المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، ص 535 – 536 .

(5) السابق ص 537 .

الحارث من فهر ، فسموا المطيبين ، وكان ذلك لما تحالف بنو عبد المطلـــب ، وآزر بنـــى سهم بني عبد الدار [1] .

وشاركت عاتكة بنت عبد المطلب ، أو أختها أم حكيم البيضاء في حلــف الفــضول الذي شهده الرسول ﷺ الذي قال فيه " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النَّعَم ، ولو أُدْعَى به في الإسلام لأجبت " وكان هذا الحلف لنــصرة المظلــوم وحماية المستضعف [2].

2- حقـــوقهــــــا :

تمتعت المرأة بحقوق واسعة في العصر الجاهلي ، ربما لم تتمتع بها مثيلاتها مـــن النساء الأخريات في المجتمعات المجاورة للمجتمع العربي ، وفي الشعر دلائل كثيرة علـــى ذلك . " فالمرأة وهي فتاة تعيش في بيت أبيها تلقى منه كل عطف ،ومن حقها أن تنعم بحياته وخيره ، وقد عاشت بنات الأشراف ، –خاصة– ،عيشة رغيدة ناعمة ، كما تشاهد صورهن في الشعر فلبسن الخز والحرير والديباج ،وقامت الإماء العديدات على خدمتهن " [3] يقـــول الأعشـــى :

ترى الخـــزَّ تَلْبَسُــــهُ ظاهراً وتبطن من دون ذاك الحـــريـــرا
إذا قَلَّـــدتْ معصمـــاً يا رقيــ ن فصِّـــل بالـــدر فصلاً نضيـــرا
وجَـــــلَّ زبَـــرْجَـــدَةٌ فَوْقَـــهُ وياقوتـــةٌ خِلْتَ شيئـــــاً نكيرا [4]

بل لقد كانت البنات حقيقات بعطف الآباء وتدليلهم ، يقول الأعشى [5] :

ألا قل لتيّاك مابالهــــــــــا أللبين تُحْـــــدج أَحْمَـــالُهـــــــا [6]
أم للدلال فـــإن الـــفتـــــــا ة حـــقٌ على الشـــيخ إدلالُهـــــا

وربما نجد العربي يحرص على حياته من أجل بناته [7] ، كي لا يمسهن ضرر بعده وقد نجده مشغولاً بهن بعد موته ، فيطلب منهن ألا يخمشن وجهاً ، ولا يحلقن شعراً ،تفجعاً عليه [8]، وكل ذلك شفقه بهن ، ومحافظة عليهن .

---

(1) السابق / 538 .

(2) سيرة بن هشـــــام جـــ1 ، 144 . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازي بالقاهرة .

(3) المرأة العربية في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي :ص 59 .

(4) الديوان :131.

(5) الديوان :199.

(6) الحدج : هو مركب من مراكب النساء كالهودج .

(7) انظر شعر اسحق بن خلف ، زهر الآداب جـــ2 : 174 ،القاهرة 1969م .

(8) انظر شعر لبيد ،العقد الفريد ،تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر جـــ1 : 275 .

إن هذه الفتاة المدللة المنعمة ، ذات المكانة المرموقة ، والمنزلة الرفيعة ،عند والديها وأهلها وعشيرتها ، كانت من حقها أن تختار شريك حياتها إذا ما خطبت ، فترفض من تشاء وتوافق على من تشاء ، فهذا تأبط شراً يخطب امرأة من هذيل من بني سهم ، فترفضه ، لقول بعضهم لها : لا تنكحيه ، فإنه لأول نصل غداً يفقد ، فيقول معلقاً على رفضها [1] .

وقالوا لا تنكحيه فإنه ... لأول نصل أن يلاقي مجمعا
فلم ترمن رأي فتيلاً وحاذرت ... تأيُّمها من لابس الليل أرْوعا [2]
قليل غرار النوم أكبر همِّه ... دم الثأر أويلقى كمياً مقنّعا [3]

ورفضت الخنساء دُريد بن الصمّة زوجاً لها بالرغم من أنه كان سيد قومه وفارسهم الشجاع ، وشاعرهم المفلَّق [4] . إن المرأة العربية تحب الزواج من الشاب اليافع القوي ، وترفض الزواج من الشيخ الكبير ، وهذا سبب مقنع لرفض الخنساء دريد ، كذلك رفضت علقمة بنت خصفة الطائي الحارث بن سليل الأسدي ،وكان شيخاً ، وفضلت بنت ذي الإصبع العداواني الشاب زوجاً على غيره [5] .

وإذ كان من حق المرأة أن تختار شريك حياتها ، فإنه كان من حقها أن تراقب أفعاله وتصرفاته ، وأن تطلع على شؤونه وماله لأنها ترى أن خيره وشره ، إنما يعود عليها ، ولذلك نجدها تلومه إن أسرف في ماله، وتدعوه إلى الاعتدال، يقول تأبط شراً [6] .

بل من لِعَذّاله خَذّالة أشب ... حرَّق باللَّوم جلدي أي تمراقِ
تقول أهلت مالاً لو قنعت به ... من ثوب صدق ومن بز وأعلاق
عاذلتي إن بعض اللوم معنفةٌ ... وهَلْ متاعٌ و إن أبْقَيتَهُ باق [7]

ولامت زوجه حاتم زوجها على إسرافه لوماً كثراً ،وله شعر جميل في الرد عليها . [8] كذلك كانت ترى من حقها أن تحافظ على حياته وتلومه على تعريض نفسه للخطر [9]

---

(1) الأغاني جـ21 : 164 ،والحماسة لأبي تمام : 189 ، وديوان الصعاليك : 138 – 139 .
(2) فتيلاً : بديلا ، التأيم: فقد الزوج .
(3) الكمي : : البطل المسلح .
(4) انظر القصة في شاعرات عصر الإسلام الأول .د0 نبيل أبو علي :21 ، 22 .
(5) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي : 168 وما بعدها .
(6) المفضليات : 30 .
(7) العذالة : الكثير االعذل – الأشب : المعترض – العلائق : كرائم الأموال – البز : الثياب
(8) انظر ديوان حاتم الطائي : 74 ، 78 ، 83 ، 104 ، دار صحب بيروت ،
(9) انظر ديوان عروة : 67 ، والأصمعيات : 43 ، 44 .

ولا يعني هذا أن المرأة كانت تريد من زوجها أن يكون بخيلاً أو جباناً ، بل نجدها تلومه على الجبن إذا جبن، فهذا تأبط شراً يفرُّ عن صاحبه الذي قتل ، ويعود وحده فتقول له زوجته تركت صاحبك وجئت متباطئاً [1] " لقد كانت المرأة ميزاناً من موازين الاستقامة ترى في الرجل ما يراه ، ومالا يراه ، وتسعى لتقوم ما أعوج من خلقه وعمله ، فكان من حقها أن تمنعه من الإسفاف والعكوف على اللهو والخمر [2] " يقول الأعشى [3] :

ذريني لك الويلات آتي الغوانيا　　　متى كنت زرّاعاً أسوق السوانيا [4]

ومن الحقوق التي حصلت عليها المرأة ،وخصوصاً بنات الأشراف ، هي حقوق التملك ؛ مثل أن تملك قرارها في تطليق نفسها من زوجها متى شاءت ، إذا لم تستقم لهن الحال ولم يطب لهن العيش ، ومن هؤلاء ، سلمى أم عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف ،و فاطمة بنت الخرشب الأنمارية ،وهي أم الكملة ، وأم خارجة بن بجيلة ، ومارية بنت الجعد وعاتكة أم هاشم [5] .

كما كان من حقها تملك المال ، تتصرف فيه كما يتصرف الرجل ، مثل زوجة حاتم الطائي التي كان لها مالها ، وله ماله ، فهو يطلب منها أن تتركه يتصرف في ماله ، وهي حرة في مالها الخاص بها ، يقول :

ذريني وحالي إن مالك وافر　　　وكل امرىء جار على ماتعودا[6]

وكانت عتبة بنت عفيف – وهي أم حاتم – تملك المال وتتلفه في الجود و الكرم ولا تمنع أحدا حتى أن أخواتها لاموها علي ذلك و حجروا عليها مدة من الزمن وفي ذلك تقول [7] .

لعمري، لقدما عضني الجوع عضة　　　فآليت ألا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائمي اليوم أعفني　　　فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأُختكم　　　سوى عذ لكم أو عذل من كان مانعا ؟
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة　　　فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا ؟

---

(1) انظر ديوان الصعاليك : 173 ، والأغاني جـ21 : 153 .
(2) المرأة في الشعر الجاهلي . علي الهاشمي : 59 .
(3) الديوان : 365 .
(4) السواني : إبل الماء .
(5) المرأة في الشعر الجاهلي ، على الهاشمي : 60 .
(6) ديوان حاتم :74
(7) المرأة العربية ،عبد الله عفيفي ج1 :79,80 ،ديوان حاتم (التمهيد):28 .

وكانت خديجة رضي الله عنها من ذوات الثروة والتجارة ، وكان الرسول ﷺ يتاجر لها في مالها ،وكان لثريات مكة نصيب في القوافل التجارية التي اعتادت أن تعبر الصحراء شمالاً و جنوبـــا [1] .

ولعل من أهم حقوق المرأة علي الرجل هو أن يحميها في وقت الـشدة والكـرب ، ويدافع عنها بكل ما يملك من قوة ، بل إن حماية المرأة كان مبعث فخر عند الشعراء العرب [2] . ولا عجب في ذلك ، فالمجتمع العربي مجتمع قبلي محافظ ، لذلك كانت الحماية متوفرة لجميع القبيلة وليس ما يخص الرجل وحده ، بل لقد كان العربي يفخر بصون الأعـراض ، وحماية الحرمات ،وإكرامه لجاراته ورعايتهن ، والمحافظة علـيهن، فحمايـة الجـارات ، وصون أعراضهن ، وغض البصر عنهن كان مبعث فخر للعرب ، وفي ديوان حاتم الكثير من الشعر الذي يفخر فيه بهذه الصفة [3] 0 كذلك نجد عنترة يفتخر بعفته وغضه لبصره عن جاراتــه[4] .

وبعد فإن الذي يستقريء شعر العرب ، ويقرأ تاريخهم ، يعرف بما لا يدعو للـشك أن المرأة تبوأت مكانة مرموقة عزت فيها وشرفت ،وصانها الرجال بـأرواحهم وأنفـسهم وتنافسوا في الذود عنها وحمايتها ، بل لم يتردد العربي في خوض الحرب مـن أجلهـا إذا تعرضت لإهانة [5] .

3- واجبــاتهــــا :

لم يكن العرب ليرهقوا نساءهم بالأعمال والواجبات ،كما فعل غيرهم من الـشعوب مثل اليونان والفرس ،والعربية كانت تختلف حالتها باختلاف الأسرة التي تعيش فيها ،فنساء الأسرة الراقية قل أن يقمن بالأعمال المنزلية وغيرها ،إذ تكفيهن الإماء والخادمات مؤونـة الطبخ ،وضرب الخيام ،وجلب الماء ، والغسل وغير ذلك ، أمـا فـي الطبقـات الوسـطي والفقيرة فالنساء يقمن بأعمالهن ، بأيديهن ، ومع هذا ففي جميع الأحوال كانت إدارة البيـت

---

[1] المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي :61 .

[2] انظر معلقة عمر بن كلثوم شرح القصائد المشهورات ،ابن النحاس ج2 :122,124 . الأبيات من 80 ،89 .

[3] انظر ديوان حاتم الطائي : 94,101,106. .

[4] انظر ديوان عنترة :153 ، دار الكتب العلمية بيروت 1985 م .

[5] حرب الفجار الأولي ، حرب البسوس ،حرب ذى قار .

منوطة بالمرأة ، والسيادة فيه للرجل ، فعلى المرأة تنظيم بيتها ، ورعاية أطفالها ، وتهيئة الغذاء واللوازم لهم ،وعليها أن تحافظ على كرامة البيت وسمعة صاحبه [1].

والعربي نجده كثيراً يحترم كرم زوجته وحياءها ، وحسن أخلاقها ،وحفظها لبيتها وبيت زوجها ، وحسن علاقتها بجاراتها [2]. وربما نجده غيورا عليها ، مراقبا لها [3]وقد نجده قاسيا ، شديدا عليها ، يعنفها ويغلظ القول لها إذا ما أكثرت في لومه أو تدخلت فيما لا يعنيها ، فهذا عنترة يقسو على امرأة له من بجيله لا تزال تذكر خيله وتلومه في جواد كان يؤثره علي خيله ، ويسقيه ألبان إبله [4]. إن من أهم واجبات المرأة رعاية البيت ، وتربية الصغار ، وهذا الأمر يثقل كاهلها ، الأمر الذي يجعل الرجل دائما يخف لمساعدتها ،والتخفيف عنها ، كذلك نجد أن المرأة هي التي تقوم علي خدمة الضيف ورعايته والعناية بأمره ، وقد صور أوس بن حجر عناية ربة البيت بالضيوف واهتمامها الفائق بشؤونهم ممتدحا لها ذلك [5]. وربما تتعرض المرأة للهجاء إذا قصرت في حق الضيف ، ولم يجد عندها الراحة المنشودة لأنها هي المسؤولة عندهم [6].

لم تكن أيام العرب كلها سلما ، بل عاش العرب في الجاهلية حروبا متتابعة ، يطول بعضها ، ويقصر بعضها ، فكثر فيهم القتل والجرح ، والأسر والغنم ، فكان العربي إما منتصراً مزهواً بنصره ، وإما موتوراً حانقاً يلتهب صدره ، ويشتد غيظه ، فيحرم نفسه من ملذات الحياة كالنساء ، والطيب ، واللباس والشرب والهناء حتى يأخذ بثأره ، الثأر الذي أقض مضاجعهم ونغص عيشهم ، وفي شعر المهلهل [7] وغيره دليل واضح على ذلك .

لم تكن المرأة بمنأى عن هذه الحروب ،فربما كانت هي نفسها سبباً في هذه الحرب ، فمن أجلها يحارب العربي ،وعنها يدافع ، فهي جزء من النسيج الاجتماعي ، يفرحها ما يفرح أهلها ، ويسوؤها ما يسوؤهم ، لذلك وجدنا أن المرأة لعبت دوراً بارزاً في دفع الرجال للحرب ،وحضهم عليها بكل طريقة ممكنة ، وشعرها في تأجيج المشاعر ، وإثارة الحفيظة

---

(1) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ،علي الهاشمي 63 .

(2) انظر شعر الشنفرى في الأغاني209:21 ، المفضليات : 108-112،ديوان الصعاليك :15- 20 .

(3) ديوان الأعشى : 129 – 130 .

(4) ديوان عنترة: 18 .

(5) انظر شعره وقصته في كتاب المرأة في الشعر الجاهلي ،علي الهاشمي : 65 .

(6) السابق : 66 .

(7) انظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ، على الجندي ، دار الفكرالعربي ص : 196 .

للأخذ بالثأر كثرة ، فللخنساء شعر في تحريض قومها للأخــذ بالثــأر لأخيهــا [1] ،كــذلك حرّضت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب قومها على الثأر لأخيها عبد الله حين هم أخوهــا عمرو بقبول الدية ، أو حين توهمت أنه سيقبلها ، فتحدثت لسان القتيل مهيجة حميتهم ناهية عن قبول الدية ، منددة بهم إن لم يأخــذوا بثــأرهم ، مشبهــة إياهم بالنعــام فــي جبنــه وفراره [2]. وهذه أمية امرأة عروة بن مرّ ة تدخل على أبي خراش وهو يلاعب ابنه ، فتقول له ، يا أبا خراش تناسيت عروة وتركت الطلب بثأره ، ولهوت مع ابنك ، أما والله لو كنت المقتول ما غفل عنك ،ولطلب قاتلك حتى يقتله ، فلما سمع ذلك بكى أبو خراش [3].

وكانت النساء يخرجن خلف الجيوش ليحمسن الرجال ، ويحفزنهم على الاستبــسال في القتال ، ومهاجمة أعدائهم بقوة وجرأة وقد أشار عمرو بن كلثوم إلى ذلك في معلقتة [4] وأشار إلى ذلك حسان بن ثابت بقولــه [5].

تظلُ جيــادُنــا مُتَمطِّـــراتٍ تُلَطِّمهُن بالخُمُـــرِ النســـاء [6]

وهن كباقي أفراد القبيلة كن يسعدن بالنصر ، ويبتهجن لــه ، فتنطلــق حنــاجرهن بالغناء مرددات أغاني النصر والفخار ، فقد تغنت شمعة بنت الأخضر بن هبيرة بانتــصار قومها يوم الشقيقة، [7] وأشادت الخنساء بالثأر لأخيها معاوية ، فمدحت قيس بن عامر بعــد قتله هشام بن حرملة الذي قتل معاوية ، وجعلت نفسها وأهلها فداء له . [8] وافتخرت عاتكة بنت عبد المطلب بن هشام بيوم عكاظ في حرب الفجار [9].

إنهن يجدن الراحة ، والبهجة في الأخذ بالثأر ، لا لأن العدائية متأصلة فيهن ، بــل لأن طبيعة الحياة الجاهلية كانت قاسية ، مؤلمة ، اكتوت المرأة بنــار حربهــا المتأججــة ، ففقدت الزوج أو الأخ ، أو الوالد ، و القريب ، كل ذلك ورث المرأة جراحاً لا تندمل ،وحزناً وألماً لا ينقطع ، إلا بالثأر من الأعداء ،الثأر الذي تجد فيه النساء ، برءاً للجرح ، وتطبيبــاً

---

(1) ديوان الخنساء :112 .

(2) انظر المرأة في الشعر الجاهلي . أحمد الحوفي : 639 .

(3) انظر الأغــــاني ،ج 21 :247 .

(4) شرح القصائد المشهورات ، ابن لنحاس جــ2 : 122 – 124 .

(5) الديوان : 19 ،دار الكتب العلمية – بيروت 1986 .

(6) متمطرات : متسرعات ،تُلَطِّمهُن : تضرب على وجوههن بالخُمُر .

(7) انظر أيام العرب في الجاهلية ،محمد أحمد جاد المولي وآخرين – مطبعة الحلبي 1942 ، ص 386 .

(8) ديوان الخنساء : 231 .

(9) انظر شعرها في ديوان الحماسة ، لأبي تمام : 314 .

للخواطر ، وذهاباً للهموم والأحزان . تقـــول الخنســـاء فـــي مخاطبـــة عـــامـــر الجشمـــي :

كما من هاشم أقررت عيني   وكانت لا تنام ولا تنيـــم [1]

لهذا رافقت النساء الجيش لتحميس المقاتلين ، والشعر العربي يرصد لنا هذه الظاهرة التي أصبحت معهودة في المجتمع الجاهلي ، يقول المهلهل وهو فـــي أول الحـــرب يتوقـــع ظهور المخدرات لدعوة المقاتلين للاستبسال :

قربا مربط المشهـــر منـــي   ســـوف تبـــدو لنا ذوات الحجال [2]

إن تعرضهن للخطر يبعث في نفوس المحاربين الشجاعة والاستبسال ،ولهذا ضرب حنظلة بن ثعلبة في ذي قار قبة وسط المعركة ، فجمع حولها النساء ، فاشتد قتـــال العـــرب فوقفن أمام الجيش الفارسي حاسرات عنهن الحجب ، صارخات بالفرسان ، باذلات لجمالهن الرخص ، فقد ألهاهن الرعب والذعر عن الخجل والتستر [3].

وكانت النساء العربيات يقاتلن بشجاعة وبسالة إذا اقتضى الأمر ، والتاريخ شـــاهد على ذلك ، حيث خلد لنا أسماء بعض النساء اللائي وصفن بالشجاعة والبسالة في المعـــارك مثل : خولة بنت الأزور ، وأم عمارة ، وحمنة بنت جحش وغيرهن كثير . كذلك كانت تقوم بمداواة الجرحى وإطعام الجند وسقايتهم ،والقيام بمهام المراقبة والإسناد .

وإذا ما انتهت الحرب فقد صور الشعر أن النساء كن يقمن المآتم على القتلى يبكين ويشققن الجيوب ويخمشن الوجوه، يقول الأفوه الأودي :

وجاء نساء الحي من غير إمرة   رفيقاً كما زفت إلى العطن البقر

إلى قولـــه :

فنائحة تبكي وللنـــوح دَرْسَـــةٌ   وأمـــرٌ لها يبدو وأمـــر لها يسر

ومنهن من قد شقق الخمش وجهها   مسلبـــة قد مس أحشاءها العبر [4]

وكان بعض النساء يحلقن شعورهن ، ويعلقن النعال على صـــدورهن كمـــا كانـــت الخنساء تفعل حيث تقول :

ولكني رأيت الصبر خيراً   من النعلين والرأس الحليق [5]

---

(1) الديوان : 231 .

(2) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ، عبد الله عفيفي – جـ1 ص 144 .

(3) المرأة في الشعر الجاهلي ، على الهاشمي : 72 – 73 .

(4) السابق : 77 .

(5) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ، عبد الله عفيفي : 189 .

وكان للنساء أعمال كثيرة عملتها قضاء للواجب، ودفعاً للملل، وتفادياً من سوء الأحدوثة ،وهذه الأعمال تساوت فيها النساء جميعاً، المدللّة، والسرية والسنية،ومن هذه الأعمال :

(1) غزل أصواف الغنم ، و أوبار الإبل ،وذلك مسلاتهن وأداة لهوهن ، ومن أمثالهن في ذلك " نعم لهو الحرَّة المغزل " .
(2) الضرب على المعازف من دفوف ، وطبول ، وصنوج ومزاهر ،ومزامير وطنابير وأشباههما .
(3) وكانت المرأة تقوم بأمر البيت ،وما إليه من المطاعم ورعاية الخيل وهنء الإبل [1] .

وهناك أعمال يتناولها ذوات الخصاصة من النساء ، دفعاً للحاجة ، واستدفاعاً لذل السؤال ، ومن ذلك جمع الكمأة من الأودية وبيعها ، ودبغ الجلود ، وتنميق الحصير وانتجاع الأسواق ، وارتياد مختلف الأحياء ، لابتياع التمر والعسل والسمن ، أو بيعها ، أو استبدالها بأمثالها ، واعتراض الركبان في مغداهم ورواحهم بالقدور والأدم يبعنها عليهم ، والطواف على الفتيان والفتيات بالعطر يطيبنهم به ، والنداء في الأحياء بين النساء بالخرز لتحلية الثياب ، وبالعقود والدمالج والقِرَطَةَ وودعات الأطفال ،وهي عقودهم من الودع .

كذلك عمل بعضهن في النياحة ، والكهانة ، والرضاعة وغير ذلك . على أن هذه الأعمال وإن آذن بعضها باتضاع في منزلته ، وهبوط في مادته ، فليس منها ما يؤذن بضعة في الخُلق ، ولا ثلمة في العقل ، ولا ذلة في الحياة ، وإن كان شريفات العرب وربات الحسب منهن يتعالين عن الارتزاق بالصناعة ، فلم يتجاوزن بذلك حدِّ الإدلال بالعز ، والمباهاة بالغنى ، فأما شرف النفس ونقاء العرض ، وصدق القول ، وفرط الإباء فهن فيها سواء [2] .

4- مُعاناتها :

إن من أشد ما عانت منه المرأة العربية في العصر الجاهلي السبي والوأد ، أما السبي فلأن العرب كانوا يحرصون عليه في حروبهم الكثيرة ، لأن السبي يوقع في العدو ما لا توقعه السيوف الباترة ، والنار الحارقة ، فالسبي فيه ما فيه من الإذلال والقهر ، و الإهانة الملازمة لصاحبها . كذلك كان العربي يحرص على الأسر للرجل والمرأة كي يبادل بأسراه

---

(1) انظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي مطر جـ1 من ص 84 – 86 .
(2) انظر السابق : 89 – 96 .

حيناً ، والانتفاع بالسبايا والأسرى حيناً آخر ، فالسبية تستولد دون مهر وصداق وغيــره ، وقد يستفيدون من خلال مفاداة الأسرى بكثير من المال والإبل .

لقد كان العربي شغوفاً بالسبي ، يفخر به في كل مكان ، ويعير به عدوّه فــي كــل مناسبة ، فقد افتخر عامر بن الطفيل بسبي امرأة من عبس ، وقد استردها قومها بعد يــوم ، فعيره عروة بسبي ليلى بنت شعواء ، وحسناء [1] . وكذلك افتخر عنترة بن شداد بسبيهم من بني ضبة وتميم [2]، وافتخر الحارث بن حلزة بسبيهم من تميم [3] .

ومن الأمثلة على شيوع السبي في العصر الجاهلي ما يلي ، فقد أغار قيس بن زهير العبسي على بني مالك بن حنظلة ، فأخذ نسوة فيهن أم أسماء بن خارجة ،وهاج أبو جنــدب بن مرّة خلعاء بكر وخزاعة على بني لحيان ، فقتل منهم وسبى من نسائهم وذراريهم ســبايا وأغار الهذيل بن هبيرة التغلبي على بني يربوع ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وأصاب نعماً كثيراً وسبى سبياً كثيراً ، وفي يوم النسار سبيت نساء كثيرات من شريفات بني عامر ، وفي يوم الزوير بين بكر بن وائل وتميم اجترفت بكر أموال تميم ونساءهم [4] .

وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد من العرب من يكرم المرأة السبية ، فيعــرف لهــا قدرها في أهلها ، ويحفظ لها مكانتها ، فيعتقها ويعقد عليهــا ، ويتزوجهــا ، ويــستولدها ، ويتخذها شريكة لحياته ، وربما أحبها وهام بها ، كما في قصة عروة والمرأة الكنانية التــي تزوجها وبقيت عنده بضعة عشر سنه ، وولدت له أولاداً خمسه ، ثم أنها فضلت أهلها على العيش معه في قصة معروفة[5]، وافتخر حاتم بإكرام السبايا ، ومساواتهن بنسائهم ، وبأنهن أنجبن أبطالاً أشاوس في القتــال [6] .

ومهما يكن فقد ظلت المرأة العربية تكره السبي ،لما فيه من ذل وهوان ، لها ولجميع أفراد قبيلتها ، ولما فيه من غربة وبعد عن الوطن والأهل والأحبة ، لذلك كانــت تحــاول تجنبه بكل وسيلة ، فإن وقعت في الأسر ، فإنها تظل تتحــين الوقــت الـــذي تــستطيــع الخلاص منــه [7] . لأنهــا تأنف أن تظــل أمـــة وسبيــة فــي عيــون النـــاس .

---

(1) الديـــوان : 47 .

(2) الديـــوان : 36 – 37 .

(3) شرح القصائد المشهورات ، جــ2 : 69 .

(4) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي :465 وما بعدها .

(5) انظر الأغــاني جــ3 : 72 – 74 ، ديوان عروة : 63 – 64 .

(6) انظر شعره في العقد الفريد جــ7 : 123 – 124 * لم أجد الأبيات في الديوان .

(7) انظر الأغاني جــ3 : 72 – 74 .

5- الـــــــوأد :

إن سبي النساء يورث العربي ذلاً وهواناً لا يفارقانه أبد الدهر لهذا فكر العربي في التخلص من هذا الأمر قبل وقوعه ،ولا سبيل إلي ذلك عند بعض العرب – إن لم يكن لديهم قوة ومنعة –إلا بوأد البنت صغيرة .

إن حرمان المرأة من الحياة يعتبر قمة الظلم والإجحاف في حقها ،فبعض العـــرب يكـــره الأنثى ،ويسوؤه ولادتها ،وكان إذا زوج ابنته إلي رجل من قومه قال لها : أيسرت و أذكرت ولا آنثت ... وإذا تزوجت في غربة قال لها : " لا أيسرت ولا أذكرت ،فإنك تدنين البعـــداء وتلدين الأعداء" . وقد صور القرآن حالهم هذا بقوله : " ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثي ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من ســـوء ما بشر به أيمسكه علي هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون " [1] وقال تعـــالي : "وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا (أي البنات) ظل وجهه مسودا وهو كظـــيم أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ " [2] .

لقد كان من هوان النفس الإنسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات ، خوف العار ، أو خوف الفقر [3] . فالفقر والخوف من العار سببان من أ سباب ظهور هذه الحالـــة الشاذة في المجتمع الجاهلي ،والتي حاربها الإسلام بكل قوة ، قـــال تعـــالي : " ولا تقتلـــوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم " [4] . وقال تعالي : " وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت " [5] . لعل أول من سن هذه السنة للعرب هو قيس بن عاصم المنقـــرى ، لأن ابنتـــه وقعت في السبي ورفضت العودة له حين خيرها النعمان [6] وفي كنده سنها الحـــارث بـــن عمرو الكندي [7] وبعد ذلك أصبحت ظاهرة منتشرة .

إن الوأد أشنع ما اقترفته يد ظالمة آثمة ، في نفس بريئة طاهرة ،وذلـــك أن يعمـــد الرجل إلي وليدته ، وقد بدأت تستقبل الوجود ، وتستنشئ نسيم الحياة ، فيقذفها في حفرة من الأرض، ويهيل علي جسمها التراب ، ثم يدعها في غمرة المـــوت بـــين طبـــاق الأرض .

والحـــق أن الـــوأد لم يكـــن معـــروفاً إلا فـــي فرائـــق من ربيعـــــة ، وكنـــدة ،

---

(1) النحل : 58 – 59 .

(2) الـــــزخـــرف : 17 .

(3) انظر ظلال القرآن ، سيد قطب ، جــ6 ، ص3839 .

(4) الإســــــــراء : 31 .

(5) التـــــكويـــــر : 8 – 9 .

(6) أنظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي جــ1 : 44 .

(7) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي : 209 .

وتميم ، وأفذاذ مغمورين لا يعدون قله من مختلف القبائل ، وهم بين رجلين : رجل أملق من عقل ومال ، فهو يخشي أن يسيء الفقر إلي أدب ابنته ،ويهتك من سترها ، ويبذل من عرضها وذلك جبان لا عزم له ، ولا ثقة ولا إيمان . والعرب براء منه ،وآخر من سراة القوم ذهبت بعقله الغيرة ، وهوى بنفسه الإشفاق من تبدل الحوادث ، وتداول المثلات وما عسى أن يصيبها من ذل أو سباء ، وذلك وأمثاله شر مكاناً وأقل عددا [1] .

إن هذه العادة كانت مستنكرة و منبوذة عند غالبية العرب ، بل لقد نهض من سادات العرب من حال دون الوأد ومن هؤلاء صعصعة بن ناجية التميمي ، الذي افتدى أربعمائة وليدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل القرشي [2].

وقد افتخر الفرزدق الشاعر الإسلامي الأموي بإحياء جده صعصعة للوئيدات في العصر الجاهلي في الكثير من قصائده [3]. ومهما يكن من أمر الوأد ، فقد ظل قليلا ، شاذا شذوذ فاعليه ، ولم يكن منتشرا إلا في بعض القبائل مثل ربيعة وتميم وكندة ، وإلا من أين أتت هذه الجحافل البشرية التي اكتسحت الشرق والغرب نصرة لدين الله الجديد ، فملأت الأرض إيمانا وعلما وحضارة .

إننا إذا ما تجاوزنا هذه السوءة التي ما برحت تصم جبين فاعليها من الوائدين ، وجدنا العرب ، يكرمون بناتهم ، ويحرصون علي الحياة الكريمة العزيزة لهن ، بل يذوبون فيهن حبا وعطفا وحنانا ، يروي ابن عبد ربه في العقد الفريد أن صعصعة بن معاوية خطب إلي عامر بن الظرب حكيم العرب ابنته عَمْرَة – وهي أم عامر بن صعصعة – فقال : يا صعصعة إنك أتيتني تشتري مني كبدي ، فارحم ولدي قبلتك أو رددتك ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك ، أفر من السر إلي العلانية .... يا معشر عدوان بين أظهركم كريمتكم ، من غير رغبة ولا رهبة ، وأقسم لولا الحظوظ على الجدود ، ما ترك الأول للأخر ما يعيش به [4].

هذا هو حال المرأة في المجتمع الجاهلي، بكل ما فيه ، مالها ، وما عليها ،مالها من حقوق ، وما عليها من واجبات ،وما عانت من ظلم وقهر وسلب للحريات ،

---

[1] أنظر المرأة العربية ، ج1 :44 .

[2] السابق ،ج1 :45 .

[3] أنظر علي سبيل المثال ، ديوان الفرزدق ص477 ،مطبعة .الصاوي بمصر 1354 هـ .

[4] العقد الفريد ، ج 7 ،ص 77 .

حتى جاء الإســــلام العظيم لينفض عنهـــا غبــار الضيم والظلم، ويرفعهـــا إلي المكانة السامية التي أرادها الخالق لهـــا .

ثــالثــاً – مكانة المرأة في الإسلام

إن كانت المرأة في العصر الجاهلي قد عزت وشرفت وسمت بها المكانة ، فعــرف لها قدرها ، وحفظ لها حقها ، فملكت القلوب ، وألهبت المشاعر ، إلا أنها لم تسلم من بعض مثالب هذا العصر و سوءاته التي ما لبث أن جاء الإسلام ، فأزال عنها ظلم الظالمين لا فرق بينها وبين الرجل . لقد نزلت آيات كثيرة في تنظيم حياة المرأة المختلفة مــن مهــدها إلــي لحدها ، أنصفتها وبينت مالها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، نعم كان للمرأة حقــوق وحريات في الجاهلية إلا أن هذه الحريات والحقوق لم تكن قوانين أو شرائع ، وإنما كانــت أعرافا يجترئ عليها الرجل في حالات كثيرة ، فجاء الإسلام ليقر للمرأة ما هو صالح مــن تلك الحريات والحقوق وينفي عنها ما هو غير ذلك [1].

(1) الحــق فـــي الحيــاة :

أخــذ الإســلام على العــرب قتلهم أبنــاءهم ، وسفــه أحــلامهم ، وقبــح فعلهم ، قــال تعالى : " وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمــون " [2]. وقــال تعالى : "وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم " [3].

هذا حال بعض العرب التي صورها القرآن ، وأظهر فيها كرههم للبنات واستياءهم بخبر ولادتهن ، لذلك وجدنا القرآن يقضي على هذه العادة السيئة ويستنقذ البنت من بــراثن الوأد ، فيقول جــل جــلالــه: " ولا تقتلوا أولادكم خشيـــــة إمــــلاق نحــن نرزقهــم وإياكــم " [4]. وقال تعالى : "وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت "[5]. إن القرآن يسفه أحلام هؤلاء الرجال ويحط من قدرهم ، حيث أنه يوجه الخطاب في سورة التكــوير للمــوؤودة ، وليس للوائد .

ومع هذا التحريم الصريح لوأد البنات نجد السنة المطهرة جاءت محببة ومرغبة في البنات وتربيتهن ، قال ﷺ : " أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها وأحسن تعليمها ، وأدبهــا فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران " [6].

---

[1] انظر شاعرات عصر الإسلام الأول ،د. نبيل أبو علي :36 .

[2] النحل : 58 – 95 .

[3] الزخرف :17 .

[4] الإسراء : 31 .

[5] التكوير :8 – 9 .

[6] صحيح البخاري ، ج 6 : 120 ، باب النكاح _دار الفكر .

وهذا حديث لعائشة رضي الله عنها ، تقول :" دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئا غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثـم قامـت فخـرجت فدخـل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقـال : "**من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترا من النار** " [1].

وإنما قال ﷺ (ابتلي) فسمى ولادة البنات ابتلاء لأن العرب تكره البنـات ، فجـاء الشرع يزجرهم عن ذلك ، ورغب في ابقائهن ، وترك وأدهن بما ذكر من الثواب الموعود به من أحسن إليهن وجاهد نفسه في الصبر عليهن .

وكان ﷺ محبا لبناته رفيقاً بهن ، وليس أدل على ذلك من موقفه من خطبـة علـي لبنت أبي جهل ، وذلك أن عليا بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل ، فسمعت بذلك فاطمة ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل ، فقام رسول الله ﷺ فتشهد وقال : " أما بعد أنكحت أبا العاص بـن الربيـع فحـدثني وصدقني ، وإن فاطمة بضعة مني ، وإني أكره أن يسوءها ، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ ،وبنت عدو الله، عند رجل واحد ." فترك علي خطبتها [2].

فلا عجب بعد هذا أن نجد المسلمين يحبون بناتهم ، وترضي بهن نفوسهم وذلك بعد سماعهم للقرآن ، يقول الله تبارك وتعالى :" يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور " [3].

لقد كـان لمعـن بن أوس ثمـانـي بنـات ، ويقـول : ما أحـب أن يكـون لـي بهـن رجـال وفيهـن قـال :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم ... وفيهن لا نكذب نساء صوالح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتي ... عوائد لا يمللنه ونـوائـح [4]

وروي أن معاوية قال لعمرو بن العاص رضي الله عنهما : ما ندب المـوتى ، ولا تفقد المرضى ولا أعان على الحزن مثلهن ، وكان الصحابة لا يرون على صاحب ثـلاث بنات صدقة ، ولا جهاد ، لحاجتهن إليه ، وشغله بهن والعناية بتربيتهن [5].

يقول أبو خالد القناني معتذراً عن الخروج للقتال بسبب بناته :

لقد زادَ الحياة إليَّ حبـاً ... بناتي إنَّهُنَّ من الضِّعـافِ

أُحاذِرُ أَنْ يَرَيْنَ الفَقْرَ بَعْدي ... وأَنْ يَشْرَبْنَ رَنَقاً بَعْـدَ صافي

---

[1] اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان _البخاري ومسلم – طـ 3 1997م حديث رقم 1688 .

[2] السابق حديث رقم 1592 .

[3] الشورى :49 .

[4] انظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ، ج 3 : 18 _ 19 .

[5] انظر المرأة العربية . عبد الله عفيفي . ج3 :19 .

وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسي الجواري فَتَنْبُوُ العَيْنُ عَنْ كَرِمٍ عِجَـــــاف
أبانا مَنْ لنـــا إن غِبْتَ عَنّـــا وجَــدّ الحيُّ بَعْــدُ في اختِلافِ [1]

2- المنزلة الرفيعة :

ولم يكتف الدين الجديد بالحفاظ علي حياتها ، بل رفع مكانتها ،حيث لم تعد المـــرأة متاعاً تباع وتشترى – عند البعض – بل كيان إنساني له حقوقه وعليه واجباتـــه ، قـــــال تعالى : " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " [2]. وقال ﷺ : " إنما النساء شقائق الرجـــال " [3] فالدين يجعل الرابطة بين الرجل والمرأة المسلمة رابطة الأخوة فـــي الـــدين ، قـــال تعالـــى : " إنمـــا المؤمنـــون أخـــــوة " [4]. وقـــال تعـــالـــى : " بعضكم من بعض " [5]. لقد عرف الرجل المسلم في ضوء ما سنته الشريعة أن المرأة قسيمة حياتـــه لها ماله وعليها ما عليه ، قال تعالى : " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف " [6].

لقد بلغت المرأة مكانة عالية في الإسلام حيث كانت – كما كانت فـــي الجاهليـــة – تجير الخائف وتفك العاني ، وذلك كله إلى تجلّة واحترام بلغت منها غايتهما ، فقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين من أحمائها كتب عليهما القتل ، وافتكت زينب بنت رســول الله ﷺ أسار زوجها في الجاهلية أبي العاص بن الربيع – وكان من أسرى بدر – فـــأطلق مـــن غير فداء ورُدَّ عليه ماله [7].

إن مكانة المرأة لم تكن لتسمو وتعلو بغير المحافظة على ســمعتها ، وشرفهــــا ، الأمر الذي حافظ عليه الإسلام ،وتوعد كل من يقترب من حصنها المنيع بالوعيد الـــشديد ، قال تعالى متوعداً من يقذف النساء في أعراضهن وشرفهن : " والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتـــوا بأربعــــة شهداء فاجلدوهم ثمانيـــن جلدة، ولا تقبلوا لهم شهــــادة أبداً وأولئك هم الفاسقـــــون " [8].

---

(1) المرأة العربية ج3 ك 19 .
(2) النســـــاء : 1
(3) سنن أبي داوود . محمد محي الدين عبد الحميد . دار الفكر : جـ1 :61 .
(4) الحجرات : 10
(5) آل عمـــران : 190 .
(6) البقـــرة : 228 .
(7) المرأة العربية جـ3 : 43 – 44 .
(8) النـــور : 4 .

وقال تعالى : " إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يـوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين " [1].

وحرص الدين على تعليمها وتأديبها ، لأنها لن تبلغ المكانة العالية الكريمة إلا بالعلم والأدب ، فتعليمها وتأديبها يضمن لها نجاحاً وفلاحاً في مستقبلها ، زوجة كانـت ، أو أمـا أومربية لأجيال من المسلمين ، قال ﷺ : " أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها وأحسن تعليمها وأدبها وأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران " [2].

ولم يكتف الدين بتعليمها والحفاظ على شرفها ، بل جعلها ركناً أساسياً من أركـان المجتمع ، فهي نصف المجتمع ، برفقتها تحلو الحياة ، وتتحقق السعادة والطمأنينة ، فهـي شريكة الرجل في حياته ،حاضره ومستقبله ، قال تعالى : " ومن آياته أن خلـق لكـم مـن أنفسكم أزواجاً لتسكنوا أليها ، وجعل بينكم مودة ورحمـة " [3]. بل إن الزوجة الصالحة هي خير متاع الدنيا ، كما تصفها السنة الشريفة . يقول ﷺ : " الدنيا متاع وخير متـاع الـدنيا الزوجـة الصالحـة " [4].

وإذا كنا قد عرضنا لحال المرأة بنتاً وزوجة ، فلابد من القول بأن الدين الجديد لـم يغفل المرأة الأم ، بل لعله كان أشد حرصاً على مكانة الأم في المجتمع المسلم ، التي تميزت بخصوصية فيها من الجلال ، والوقار وعلو المكانة ما فيها . وهذه بعض الآيات التي جاءت لترسم ملامح مكانة المرأة الأم في المجتمع المسلم وتوضح العلاقة بين الأبناء والأمهـات، قال تعالى : " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا * إما يبلغن عنـدك الكبـر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما " [5].

إن الدين حرص على ألا يُمَسَّ شعور الأم حتى ولو بالتأفف ، أي إظهار الـضجر والضيق من مطالبها ، وهذا أسمى مظاهر الحفاظ على المشاعر والأحاسيس ، قال تعالى : " ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً " [6] إن القـرآن الكـريم يحرص على توجيه الأمر للإنسان بالصحبة الطيبة للأم والأب ، وإن كانت السنة المطهـرة وضحت الأمر بجلاء ، وأن المرأة أحق من الأب بالصحبة الحسنة ، والمعاملـة الطيبـة ،

---

(1) النـــور : الآيات : 23 – 24 – 25 .

(2) صحيح البخـاري ، جـ6 :120 ، باب النكـــاح .

(3) الـــــروم : 21 .

(4) صحيح مسـلم . جـ4 : 178 ، مكتبة الجمهورية العربية . القاهـــرة .

(5) الإســـــراء : 27 .

(6) الأحـــقاف : 15 .

وهذا التفضيل لا يحرم الأب ، حيث أن الأم هي التي حملت وربّت ، وتعبت وهي الجانب الضعيف الذي يحتاج إلى العطف والرعايـة .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : " أمك " قال ثم من ؟ قال : " أمك " قال ثم من ؟ قال : " أمك " ، قال ثم من ؟ قال : ثم أبوك . [1] فالأم مقدمة ثلاث مرات على الأب كما يوضح الحديث ، وسبب ذلك كثرة تعبها عليه وشفقتها ، وخدمتها ، ومكابدة المشاق في حمله ، ثم وضعه ، ثم إرضاعه ، ثم تربيته ،وخدمته ، وتمريضه ، وغير ذلك .

وفي حديث آخر للمصطفى ﷺ ، نرى أنه يجعل بر الوالدين أفضل من الجهاد ، حيث يقول لرجل جاء يستأذنه في الجهاد " أحيٌ والداك " ؟ قال نعم . قال : " ففيهما فجاهد " [2].

3- الحق في الميراث :

لقد كان من سنن العرب أن النساء لا يؤول إليهن من ميراث الرجال شيئ ، وكانوا يقولون في ذلك : لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة . فإذا مات الرجل ورثه ابنه فإن لم يكن ، فأقرب من وجد من أوليائه ، أباً كان،أو أخاً ، أو عماً . على حين يضم بناته ونساءه إلى بنات الوارث ونسائه ، فيكون له ما لهن، وعليه ما عليهن، حتى جاء الإسلام فصدع ذلك الضرب من الظلم ، واختص النساء بنصيب مما ترك الرجال [3].

قال تعالى : " للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً " [4]. لقد فرض الإسلام للمرأة أن تأخذ نصف ما يأخذ الرجل ،وذلك لأن الرجل هو الذي ينفق ويتحمل أعباء الحياة ، وأما المرأة فلا يطلب منها شيء من ذلك، قال تعالى : " يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين " [5]. بذلك يكون الدين قد أعاد للمرأة حقاً سلبته منها الجاهلية ، فأغناها وطيب نفسها ، وأراحها من مشقة السعي في طلب الرزق ، والإنفاق على الأبناء والبيت ، وجعل ذلك من مهام الرجل ، فتفرغت لشؤون منزلها من حمل وولادة ، وتربية للصغار .

---

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان . جـ2 حديث رقم : (1652) .

(2) السابق جـ2 (1653) .

(3) أنظر المرأة العربية جـ3 : 33 .

(4) النساء : 7 .

(5) النساء : 11 .

4- حقــوق أخــرى :

(أ) الحــق فــي اختيــار الــزوج :

أعطى الإسلام للمرأة الحق في اختيار الزوج ، فإن شاءت وافقت وإن شاءت رفضت ، قــال ﷺ : " **لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن ". قالوا يا رسول الله وكيف إذنها ؟ قال : " أن تسكت "**[1] . **وعن عائشة رضي الله عنها قالــت : " قلــت يــا رســول الله : تستأمر النســاء في أبضاعهن ؟ قال : نعم ، فقلت : فإن البكــر تــستأمر فتستحي ، قال : " سُكاتُها إذنها "** [2].

إن الأحاديث السابقة تدل على أنه لا يجوز مطلقاً إكراه البنت على الزواج بمــن لا تحب ولا ترغب فيه . وذلك لأن الزواج المبني على الموافقة والتراضي بين الزوجين يكون زواجاً دائماً ، ويؤسس لأسرة تسودها الرابطة القوية الوثيقة ،والعلاقة الحميمــة ، والحــب المتبادل ، الذي يثمر مستقبلاً عن ذرية طيبــة .

وللمرأة الحق في أن تفصم عقد الزواج إن خدعت فيه ، أو أكرهت عليــه ، مهمــا أنفق في سبيلها ، وليس لامرئ أن يقودها قسراً إلى من لا تريد، فلقد فصم رسول الله ﷺ زواج خنساء بنت خُذام الأنصارية ، لأن أباها زوَّجها وهي كارهــة " [3].

(ب) الحــق فــي المهـــر :

المهــر أو الصــداق حــق مــن حقـــوق المــرأة ، قــال تعــالى : " وآتــوا النساء صَدُقاتهن نحلة " [4]. ولكن لا يجب المغالاة في المهور ، مما من شأنه أن يدفع الكثير من الشباب المسلم إلى العزوف عن الزواج ، أو البقاء لسن متأخرة دون زواج ، بل يجــب أن نستن بسنة المصطفى ﷺ ، حين قال لأحد أصحابه : " التمس ولو خاتماً مــن حديــد . فذهب الرجل ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ... فقال له – ﷺ اذهب فقد ملَكْتكُها بما معك من القرآن " [5].

إن من سنن فريق من العرب في الجاهلية عضل المرأة لتفتدي نفسها بما ورثت عن زوجها أو أخذ صداقها ، فحرّم الإسلام ذلك إنصافاً للمرأة وإطلاقا لحريتها ، قــال تعالى : " يا أيها الذين امنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا " [6]. كذلك حرّرها من حياة الإكراه مع

---

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، جـ2 حديث رقم (895) .

(2) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، حديث رقم (896) .

(3) أنظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ، جـ3 : 50 – 51 .

(4) النســـاء : 4 .

(5) صحيح مسلم ، جـ4 : 134 كتاب النكاح . مكتبة الجمهورية العربية – القاهرة .

(6) النســـاء : 19 .

الزوج حين قال تعالى : " ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحـشة مبينه " [1]. وبذلك تكون حياة المرأة عند زوجها مكرهة حراماً عليه ، إذا كان الهدف هـو الضغط عليها ، لتتنازل عن بعض حقوقها ، إلا إذا ارتكبت الفاحشة ، فلا حقوق لها عندئذ .

ثم فأن الدين فرض على الرجل أن يرد للمرأة بقية ما سماه من مهرهـا ، إذا مـا طلقها ، وحرّم عليه أن يسترد شيئاً مما اجتلب لها كائناً ما كان ذلك الشيء ،وفي ذلك يقول تعالى : " وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منـه شـيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخـذن مـنكم ميثاقاً غليظا " [2].

(جـ) الطـــلاق :

لقد جعل الله الزواج مبعثاً للحب والود والرحمة والحياة الطيبة الكريمة التي يسودها التفاهم والوئام ، فإذا كان الزواج مبعثاً على غير ذلك جعل الله الطلاق مخرجاً لكي لا يصبح أحد الزوجين غصّة في حلق صاحبه . ومن حق المرأة أن تشترط في العقد أن يكون الطلاق بيدها ، فإن لم تشترط كان من حق الرجل .

ولم يترك الدين الباب مفتوحاً على مصراعيه للرجل كي يطلق وقت يـشاء ، بـل حاول أن يبغض هذا الأمر للمسلمين ، يقول ﷺ : " ما خلق الله شيئاً أبغض مـن الطـلاق" وقـال : " لا تطلقوا النساء إلا من ريبة ، فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات " . وقـال : " ما من حلال أبغض إلى الله من الطـلاق " [3].

وقـال تعالـى : " يـا أيهـا النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ، ولا تخرجوهن من بيوتهـن ولا يخرجـن إلا أن يـأتين بفاحشـة مبينة تلك حـدود الله ومـن يتعـد حـدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلـك أمـراً " [4] إن المشرع جعل الطلاق ثلاثاً وليس مرّة واحدة ، وجعل للمرأة عدّة تعتدها فلعل الإنسان في هذه المدة يراجع نفسه ، ويعود عن هذا الأمر الذي عـزم عليـه ، وهـذا أدوم للصلـة والحيـاة الزوجيـة التي حـافظ وحرص عليها الإسـلام . " فنظام الطلاق فـي الإسلام لا يدانيه نظام في دقته وإبداعه ، فلا هو بالمغلق المحظور ، حتـى يكـون أحـد الزوجين شجاً في خلق صاحبه ، وغلاً في عنقه ، وكبلا في يديه ، وقيداً في قدميه ، ولا هو

---

[1] النســـاء : 19

[2] النســـــاء : 20 .

[3] انظر المرأة العربية ،عبد الله عفيفي ، جـ3 : 62 وما بعدها .

[4] الطـــلاق : (1) .

بالسهل الهين ، فيتخذه من لا عهد له ولا ذمام مرتعاً خصيباً ، يتنقلون فيـــه كمـــا شـــاءت أهواؤهم وشهوات أنفسهم " [1].

إن هذا الدين العظيم لم يقف له الأمر عند هذه الحقوق ،بل زاد المرأة شرفاً عظيمـــاً حين سمح لها أن تجاذب الرجل شؤون العالم وجدّة الحياة ،فتخوض المعارك فـــي ســـاحات الوغى وبين مشتجر القنا ، وتحت ظلال السيوف ، تروي الظمأى ،وتأسو الجرحى ،وتثيـــر الحمية وتهيج الحفيظة ، وربما غشيت حرّ القتال ،واصطلت جمرة الحرب ،وصـــالت بـــين الصفوف، وعرضت نحرها للحتوف وصدرها للسيوف، فكانت لها مواطن صادقات، ومواقع صالحات ومن هؤلاء النسوة : أمية بنت قيس الغفارية وأم سنان الأسـلمية، خـــرجن مـــن الرسول ﷺ يوم خيبر، وحمنة بنت جحش خرجت يوم أُحد، تروي الظمأى، وتأسو الجرحى، وأم أيمن حضرت أحداً، وكُعَيْبة بنت سعد الأسلمية، والربيع بنت معوذ، التي قالت كنا نغزو مع رســـول الله ﷺ ونسقي القـــوم، ونخدمهم [2].

كما كان للمرأة دور بـــــارزٌ في مساندة على رضي الله عنه في حربه مع معاوية مثل : أروى بنت عبد المطلب، وأم الخير بنت حُريش، ودارمية الحجونية، وعكرشة بنـــت الأطرش، وأم سنـــان بنت خيثمـــة، وســـــودة بنت عمـــــارة، وغيــــرهـــن من نســـاء المسلميـــن [3].

وكيف لا تبلي المرأة هذا البلاء ، من أجل هذا الدين الجديد ، الذي نفض عنها غبار الجاهلية بكل ما فيه ، فأنار دربها ، ورفع قدرها ، وأعلى شأنها ، وحفـــظ لهـــا حياتهـــا ، وأكرمها أيما إكرام .

هـــذا عـــرض موجـــز وســـريـــع لحـــال المـــرأة فـــي الجـــاهليـــة والإســــــلام ، تجنبـــت فيـــه الإطالـــــة والإسهـــاب ، واكتفيت مـــن الشـــواهـــد بمـــا يوصـــل الفكـــرة ويوضـــح الصـــورة ويكشف الحقيقـــــــــــــــة .

---

(1) انظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ، جـــ3 : 63 – 64 .

(2) انظر المرأة العربية عبد الله عفيفي ، جـــ3 : 63 – 64 .

(3) انظر العقد الفريد جـــ4 (وفود العرب) دار المسيرة ، بيروت 1981م طـــ2 ص160 وما بعدها .

الفصـــل الأول

أولاً : مقدمات القصائد عند الصعاليك :

إذا ما نظرنا نظرة عجلى على شعر العرب في الجاهلية وصدر الإســلام، فإننـــا لا نكاد نجد قصيدة من القصائد تخلو من مقدمة غزلية، وهذه سمة واضحة اتسم بهـــا الـــشعر العربي في الجاهلية، وتأسى بهم شعراء الإسلام، الأمر الذي جعل ابن قتيبة يتنبه إلي هـــذا الأمر حيث يقول: " سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيهـــا بـــذكر الديار، والدمن والآثار، فبكي وشكي وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذا كان نازلة العمد في الحلول والظعن علي خلاف ما عليـــه نازلـــة المدر، لانتقالهم من ماء إلي ماء، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليحل نحـــوه القلـــوب ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفـــوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء فلـــيس يكـــاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم، حلال أو حرام [1] .

وإذا كان ابن قتيبة يري أن النسيب أداة فنية موجهة للخارج، إلي قلـــوب المتلقـــين وأسماعهم فإن عز الدين إسماعيل يري أن النسيب كان تعبيراً يجسم لنا ارتداد الشاعر إلـــي نفسه، وخلوه إليها، وهو بذلك يعد الجزء الذاتي في القصيدة الذي يعبر فيه الشاعر عن الحياة والكون من حوله فصورة الحياة بالنسبة للشاعر الجاهلي، كانت تنطوي فـــي نفـــسه علـــي عناصر خفية أحسها الشاعر إحساساً مبهماً وقدر موقفه منها [2] .

ومهما يكن من اختلاف بين وجهات نظر كلٍ من القدماء والمحدثين، فإن الخـــلاف ليس علي وجود هذه المقدمات وإنما علي تفسيرها كظاهرة عامة في الشعـــر القـــديـــم .

إذاً إذا كانت أشعار الجاهليين والإسلاميين لا تكاد تخلـــو مـــن المقـــدمات الغزليـــة والطللية، والشعراء الصعاليك جزء من هؤلاء، فهل سار الصعاليك علي مـــا ســـار عليـــه شعراء عصرهم من افتتاح قصائدهم بالوقوف علي الأطلال، وبكائها، وحـــوار المحبوبـــة، والشكوى لها ومنها، أم أنهم ساروا علي نهج مغاير، تبعاً لتغير ظروف حياتهم، وأســـاليب عيشهـــم ؟ .

---

(1) الشعر والشعراء ابن قتيبة ، جزء .ص 20-21 ، الدار العربية للكتاب بيروت ط 3، 1983م .

(2) انظر مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي حسين عطوان ص 219 ، دار المعارف مصر .

يقول الدكتور يوسف خليف في معرض حديثة عن المقدمات الطللية في شعر الصعاليك " إنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات وهو مذهب جعلوا محوره " حواء الخالدة " أيضاً، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين، تلك التي يتدله الشاعر في حبها ويبكي أيامه معها ويقف على أطلال ديارها، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها، التي تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي .

وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة الأنثى الضعيفة التي يظهر صاحبها إلى جوارها بطلاً قوياً مستهيناً بحياته من أجل فكرته يرفض نصيحتها في رفق وأدب، ويقابل جزعها بابتسامة الواثق، المعتد بشخصيته، ويحاول أن يقنعها في قوة وإيمان بسداد رأيه، وسلامة مذهبه في الحياة [1] .

إن هذا الفصل سيثبت بجلاء أن المرأة كانت محور مقدمات القصائد عندهم، فالشواهد الشعرية في شعر الصعاليك تثبت بوضوح أن المرأة معلم بارز من معالم شعرهم وهذه حقيقة لا يمكن إغفالها، أو تحويرها، فالمرأة في مقدماتهم كانت المحبوبة، التي يتدله الشاعر في حبها، فيقف على ديارها، ويتألم لفراقها، ويشتاق إليها، ويبكي من أجلها، وكانت الزوجة المحبوبة التي يحبها ويشفق عليها، ويحاورها بأدب ورفق ومودة، فمقدماتهم الغزلية لا تختلف عن مقدمات معاصريهم من الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

إن الدارس لشعر هؤلاء الشعراء، يجد أنهم ساروا في كثير من شعرهم علي ما سار عليه غيرهم من شعراء عصرهم، فوقفوا علي الأطلال، وتذكروا أهلها، وبكوا واشتكوا ألم الفراق، ولوعة الحرمان، وبعد المحبوب، فشعرهم قد يبدأ بالوقوف علي الأطلال أحياناً، وأحياناً أخري يبدأ بحديث الشاعر إلي محبوبته حديثاً هادئاً، مفعماً بالحب وهذا إذا ما استثنينا المقطوعات الصغيرة من شعرهم، التي غالباً ما كانت وليدة اللحظة والموقف، وهي كثيرة في شعر الصعاليك .

---

[1] الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ص 266 ، دار المعارف .

أشكال العلاقة بين الشاعر الصعلوك والمحبوبة في الشعر:

(1) الوقوف على الأطلال:

سأحاول تتبع بعض قصائد الصعاليك التي بدأت بالوقوف علي الأطلال، لكـل من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، وذلك من أجل استيضاح الصـورة، وبيانها يقول عمرو بن براقـة *[1]:

عرفت من الكنود ببطن ضيم فَجـوٍّ بشـائمٍ طللاً محيـلا[2]

تعفى رسمـه إلا خيامـاً مجللةً جوانِبُهـا جليـلا [3]

عداني أن أَزورَكِ أن قومـي وقَوْمَكِ ألقحوا حرباً شمـولا[4]

وأنك لو رأيتِ الناسَ يومَ الـ حيار عَذَرْتَ بالشُّغُلِ الخليـلا

فالشاعر يتعرف علي ديار محبوبته التي منع من زيارتها بسبب الحرب التي بـين قومه وقومها، وهذا يكشف جانباً من حياة الصعلوك، حياة التشرد، والشتات، التي تـنعكس سلباً علي حياتهم العاطفية، وتحدد معالم العلاقة بين الصعلوك ومن يحب، حيث يُصبح اللقاء أحياناً بينه وبين من يحب متعذراً .

ويتحدث عروة عن ديار محبوبته أو زوجته أم حسان، شاكياً من الفـراق والبعـد ويتذكر أيام كان ينعم بوصلها، في جو يعبق بكل ما هو جميل حيث يقول [5]:

عفت بعدَنا من أم حسان غضورُ وفي الرحـل منهـا أية لا تغيرُ[6]

وبالغرّ والغرّاء منهـا مَنازلُ وحولَ الصَّفـا، من أهْلِهـا مُتدورُ[7]

ليالينا إذ جِيبُهالكَ نـاصحُ وإذْ ريْحُهـا مِسْكٌ زكـيٌّ وعَنْبَرُ [8]

أَلَمْ تَعْلَمي يـا أُمَّ حسَّانَ، أَنَّنَا خليطا زيالٍ، ليس عن ذاك مقصـر[9]

---

* هو عمرو بن منبه بن يزيد الهمداني، شاعر صعلوك جاهلي، كان رفيقاً للشنفرى ، وتأبط شراً وهو مثال للصعلوك العنيد ، وهو من العدائين المشهورين الذين لا تلحقهم الخيل .

(1) منتهي الطلب من أشعار العرب، ابن المبارك، ص 845 .

(2) بطن ضيم، وجو . وبشائم: أسماء أماكن .

(3) تعفىّ رسمه :درس و انمحي .

(4) ألقحوا حرباً : أشعلوها .

(5) الديوان : 71 .

(6) غضور : ثنية فيما بين المدينة إلي بلاد خزاعة وكنانة .

(7) متدور : متفعل أي مكان دوار، والدوار نسك كانوا يطوفون به في الجاهلية .

(8) إذجيبها ..... إلخ : أرادها وفؤادها .

(9) خليط زيال : خليطاً مفارقة، أي لايفارق بعضنا بعضاً ، – المقصر : المعزل .

وأنَّ المنايـــا ثَغْرُ كـــــل ثنيةٍ فهل ذاك عما يبتغي القــوم محصر؟[1]

وأما قيس بن الحدادية * فيذكر ديار محبوبته، و يدعو لها بالسُقْيا، وينسب بمحبوبته نعم فيقـــــــول [2]:

سقـــى الله أطلالاً بنعمٍ تَرَادَفَتْ بهنَ النَّوى حتى حَلَلْنْ المَطَاليـــا [3]

فإن كانت الأيام يا أُمَّ مــالك تسليكم عني وترضي الأعـــــــاديا

فلا يأْمَنَن بعدي امرءٌ فجع لذةٍ من العيش أو فجعَ الخُطُوبِ العوافيا [4]

وبُدِّلت مــن جَدْواك يا أُمَّ مالكٍ طــوارق همّ يَحْتَضِرْنَ وَســـــاديا[5]

وأصبحتُ بعد الأُنْس لابسَ جبَّةٍ أساقــــي الكماة الدارعين العواليــا[6]

فيوماي يوم في الحديد مسربلاً ويوم مع البيض الأوانس لاهيــــا

فلا مدركاً حظاً لــدى أم مالك ولا مستريحاً في الحياة فقاضيـــــا[7]

خليلي إن دارت علـــى أم مالك صروف الليالي فابعثا لي ناعيـــا

ولاتتركاني لا لخيــــر معجل ولا لبقـــــاء تنظران بقائيـــــا

وإن الذي أمَّلت من أم مـــالك أشاب قذالي واستهام فؤاديـــــــا[8]

فالشاعر يدعو لديار محبوبته بالسقيا، تأسياً بغيره من الشعراء، حتى تبقي عـــامرة بأهلها، ويتخيل أن له أصدقاء يحدثهم، ويشكو إليهم، إن حب أم مالك أورثه، ألمـــاً ممـــضاً، وحرقة لا تنطفئ وهما لا يفارقه، وهو يعرض في هذه الأبيات لجانب مهم من جوانب حياة الصعلوك، حيث أنها مقسمة بين جانبين مهمين، الأول الحياة الهانئة المطمئنة، التي يسودها الحب والوئام، وحياة الحرب والغزو والسعي وراء الرزق . ومجابهة الأخطار والأهـــوال، وذلك في قولـــه :

فيوماي يومٌ في الحديدِ مُسَرْبَلاً ويومٌ مــع البيض الأَوَانِس لاهياً

---

[1] ثغر كل ثنية : الثغر موضع المخافة، – محصر : أي حابس .

*هو قيس بن منقذ، شاعر جاهلي ، كان فاتكاً شجاعاً صعلوكاً، خليعاً، خلعته خزاعة بسوق عكاظ، وأشهدت على نفسها خلعتها إياه، فلا تحتمل جريرة له، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه .

[2] الأغـــــاني جزء 14 : 150-151 .

[3] المطالي : الأرض السهلة اللينة، ترادفت: تتابعت عليه الرحلة .

[4] العوافي : جمع عافية وهي الطاقة .

[5] الجدوى : العطية .

[6] الجبة : الدرع، الكماة – جمع كمي وهو الشجاع المتكي في سلاحه المتغطي بالدرع والبيضة ، العوالي : جمع عالية ، وهي أعلى الرمح ورأسه.

[7] قا ضيا : ميتاً، من قضى : أي مات .

[8] القذال : جماع مؤخر الرأس ، استهام فؤاده : أذهبه .

ويقف عروة على ديار محبوبته، متحسراً متألماً، باكياً فيقول [1]:

ألم تعرف منازلَ أم عمــــروٍ … بِمُنْعَرَجِ النَّواصفِ من أَبَـــانِ

وقفت بها فغاض الدمع منِّـــي … كمُنْحَدرٍ من النَّظْمِ الجُمَـــانِ

ولكن لن يلبِّثَ وصل حيــــيٍّ … وجدَّةَ وجْهه مُرُّ الزَّمـــانِ

إن رؤية منازل أم عمرو حركت شجونه، وجددت ذكرياته، فسالت دموعه غزيرة، فالأيام دُول، والدهر لا يدوم على حال، والزمان لا يبقى على حال، فلا يبقى من أيام الزمان الجميلة الهانئة غير الذكريات .

ويسائل حاجز بن عوف الأزدي* أطلال محبوبته التي لم يجد فيها مجيباً فيظل فيها واقفاً كالذي اعتراه المرض نتيجة تأثره بذكريات محبوبته التي لم يستطع رؤيتها بسبب الحرب التي بينه وبين قومها، وهو أمر عانى منه الصعاليك في علاقتهم بمحبوباتهم، يقول [2].

سألتُ فَلَمْ تكلِّمْني الرُّسُــومُ … فَظَلْتُ كأَنَّني فيها سَقِيــمُ [3]

بقَارِعَةِ الغَرِيْفِ فَذاتِ مَشْــيٍ … إلى العَصْدَاءِ ليْسَ بهــا مُقِيْمُ[4]

منازلُ عذْبة الأَنْيَاب خــوذٍ … فما إنْ مثْلُها في النـَّاس نيمُ[5]

فأمَّا إن صَرَفْتُ فغيرُ بُغْـضٍ … ولكن قد تعديني الهمــومُ

عداني أن أزورَكِ حَرْبُ قــومٍ … كجمر النَّارِ ثاقبةٌ عــذومُ[6]

وفي قصيدة أخرى لا يكاد يعرف ديار محبوبته التي غيرتها الرياح، وغطتها الأتربة، حتى إنه تبين آثارها بصعوبة بالغة يقول متسائلاً [7].

لمن طَلَلٌ بعثمة أو حُفَـــارِ … عفته الريحُ بعدكَ والسَّـواري[8]

عفتهُ الريحُ واعتلجت عليــه … بأكدر من تراب القاع جــارِ[9]

---

[1] عروة بن الورد حياته وشعره . د. إبراهيم الخواجة ،ص 191 .

* هو حاجز بن عوف الأزدي ، شاعر جاهلي مقل، ليس من مشهوري الشعراء، وهو أحد الشعراء الصعاليك المغيرين على قبائل العرب، وممن كان يعدو على رجليه عدواً يسبق به الخيل .

[2] منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك : 2083 .

[3] الرسوم : أطلال المحبوبة ، – سقيم : مريض .

[4] قارعة الغريف : وذات مشي ،– العصداء أسماء أماكن .

[5] الخوذ : المرأة الشابة .

[6] ثاقبة : متقدة، – عُذُم : جمع عُدُم ، وهي الشديدة .

[7] منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك : 2082 .

[8] عفت : درست وامحت ،– السوارى : السحب الممطرة .

[9] اعتلجت : نقول اعتلج الرمل : تجمع، واعتلجت الأرض : طال نباتها . الأكدر : السيل الشديد .

فلأياً ما يبين رثيدُ نـــــــؤي **ومرسى السُفْليين من الشِّجــــــار**
ومبرك هجمةٍ ومصامِ خيــلٍ **صوافن فــــي الأعنَّة والأَواري**[1]

وتبدو أطلال المحبوبة أحياناً كالوشم في ظهور الأنامل، بسبب ما تعرضت له مـــن عوامـــل التعريـــة، فالريـــاح تغطيهـــا بأتربـــة ناعمـــة، والسيـــول غيـــرت معالمهـــا يقـــول أبـــو الطمحـــان القينـــي * .

لمن طَلَلٌ عافٍ بذات السلاســـل **كرجع الوشم في ظهور الأنامـــلِ**
تبدت به الريح الصبا فكأنمـــــا **عليه تذري تربه بالمناخـــــــل**
وجر عليه السيل ذيلاً كأنــــــــه **إذا التف في الميثاء إسفاف ساحــلِ**
وقفت به حتى تعالى لي الضحـــيٍ **أسائله ما إن يبين لسائــــــــــلِ**
ولما رأيت الشوق منى سفاهـــــةً **وأنّ بكائي عن سبيلي شاغلــــــــي**
صرفت وكان اليأس مني خليقـــةً **إذا ما عرفت الصرم من غير واصلِ**[2]

لقد وقف الشاعر على ديار محبوبته، التي غيرها الدهر، حيراناً، متألماً، يتمنـــى أن يجد من يجيبه عن أسئلته الكثيرة التي تشغل باله، ولكنه سرعان ما يثوب إلى رشده، ويرتد له عقله ويعرف أن الشوق والبكاء، والانشغال بما لا فائدة منه قد يثني الإنسان عن كثير من أمور الحياة التي لا غنى عنهـــا .

أما القتال الكلابي* فله عدَّة قصائد تبدأ بالوقوف على الأطلال، فها هو، يقف علـــى ديار محبوبته، حتى الضحى يسائلها، يريد منها جواباً شافياً لما في صدره، ولكنه كغيره من الشعراء لا يجد جواباً، إلا أنه لا ييأس حتى ولو جنّه الظلام، والحقيقة أن مساءلة الديار التي يكثر من ذكرها الشعراء، تظهر مدى الحيرة والقلق، والخوف من المجهول، الذي يعتـــري هؤلاء الشعراء، يقـــول القتّـــال [3]:

---

(1) مصام الخيل : موقفها،- صوافن : نقول : صفن الفرس قام على ثلاث قوائم ، وطرف حافره الرابع .

* أبو الطمحان القيني (45ق .هـــ - 30 هـــ) ، وهو حنظلة بن شرقي ، أحد بني القين ، - من قضاعة ، شاعر فارس معمر مخضرم عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم ، ولم ير النبي ، وفي الأغاني كان خبيث الدين جيد الشعر .

(2) شعر أبي الضمحان القيني ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

* هو عبد الله بن مجيب بن المضحي من بني كلاب بن ربيعة (ت 70 هـــ) شاعر قتال، بدوي من الفرسان يكنى أبا المسيب، أدرك أواخر الجاهلية، وعاش في الإسلام إلى أيام عبد الملك بن مروان وسجن مرّة في المدينة ابن عم له اسمه زياد، وفر من السجن، وتبرّأت منه قبيلتـــــه .

(3) منتهى الطلب من أشعار العرب ابن المبارك : 649 – 650 .

لطيبة ربعٌ بالكليبيـــــن دارسٌ — فبرق نعاج غيرتـــه الرَّوامــسُ[1]
وقفت به حتى تعالى لي الضحى — أسياً وحتى ملّ فتلٌ عـــرامسُ[2]
وما إن تبين الدار شيئاً لسائـــلٍ — ولا أنا حتى جنني الليلُ آيـــسُ[3]
على آلة ما ينبري لي مساعـــدٌ — فيسعدني إلا البلاد الأمـــالسُ[4]
تجوب على ورقٍ لهن حمامـــةٌ — ومنثلمٌ تجري عليه الأداهـــسُ
وسُفْعٍ كذود الهاجري بجعجـــع — تحفر في أعقارهن الهجـــارسُ[5]
مواثل مادامت خزازٌ مكانهـــا — بجبانه كانت إليها المجـــالس
تمشي بهاربد النعام كأنهـــا — رجالُ القرى تجري عليها الأطالسُ[6]

ويقـــول [7].

نظرت وقد جلى الدجى طاسم الصوى — بسلعٍ وقرن الشمس لم يترجَّلِ
إلى ظُعُنٍ بين الرَّسيسِ فَعاقِـــلٍ — عوامدَ للشَّيْقَيْن أو بطن خنثـل
ألا حبذا تلك الديار وأهلهـــا — لو أن عذابي بالمدينة ينجلـي

إن الشاعر يتذكر ظعن محبوبته التي لا يستطيع رؤيتها بسبب بعده عنها ووجوده في السجن، السجن الذي فرّ منه، بعد أن ذاق فيه ألوان العذاب، لذلك يتمنى أن ينقضي هذا العذاب، وينعم هو برؤية ديار محبوبته .

ويدعو جُحْدُرْ العكلي* لأطلال محبوبته بالسقيا، كعادة أسلافه من الشعراء الجاهلين، حتى تظل الديار عامرة بأهلها، فلا يغادرونها فيحدث ما يقض المضجع، ويذهب النوم، ويبكي العيون من فراق الأحبَّة وبعدهم، يقـــول [8].

---

(1) الروامس : الرياح التي تغطي آثار الديار بماتثير .

(2) أسيّـــاً : حزينـــاً ، –

(3) جنه : جنه الليل : شمله وغطاه ،– آيس : قانط قاطع للرجاء .

(4) الأمالس : جمع ملساء ، وهي الأرض المستوية لا نبت فيها .

(5) الأسفع : أسود اللون إلى الحمرة ،– الذود : الإبل لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقل عن الثلاث .– الجعجع : الأرض المجدبة ، وتعني المكان الضيق الخشن ،– الهجارس : مفردها هجْرس وهو ولد الثعلب .

(6) الأربد من النعام : ما كان في لونه غبرة مائلة إلى السواد، – الأطلس : الذئب الأمعط في لونه غبرة إلى السواد .

(7) منتهى الطلب من أشعار العرب : 643 .

* جحدر العكلي (ت 100هـ) شاعر من أهل اليمامة، كان في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي ، يقطع الطريق، وينهب الأموال ما بين حجر اليمامة ، فأمسكه عامل الحجاج في اليمامة ، وسجنه في سجن بها اسمه (دوار) نظم فيه قصائد .

(8) شعر جحدر العكلي ، موسوعة الشعر، المجمع الثقافي .

يا دارُ بين بزاخةٍ فكثيبُهـــــا **فلوى غُبيرُ سَهْلُها أو لوبهـــــا**
سقت الصبا أطلالَ ربعك مغدقاً **ينهلُّ عارضُها بِلَبْس جُيُوبِهـــــا**
أيام أرعى العينَ في زَهَر الصِّبا **وثمار جنَّات النساءِ وطيبهـــــا**

إن هذا الجزء من مقدمات الصعاليك، والذي ذكروا فيه الأطلال ووصـــفوها كمـــا وصفها معاصروهم من الشعراء الجاهليين، ووقفوا عليها فبكوا وتذكروا من يحبون واشتكوا ألم الفراق، وبعد المحبوب، في جو نفسي مفعم بالحزن والأسى، وحيرة بالغة .

(2) الغــــزل بالمحبوبــه :

والقسم الثاني من المقدمات الغزلية، وهو تلك المقدمات التي خلت من الوقوف على الأطلال صراحة، ولكنها ظلت مقدمات غزلية، تتعلق بالمرأة المحبوبة، التي طالما شـــغلت القلوب والعقول، وأسهرت العيون، فهام بها الهائمون، وتعلق بها المحبـــون، فوصفوهـــــا أدق وصف وتغنـــوا بهـــا أجمـــل غنـــاء . يقول مـــالك بـــن حـــريـــــم * فــــي مطلـــع قصيدة طويلة – رواها الأصمعي – مبدياً جزعه من الشيب بعد الشباب، وانصراف إخوان الصفا عنه، ومتحدثاً عن محبوبته وكيف طرقه خيالها، وطفق يشبب بها، يقـــول [1] .

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعاً **وقد فات ربعيُّ الشباب فـــــودعا**[2]
ولاح بياضٌ في ســــوادٍ كأنّــــــه **صوارٌ بجوٍّ كان جَدْباً فأمْرَعـــــا**[3]
وأقبل إخوان الصفا فأوضعـــــــوا **إلى كلِّ أحوى في المقامة أفرعـــا**[4]
تذكرت سلمى والركاب كأنهـــــــا **قطاً واردٌ بين اللفاظ ولعلعــــــــــا**[5]
فحدثت نفسي أنها أو خيالهـــــا **أتانا عشاءً حين قمنا لنهجعـــــــــا**
فقلت لها بيتي لدينا وعرِّســــــــي **وما طرقت بعد الرُّقَاد لتَنْفَعَـــــا** [6]
منعمة لم تلق في العيش ترحــــــةً **ولم تلق بؤساً عند ذاك فَتَجْدَعـــا**[7]

---

* هـــو مـــالك بـــن حريـــم الهمدانـــي، شاعـــر فحل جاهـــلي من لصوص همـــدان، يـــروي صاحب الأغانـــي أنه جـــد مسروق بـــن الأجـــدع الهمدانـــي التابعـــي .

(1) الأصمعيـــــــات : 63 .

(2) ربعي الشباب : أولــــه .

(3) الصّوار: بالضم والكسر : القطيع من البقر،– الجو: ما انخفض من الأرض،– أمرع : أخصب وأكلأ .

(4) أوضعوا : أسرعوا ،– الأحوى : الأسود،– المقامة : المجلس والقوم .– الأفرع : التام الشعر .

(5) الركاب : الإبل ،– اللُّقاظ : بضم اللام وكسرها : ماء لبني إياد ، – لعلع : موضع .

(6) التعريس : النزول آخر الليل . أراد أن خيالها أثار لواعجه .

(7) التَّرح : الفقر ،ومنه الحزن ، الترحة : المرَّة الواحدة منه ، تجدع : من الجدع وهو سوء الغذاء .

أهيم بها لم أقض منها لبانـــــــــةً وكنت بها في سالف الدَّهرِ موزعا[1]
كأن جنا الكافور والمسك خالصـــــــاً وبرد الندى والأقحوان المُنَزَّعَــا [2]
وقلتاً وَقَرتْ فيه السحابة ماءهـــــا بأنيابها، والفارسيَّ المشعشعـــا[3]

ويبدأ تأبط شراً* قصيدة طويلة له، بذكر طيف محبوبته الذي ألم به، ومتحدثاً عــن هجرها له بعد الوصل، ومبيناً عدم صدقها في مواعيدها، ثم يظهر عزّة نفس وكبرياء، عرفا عند الصعاليك حيث أنه لا يصل إلا من وصله، دون تدلل واستجداء، يقـــول [4].

يا عيد مالك من شوقٍ وإيــراقِ ومن خيال على الأهــوال طرَّاق[5]
طيف ابنه الحر إذ كنا نجاورهـا ثم افتتنت بها بعد التِّفــــــــراقِ[6]
يسري على الأين والحيات محتفياً نفسي فداؤك من سارٍ على ساقِ[7]
تالله آمن أنثى بعد مـــــا حلفت أسماء بالله من عهدٍ وميثــــاقِ[8]
ممزوجة الود بينا واصلت صرمت الأول اللذ مضى، والآخر الباقــي[9]
تريك وعد أمانيّ تُغَرُّ بـــــــــه كالقَدْرِ مرَّ على ضجنــــان برّاقِ[10]
إني إذا خلة ضنت بنائلنــــــــا وأمسكت بضعيف الحبــل أحذاقِ[11]

---

(1) اللبانة : الحاجة – الموزع ، المغرى، أوزعه بالمشي : أغراه .

(2) الجنى : كل ما يجنى ،– الاقحوان : نبت له نور أبيض ،– المنزع : المنزوع .

(3) القلت : النقرة في الجبل تمسك الماء . وقرت : جمعت ،– بأنيابها : خبر " كأن " في البيت السابق ،– الفارسي : المنسوب لفارس ، أراد به الشراب وهو الخمر ،– المشعشع : الممزوج بالماء .

* تأبط شراً (ت85 ق هــ) هو ثابت بن جابر بن سفيان، وسمي " تأبط شراً " لأنه تأبط سيفاً وخرج ، فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبــط شــراً وخرج وهذا أشهر ما قيل في سبب تلقيبه ، كان من أشهر لصوص العرب المغيرين ، قريناً للشنفرى ، وعمرو بن براقة ، وكان ثلاثتهم لا تلحقهم الخيل لشدّة عدوهم .

(4) ديــوان الصعاليك: 143– 144، من غير الأبيــات:(2–4–5–6) ، وكذلك المفضليات : 27–28 . والمنتخب في محاســن أشعــار العــرب : 283 .

(5) العيد: ما اعتاد من حزن وشوق ،– مالك: ما أعظمك، إيراق: من الأرق،– طرَّاق يطرقه أي يأتيه ليلاً .

(6) افتتن : هام ، التفرّاق : مصدر تفرَّق .

(7) يسري الطيف : يسير ليلاً ،– الأين : نوع من الحيات ،أو الاعياء والتعب ،– محتفياً : حافياً .

(8) تالله آمن : أي لا آمن.

(9) ممزوجة الود: غير صافية،– الشطر الثاني : يعني وصالها الذي انقطع ٍوهجرها الذي استمر ، اللَّذ : لغة في الذي .

(10) ضجنان : جبل بناحية مكة ،– القطر : السحاب هنا براق : يبرق ولا يمطر فهو خُلَّب .

(11) خُلَّة : صديق ، للذكر والأنثى ،– أحذاق : المتقطع .

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ ألقيت ليلة خبتِ الرَّهط أوراقــي[1]

ويفتتح الشنفري* تائيتهُ المشهورة بالغزل والتشبيب، مبدعاً في وصف محبوبتــه ، والتنويه بمحاسنها، وأخلاقها، يقـــول [2].

ألا أم عمروٍ أجمعت فاستقلــت وما ودعت جيرانها إذ تــــولت[3]
وقد سبقتنا أم عمرو بأمرهـــا وكان بأعناق المطـــيَّ أظلت [4]
بعينيّ ما أمست فباتت فأصبحت فقضت أموراً فاستقلت فـــولت [5]
فواكبدا على أميمة بعدمـــا طمعت، فهبها نعمــة العيش ولت[6]
فيا جارتي وأنت غير مليمـــة إذا ذكرت، ولا بذات تقـــلت[7]
لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعهـــا إذا ما مشت، ولا بذات تلفــت
تبيت بعيد النوم تهدي غبوقهـــا لجارتها إذا الهديــــة قلَّت [8]
تحلُّ بمنجاةٍ من اللوم بيتهـــا إذا ما بيوتٌ بالمذمــــة حلت[9]
كأن لها في الأرض نسياً تقصــه على أمهــــا وإن تكلمك تبلت[10]
أميمة لا يخزي نثاها حليلهـــا إذا ذكر النســـوان عفت وجلت[11]
إذا هو أمسى أب قرة عينــــه مآب السعيد لم يسل أيـــن ظلت[7]

---

(1) بجيلة : القبيلة التي أسرته، – الخبت : اللين من الأرض .– الرهط : موضع ،– ألقيت أوراقي " استغرقت مجهودي في العدو.

* الشنفرى شاعر جاهلي اسمه عمرو بن مالك الأزدي من بني الحرث بن ربيعة، والشنفرى لقبه، ومعناه عظيم الشفة، وهو ابن اخت تأبط شراً، وكـــان أحد الثلاثة العدائين، ضرب به المثل في العدو، فقيل " أعدى من الشنفرى " . أخذ أسيراً فدـــاء في بني سلامـــان بن مفِّرج ، وكان غلاماً، فلما شب وعلم ، توعدهم ، بقتل مائة منهم ، وظل يغزوهم حتى قتل منهم تسعة وتسعين ، من شعره المشهور " لامية العرب " .

(2) المفضليات : 108 ،– ديـــوان الصعاليك : 15– 17 . والأغـــانـــي جزء 21: 209 – 210 .

(3) أجمعت : عزمت أمرها ،– استقلت : ارتحلت .

(4) سبقتنا بأمرها: استبدت واستأثرت به، وكانت ... : أي فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها .

(5) بعيني : يأسف أن يرى رحليها ولا حيلة له .

(6) زلت : ذهبت ، من قولهم زلّ عمرة : ذهب .

(7) مليمة : غير ملامة ،– تقلت : تبغض ، والتبغض : مقابل التحبب ،أي ليس ممن يقال فيها أنها تَقَلَّتْ .

(8) الغبوق : ما يشرب بالعشي ،– إذا الهدية قلت : أي في الجدب حيث تذهب الألبان، وتنفذ الأزواد .

(9) تحل بيتها: فعل متعد بنفسه،– المنجاة : فعله من النجوة وهو الارتفاع .

(10) النسي : الشيء المفقود المنسي،– تقصه : تتبعه،– أَمها بفتح الهمزة : قصدها الذي يريده ،– تبلت : تنقطع في كلامها لا تطيله .

(11) النثـــا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء .

(7) آب : رجع ،– (قُرّةَ) مفعول .

فدقت وجلت واسبكرّت وأكملت فلوا جن أنسان من الحسن جنت[1]

فبتنا كأن البيت حجر فوقنـــــا بريحانة ريحت عشـــاءً وطلت[2]

بريحانة من بطن حلية نـــورت لها أرجٌ، ما حولـهـــا غيرُ مسنتِ[3]

ويتحدث تأبط شراً عن طيف "سعاد" الذي ألم به فأرَّقه، وأذهب نومه ثــم يــصفها وصفاً حياً جميلاً، فيقــول [4].

لقد قال الخليُّ وقـــال حُلساً بظهر الليل شُدَّ به العكــــــومُ[5]

لطيفٍ من سعادَ عناك منها مراعاةُ النجوم ومن يهـــــــمُّ

وتلك لئن عنيت بهـــا رداحٌ من النسوان منطقهـــــا رخيمُ[6]

نياقُ القرط غرَّاء الثنـــــايا ورَيداء الشباب ونِعم خيـــــم [7]

كذلك قد يكون خيال المحبوبة، سبباً في الأرق وقلة النوم عند عبدة بن الطيب* الذي يقول في مطلع قصيدة لـــه [8].

تأوب من هند خيـــالٌ مــؤرق إذا استيأست من ذكرها النفس يطرقُ

وأكوارنا بالحو جو جـــــواذة بحيث يصيد الآبدات العســـلَّــقَ

وحلت مبيناً أو رمادان دونهــــا إكامٌ وقيعانٌ من السرِّ سَعْلَـــــقُ

---

[1] اسبكرَّت : طالت وامتدت .

[2] حُجِّر : أحيط ،– ريحت : أصابتها ريح فجاءت بنسيمها ،– طلت : أصابها الطلل وهو الندى . وإنما قال عشاء لأنه أظهر لرائحة الرياحين .

[3] حِلية : واد بتهامة، أعلاه لهذيل وأسفله لكنانـــــة ،– الأرج : توهـــــج الريح وتفرقها في كل جانب ،– المسنت : المجدب .

[4] ديـــــوان الصعاليك : 167–168 .

[5] قال حلساً : قال كلاماً جاداً ،– العكوم جمع عكم : ما يُشدّ به فم البعير .

[6] رَداح : كبيرة الردفين .

[7] نياق القرط: طويلة القرط، كناية عن طول جيدها ،– عرّاء الثنايا: برّاقة الأسنان ،– ريداء : لينه ناعمة ،– نعم خيم : نعم الطبيعة والسجية ، وفاعل نعم هنا ليس معرفاً "بأل " .

* عبدة بن الطيب (ت 25 هـــ) شاعر مجيد ليس بالمكثر، وهو مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، شهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز سنه 13 هـــ ، وله آثار مشهورة، وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين حاربوا الفرس بالمدائن . كان عبدة أسود وهو من اللصوص الرباب، رثى قيس بن عاصم المنقري بقصيدة يقول فيها :

وما كان قيس هلكة هلك واحدٍ * * * ولكنه بنيان قومٍ تهدَّما

قال أبو عمر بن العلاء: هذا البيت أرثي بيت قيل .، وقال ابن الأعرابي : هو قائم بنفسه ، ما له نظير في الجاهلية ولا الإسلام .

[8] شعر عبدة بن الطيب ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

شآمية تجري الجنوب بقرضهــا　　　مراراً فواف كيلها ومحلـــــــــق

وفي مطلع مفضليته يتحدث عبدة بن الطيب عن بعد خولة وهجرانها، ويشكو ممـــا يخامر قلبه من تذكرها، ويعلن عزمه على نسيانها بالرحلة على ناقته التي وصـــفها وصـــفاً دقيقـــــاً [1].

هل حبل خولة بعد الهجر موصول　　　أم أنت عنها بعيد الدار مشغــول
حلت خويلة في دار مجـــــــاورة　　　أهل المدائن فيها الديك والفيـــل
يقارعون رؤوس العجم ضاحيـــة　　　منهم فوارس لا عزل ولا ميـــل[2]
فخامر القلب من ترجيع ذكرتهـــا　　　رسٌّ لطيفٌ ورهن منك مكبـــولُ[3]
رسٌّ كرس أخي الحمَّى إذا عبرت　　　يوماً تأوَّبه منهـــا عقابيـــلُ[4]
وللأحبة أيام تذكرهـــــــــــــا　　　وللنوى قبل يوم البين تأويـــلُ[5]
إن التي ضربت بيتا مهاجـــــرة　　　بكوفة الجند غالت ودها غـــولُ[6]
فعدِّ عنها ولا تَشْغَلْكَ عن عَمَـــلٍ　　　إن الصَّبابةَ بعد الشيب تَضْليـــلُ

ومن الذين تحدثوا عن بعد المحبوبة حاجز الأزدي، الــذي يحبيهــا، ويــدعو لهــا بالسلامة آملاً في لقائها ورؤيتها، واصفاً إعراضها عن كلامه، واصفاً ناقته، طالباً منهـــا أن تسأل عنـــه لتتعرف على بعض شمائلـــه يقـــول [7].

صباحك واسلمي عنا أمامـــا　　　تحيَّة وامقٍ وعمي ظلامـــــا
برهرهة يحار الطرف فيهـــا　　　كحقة تاجر شدت ختامــــــاً[8]
فإن تمس ابنة السهمي منـــا　　　بعيداً لا تكلِّمنا كلامــــــــا
فإنَّك لا محالة أن تريني　　　ولو أمست حبالكم رمامــــا

---

[1] المفضليـــــــات : 134-136 .

[2] يقارعون : يضاربون ،- العُجْم : أهل فارس ،- العزل : جمع أعزل وهو الذي لا سلاح له ،- الميل : جمع أمْيَل ، وهو السيئ الركوب .

[3] خامر : خالط ،- رس لطيف : شيء خفي في نفسه ،- المكبول : المقيد .

[4] يقال : أجد رساً من حب ، وأجد رساً من حمَى ، للشيء الداخل في القلب . غبرت : غابت .- العقابيل : البقايا لا واحد لها .

[5] تذكرها : تتذكرها أنت .- تأويل : علامات تبين لك أن البين سيقع .

[6] ضرب بيتاً : أي بناه ،- غالت وُدَّها غول : ذهبت به ، والغول ما اغتال .

[7] الأغـــانـــي جزء 13 : 121-213 .

[8] برهرهة : بضة غضة .- الحُقَّة : وعاء من خشب أو عاج .

بناجية القوائم عيسجـــــورٍ **تدارك نيُّها عاماً فعامـــــــا** [1]
سلي عني إذا اغبرت جمادى **وكان طعام ضيفهم الثمامـــا**[2]
فلو صاحبتنا لرضيت منـــا **إذا لم تغبق المائة الغلامـــا**[3]

ويذكر صخر الغيِّ* الهذلي معاودة حب محبوبته له، محبوبته التـي بعـدت عنـه، وأورثته كمداً وحزناً وألماً ممضاً، ثم يصف جاذبيتها وتأثيرها البالغ، والذي لا يـسلم منـه حتى الشيوخ الذين لا حاجة لهم بالنساء، إذا ما سمعوها أو تعرّضت لهم، يقـول [4].

إني بدهماء عـــز ما أجد **عاودني من حبهـــا الزؤدُ**[5]
عاودني حبها وقــد سحطت **صَرْفُ نواهـــا فإنني كمد**[6]
والله لو أسمعت مقالتهـــا **شيخاً من الزُّبِّ رأســه لَبَدُ**[7]
مآبه الروم أو تنـــوخ أوال **آطام من صوران أو زبـــد**[8]
لفاتح البيع يوم رؤيتهـــا **وكان قبل انبياعـــه لكـدُ**[9]

ويذكر قيس بن الحدادية " أم مالك بنت ذؤيب الخزاعي، والتي كان يهواها ويحبهـا فيتحدث عن بعدها، وذلك أن بطون من خزاعة خرجوا جالين إلى مصر والشام بعد جـدب أصابهم، وهذه القصيدة طويلة، وهي من القصائد الرائعة، التي بكى فيها واشتكى، ووصف محبوبته وصفاً معنوياً وحسياً، جميلاً يقول [10].

---

(1) الناجية : السريعة ، ولا يوصف بها البعير .– العيسجـور : الناقة الصلبة السريعة،– تدارك : تلاحق ،– النيّ : الشحم .

(2) اغبرت جمادى : قل الخير وذلك في الشتاء ،– الثمام : نبت ضعيف .

(3) تغبق : تسقي الغبوق ، وهو الشرب بالعشي .

* هو صخر بن عبد الله الخيثمي ، أحد بني خيثم بن عمرو بن الحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل، لقب بصخر الغيِّ لخلاعته وشدَّة بأسه،وكثرة شرِّه، وهو وأخوه الأعلم من صعاليك هذيل، وسيرتهما حافلة بأخبار الغزو والغارة والفتك .

(4) ديـــوان الهذليين : 254–255 .

(5) عزَّما : شدّ ما أجد ،– حِبابُها : حُبَّها ،– الزُّؤد : الذعرُ والفزع .

(6) شحطت: بَعُدت،– صرف : تصرُّف ،– نواها :نيتها، أي وجهها الذي أخذت فيه،– كمد : شديد الحزن .

(7) الزُّبُّ : نقول رجل أزب أي كثير الشعر ،– لبد : قد تلبد ببعضه على بعض، جعله أزب لأنه لا يقرب النساء .

(8) مآبه : منزلة حيث الروم ،– تنوخ : هم حاضرو حلب ،– الآطام : بيوت ،– صوران : دون دابق وزبد : قُبْل حمص ، ويقـــال : صوران وزبد جبلان باليمن .

(9) لفاتح : لأجاب وأطاع ،– البيع والانبياع : الانبساط ،– لكد : عسر ليس بسهـــل .

(10) الأغـــانـــي جزء 14 ص 146–149 .

أجدَّك إن نُعمٌ نأت أنت جـــازعُ قد اقتربتْ لو أَن ذلك نافـــــعُ

قد اقتربت لو أن في قرب دارها نوالاً، ولكن كل من ضن مانـــعُ

وقد جاورتنا في شهور كثيـــرة فما نوّلت، والله راء وسامـــــع

فإن تلقين نعمى هديت فحيهـــا وسل كيف تُرعى بالمغيب الـودائع

وظنّي بها حفظٌ لغيبي، ورعيـــةٌ لما استرعيتْ، والظن بالغيب واسع[1]

وقلت لها في السرّ بيني وبينهـــا على عجلٍ: أيَّان مَن سار راجـــع؟

فقالت: لقاءٌ بعد حول وحجَّـــةٍ وشحط النوى إلا لذي العهد قاطـع[2]

وقد يلتقي بعد الشَّتات أولو النوى ويسترجع الحيَّ السحاب اللوامـع[3]

وما إن خذولٌ نازعت حبل حابلٍ لتنجو إلا استسلمت وهي ظالـــع[4]

بأحسن منها ذات يوم لقيتهـــا لها نظرٌ نحوي كذي البثَ خاشـع[5]

رأيت لها ناراً تُشَب، ودونهـــا طويل القرا من رأس ذَروة فـارع[6]

فقلت لأصحابي: اصطلوا النار إنها قريبٌ، فقالوا: بل مكانك نافـــع [7]

فيا لك من حادٍ حبوت مقيَّـــداً وأنحى على عِرنين أنفك جـــادع

أغيظاً أرادت أن تخبَّ جِمالهـــا لتفجع بالإظعان مَن أنت فاجـــع[8]

فما نُطفة بالطَّود أو بضـــريَّة بقية سيلٍ أحرزتها الوقــــائعُ[9]

يطيف بها حرّان صادٍ ولا يـــرى إليها سبيلاً غير أن سيطالـــع[10]

بأطيب مِن فيها إذا جئت طــارقـــاً من الليل واخضلَّت عليك المضاجـع[11]

وَحسبك من نأيٍ ثلاثة أشهـــر ومن حَزنٍ أن زاد شوقك رابـــع

---

(1) الرعية : اسم من الرعاية .

(2) الحجة : السنة . والشحط : البعد .

(3) النوى : البعد . يسترجع الحي ، أي يرجعهم ويردهم .

(4) الخذول من الظباء والبقر : التي تخذل صواحباتها وتتخلف عن القطيع وتنفرد مع والدها : ويقال هو مقلوب لانها هي المتروكة . ظلع كمنع : غمز في مشية .

(5) البث : اشد الحزن .

(6) تشب : توقد ، القرا : الظهر . ذروة : اسم جبل . الفارع : العالي .

(7) اصطلوا النار : يريد جدوا في السير لنصطلي النار إنها قريب .

(8) خبت : اسرعت ، وقد اخبها صاحبها . ظعن كمنع : سار وإظعنه اظعاناً : سيرة . من أنت فاجع : أي أصحابك .

(9) النطفة : الماء الصافي قلّ أو كثر، والجمع نطاف . والطود : الجبل . وضريّة : بئر .

(10) اطاف به : الم به وقاربة . حران صاد : عطشان . طالعه : اطلع عليه أي اشرف .

(11) الطارق : الاتي ليلاً . اخضلت : نديت .

سعى بينهم واشٍ بأفلاق برمـــــةٍ ليفجع بالأظعان مَن هو جــــازع[1]
بكت من حديث بثَّة وأشاعــــــه ورصفة واشٍ من القـــوم راصع[2]
فلا يسمعن سري وسرّك ثـــــالثٌ ألا كلّ سرّ جاوز اثنيــــن شائــع
وكيف يشيع السرُّ منّي ودونــــه حجاب ومِن دون الحجاب الأضالع!
وحبٌّ لهذا الرَّبع يمضي أمامــــه قليل القِلى منه جليــــــلٌ ورادع[3]
لهوتُ به حتى اذا خِفتُ أهلـــــه وبيّن منه للحبيب المخـــــــادع
نزعت فما سريّ لأوّل سائــــــل وذو السر ما لم يحفظ الســر ماذع
وقد يحمد الله العزاء من الفتـــى وقد يجمع الأمر الشتيت الجوامع
ألا قد يُسلّي الهوى عن حبيبـــه فيسلى، وقد تُردي المطيَّ المطامــع
وما راعني إلا المنادي أَلا اظعنــوا وإلا الرواغي غُدوةً والقعــاقــعُ[4]
فجئت كأني مستضيفٌ وسائـــل لأخبرها كلّ الذي أناصانـــــــع
فقالت: تزحزح ما بنا كُبرُ حاجـــةٍ إليك ولا منَّا لفقرك راقــــــــــع
فما زلتُ تحت الستر حتى كأننـــي من الحرّ ذو طمرَين في البحر كارع[5]
فهزّت إليّ الرأس مني تعجُّبـــــاً وعُضّضِ مما قد فعلتُ الأصـابــع
فأيّهما ما أتبعنّ فأننــــــــــي حزين على إثر الذي أنــــا وادع[6]
بكى من فراق الحيّ قيس بـن مُنقذ وإذراء عيني مثله الدمـع شـــائع [7]
بأربعة تنهلُ لمـــــــــــا تقدّمت بهم طُرُق شتى وهنّ جـــوامـــع[8]
وما خلت بين الحي حتـــى رأيتهم ببينونه السفلى وهبّت سوافـــــع[9]

---

[1] برمة : عرض من أعراض المدينة قرب " بلاكث " بين خيبر ووادي القرى ، وافلاق جمع فلق كسبب ، وهو المطمئن من الأرض بين ربوتين .

[2] بث الخبر : نشره ، ورصف الشيء كقتل : ضم بعضه إلى بعض ونظمه ورصعة بالرمح : طعنه طعناً شديداً غيب السنان .

[3] الربع : المنزل .

[4] رغت الناقة رغاء : صوتت فهي راغية والجمع الرواغي ، والقعاقع : تتابع أصوات الرعد في شدة ، جمع قعقعة ، والمراد هنا أصوات تقويض الاخبية وما إلى ذلك تأهباً للرحيل .

[5] الطمر :الثوب الخلق.كرع في الماء كمنع وسمع:تناوله بفيه من موضعه من غير ان يشرب بكفيه ولا بإناء

[6] يستشهد بهذا البيت على استعمال وادع بمعنى تارك .

[7] اذرت العين الدمع إذراء : صبته .

[8] بأربعة ، أي بأربع اعين وهي عيناه وعيناها . وانهلت العين : سالت بالدمع .

[9] البين : الفراق . وبينوته : موضع بين عمان و البحرين ، السوافع : لوافح السموم ، سفعته الشمس والسموم : لفحته لفحاً يسيراً فغيرت لون بشرته وسوّدته .

كأن فؤادي بين شقَّين مـــن عصا حذار وقوع البين والبين واقـــع
يحثُ بهم حادٍ سريعٌ نجــــاؤه ومُعرى عن الساقين والثوب واســع[1]
فقلت لها يا نُعم حُلي محلّنـــا فإن الهوى يا نُعم والعيش جـــامع
فقالت وعيناها تفيضان عبـــرةٌ بأهليَ بيّن لي متى أنت راجـــع؟
فقلت لها تالله يدري مسافـــر إذا أضمرته الأرض ما الله صانــعُ
فشدّت على فيها اللثام وأعـرضت وأمعن بالكحل السَّحيق المدامـــع[2]
وإني لعهد الودّ راعٍ، وإننـــي بوصلك ما لم يطوني الموت طامع

وفي مطلع قصيدة لعروة بن الورد نجده يبدؤها بذكر زوجته سلمى، حيث الذكريات الجميلة، والأيام الحلوة، التي يحرّكها رؤية البرق، فتجيش العاطفة وتعتصر الحسرة والنـدم قلبه على فراقها، والتفريط فيها فنجده يلوم نفسه تارة، ويتذكر حديثها تـــارة، متمنيـــاً لو عــادت تلك اللحظـــات الجميلـــة الـــسابقـــة، فينعـــم بوصـــلها، ويهنـــأ بقـــربهـــا يقـــول [3].

أرقتُ وصُحبتي، بمضيق عمقٍ لبرق، في تهامة، مستطيــــر[4]
إذا قلت استهل على قديـــد يحورُ ربابُهُ حور الكسيـــر[5]
تكشف عائذٍ بلقاء، تنقـــي ذكور الخيل عن ولدٍ شفـــور[6]
سقى سلمى، وأين ديار سلمى إذا حلت مجاورة السريـــر[7]
إذا حلَّت بأرضِ بني علـــيّ وأهلي بين زامرة وكيـــر[8]
ذكرت منازلاً مـــن أم وهب محل الحي أسفلَ ذي النقيـــر
وأحدث معهداً مـــن أم وهب معرسنا بدار بني النضيـــر[9]
وقالوا: ما شاء ؟ فقلت ألهـو إلى الأصباح، آثر ذي أثيـــر

---

(1) النجاء : السرعة في السير .
(2) أمعن الماء : سال وجرى .
(3) الديــوان : 62-64 .، ديوان الصعاليك : 75-77 .
(4) عمق : اسم بلدة بالمدينة ، مستطير : منتشر .
(5) قدير : مكان قريب من مكة، – استهل : صات ،– ربابة : سحابة – يحور : يرجع ، – الكسير : البطيء في المشي .
(6) العائد : الحديثة النتاج ،– شفور : الشفر هو رفع الرجلين .
(7) السرير : اسم مكان في بلد بني كنانة .
(8) بنو علي : قوم من بني كنانة – زامرة وكير : موضعان .
(9) أم وهب : كنية زوجته . – ذو النقير : اسم موضع لبني القين ولبني كلاب .

بآنسة الحديث، رضاب فيهـــا **بعيد النوم، كالعنب العصيــــــر**[1]
أطعت الآمرين بصرم سلمـــى **فطاروا في عضاه اليستعــــــور**[2]
سقوني النسء، ثم تكنفونـــي **عداة الله مـــــــن كذبٍ وزور**[3]
وقالوا : لست بعد فداء سلمـــى **بمغن، ما لديك، ولا فقيــــــــر**
ألا وأبيك،لو كاليوم أمـــــرى **ومن لك بالتدبُّر في الأمــــــور**
إذاً لملكت عصمــــة أم وهب **على ما كـــان من حسك الصدور**[4]
فيا للنـــاس كيف غلبت نفسي **على شيء، ويكرهـــــه ضميري**
ألا يا ليتني عاصيت طــلقـــاً **وجباراً، ومن لي من أميــــــر**[5]

وفي مطلع قصيدة أخرى يتحدث عن موضوع ليس ببعيد عن السابق حيث فارقتــه زوجته ليلى بنت شعواء فنجده يقــول :

تحنُّ إلى ليلى بحُرِّ بلادهـــــا **وأنت عليها بالملا كنت أقــــدار**[6]
يَحلُّ بوادٍ من كَراءٍ مُضِلِّــــةٍ **تُحاولُ ليلى أَنْ أَهابَ وأَحصـــــرا**[7]
وكيف تَرَجِّيها وقد حيــل دونها **وقد جاورت حياً بتَيْمَنَ مَنْكَـــــرا**[8]
تَبغَّانيَ الأَعْدءُ إما إلـــــى دمٍ **وإمَّا عُراضِ السعاديـــن مصَدَّراً**[9]
يَظَلُّ الأَباء ساقِطاً فوق متنــــه **له العَدْوَةُ الأولى، إذا القِرْنُ أَصْحَرا**[10]
كأنّ خوات الرَّعدِ رَزْءُ زئيـــره **من اللاَّء يَسْكُنَّ العَرِيْنَ بعثَّـــــرا**[11]
إذا نَحْنُ أَبْرَدنا وردت ركابنــــا **وعن لنا من أمرنا ما تيســــــــرا**[12]

---

(1) الآنسة : التي لا تنفر – رضاب فيها : ريق فمها .
(2) اليستعور : اسم موضع .
(3) النسء : المُسْكر .
(4) الحسك :الخشونة والغل والعداوة .
(5) طلق وجبار : أخوة وابن عمة .
(6) بحرّ بلادها : بين قومها ، – الملا : الأرض الواسعة (في الصدرين السابقين سلمى بدل ليلى) وفي الأغاني ليلى وهو الأصوب . وأشار ديوان الصعاليك إلى الروايتين بليلى وسلمى في الحاشية .
(7) كَراء : أرض تكثر فيها الأسود . – أحصرا : أصيف عن ذلك ، أعجزه .
(8) تيمن : أرض قريبة من جرش ، وقيل في بلاد اليمن ، – منكر : غير معروف .
(9) عُراض الساعدين : يراد به الأسد .
(10) الأباء : القصب ، أي أن هذا الأسد يسكن الغياض ، ويتساقط القصب على متنة .
(11) خوات الرعد : شبه صوت زئير الأسد بصوت الرعد ،– الخوات : صوت الرعد . – بعثرا : مكان مأسَدة .
(12) ردت ركابنا : ردت ما شيتنا من الرعي ، – عنّ لنا : عرض لنا .

بدالك منـي، عند ذاك صر يمتي **وصبري، إذا ما الشيئ ولى فأدبرا**[1]

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها **لجارتها ما إن يعيش بأحـــــورا**[2]

لعلك يوماً أن تسري ندامــــــة **علي بما جشمتني يوم غضــــورا**[3]

فغربت إن لم تخبــريهم فلا أرى **لي اليوم أدنى منك علماً وأخبــرا**[4]

قعيدك ، عمر الله، هــل تعلمينني **كريماً إذا اسود الأنامل أزهـــــرا**[5]

صبوراً على رزء الموالي وحافظاً **لعرضي، حتى يؤكل النبت أخضرا**[6]

أقب ومخماص الشتاء مـــــرزأ **إذا اغبر أولاد الأذلة أسفـــــرا**[7]

ويشكو القتال الكلابي في مطلع قصيدة له من هجر محبوبته، وصدها له، لأنه كبير في السن وتفضيلها للشباب الصغار، مذكراً إياها بفعاله وبفروسيته وبطولته، التي لا يقــوى عليها مثل هؤلاء الصغار يقــول [8].

صرمت شُمَيلةُ وِجْهَةً فتجلــدِ **من ذا يقولُ لها علينـــا تَقْصدِ**[9]

أشميل ما أدراك إن عاصيتني **أن الرَّشاد يكونُ خَلْفك مــن غد**

يا ظبية عَطَفَتْ لآدم شـــادنٍ **هلاّ أويت لقلب شيخٍ مقصـــدِ**[10]

فإن أراد الوصل لا تصلينـــهُ **ووصلت أصحاب الشباب الأغيد**[11]

وتَطَرَّبت حاجات ذبِ فاضـــلٍ **أهواء حبٍّ في أُناسٍ مُصعـدِ** [12]

حضروا ظلال الأثلِ فوق صعائدٍ **وَرقوا فراخ حَمامه المتغــــرِّدِ**

أشُميل ما يدريك أن رُبَّ ماجــنٍ **طامٍ عيالمُهُ مخوفِ المَـــرْصدِ**[13]

---

(1) صريمتي : أي مضائي وعزيمتي في الأمور .

(2) بأحورا : هو في هذا الموضع العقل ن يقال للرجل : ما إن يعيش بأحور ، أي ذهب عقله .

(3) تسري : تظهر ، عضور : ماء لطئ ، – جشمتني : حملتني .

(4) فَغُرِّبْت : يدعو عليها بالبعد حتى تصير غريبة .

(5) مَعيدك : قسم يعني به : اذكرك – عمُر الله : بقاء الله .

(6) رزء الموالي : أي منالهم مني .

(7) ديـــوان الصعاليك : 53 – 54 .

(8) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك ، ص 646 .

(9) صرمت : هجرت ، تَجلَّد : تصبر وتحمّل .

(10) عطفت : مالت ، لشادن : ولد الظبية الذي استغنى عن أمه . – شيخ مقصد : يقصد نفسه .

(11) الإغيدِ : الناعم لين الأعطاف .

(12) ذب : نقول ذبَّ ذبَّاً : أي دفع عنه ومنع وحامى ، الذَّبَّاب " الدفاع عن أهله وقومه .

(13) الماجن : هو المازح قليل الحياء، وقد تأتي بمعنى : الصلب الغليظ .

جاهرته بزمام ذات بُرايــــــــةٍ وَحدي سِوى أُجدٍ وَسَيفٍ مُفــرَدِ[1]

ويشكو يعلى الأحوال* من وشاية الوشاة، ويتحدث عن شدة حبه وتعلقه بمحبوبتــه، وأرقه عند رؤية البرق اليمانــــــي، الذي حرّك شجونه، وأثار أحزانه وأشــواقه، فأنــشد يقــول [2].

أرقت لبرق دونه شـــــــدوان يمان وأهوى البرق كل يمـــــان

فبت لدى البيت الحرام أخيلــــه ومطواي من شوق له أرقـــــان

إذا قلت شيماه يقولان والهــــوى يصادفه منا بعض ما يريـــــان

جرى منه أَطْراف الشرَّى فمشيَّــعٍ فأبيان فالحيان من ذمــــــــران

هنالك لو طَوَّفتما لوجَدْ تُمـــــــا صديقاً من اخوانٍ بها وغَـــوانِ

وعزف الحمامُ الورْق في ظلِّ أَيْكةٍ وبالحيِّ ذو الرودين عزف قيانِ[3]

أويحكما يا واسيي أمَّ معمـــــــرٍ بمن وإلى من جئتما تشيـــــانِ

بمن لو أراهُ عانياً لفديتُـــــــــه ومن لو رآني عانياً لفدانـــــي[4]

ومن الشعراء الصعاليك الإسلاميين جحدر العكلي الذي يتحدث عن الهموم التـــي لا تفارقه، ثم نراه يتحدث كغيره من الشعراء عن البرق الذي يهواه، والذي يذكره بمن يحــب، ويأخذ منه اليأس ومأخذه، فيكتفي بأن ينظر إلى البدر الذي تنظــر إليــه محبوبتــه، فهمــا مجتمعان على تفرقهما، أليس الليل يجمعهما بظلمته، والنهار يشملهما بضوئه، ويبلغ الأمــر ذروته حين يصل الأمر إلى الموت المحقق، إذا ما بعدت المحبوبه، يقــول [5].

تأوبني فبتُّ لها كنيعــــــــاً همومٌ لا تفارقني حــــــوانِ[6]

هي العوادُ لا عوادُ قومــــــي أطلنَ عيادتي في ذا المكــــانِ

إذا ما قلت قد أجلين عنــــي ثنى ريعانهنَّ علــــــــيَّ ثانِ

---

(1) أُجُد : الأُجُد الناقة القوية .

* يعلى الأحوال بن مسلم، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية،وكان لصاً فاتكأ خرباً، وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزد وخلعاءهم فيغير بهم على أحياء العرب، ويقطع الطريق على السابلة، فشُكِيَ إلى نافع بن علقمة بن الحرث الكناني، فطلبه وأمسك به وقيده وأودعه السجن .

(2) الأغاني ،جزء 19 : 111–112 . (دار الفكر) .

(3) الوُرق : جمع ورقاء ، وهي الحمامة التي يميل لونها إلى الرّماد . – الأيكة " الشجر الملتّف الكثيف – القيان جمع قينة، وهي المغنية

(4) عانياً : أسيراً .

(5) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك . : 633 634 .

(6) تأوبني : التأوب هو الزيارة ليلاً .

فإنَ مقرَّ منزلهنَّ قلبــــــي   فإن ألفتهُ فالقلـــــبُ آن[1]
إليس الله يعلمُ أن قلبــــــي   يحبلك أيها البرق اليمـــــاني
وأهوى أن أعيد إليك طــرفي   على عداواءَ من شغُلٍ وشــان[2]
نظرت وناقتاي على تعـــادٍ   مطاوعتا الأزمة تـــــرحلان
إلى ناريهما وهما قـــريبٌ   تشوقان المحبَّ وتوقـــــدان
وهيجني بلحن أعجمـــــيٍ   على غصنين من غرب وبـــان
فكان البان أن بانت سليمـــى   وفي الغرب اغتراب غيـــر دان
أليس الليلُ يجمع أم عمـــرو   وإيانا فذاك بنـــــا تدان
بلى ونرى الهلال كما تـــراه   ويعلوها النهار كمـــا علاني
فما بين التفرق غيرُ سبــــعٍ   بقين من المحرّم أو ثمـــانِ
فيا أخويَّ من جشم بن سعـــدٍ   أقلا اللوم إن لم تنفعانـــــي
إذا جاوزتما سعفات هجـــرٍ   وأودية اليمامة فانعيـــــاني
إلى قومٍ إذا سمعــــوا بنعيي   بكى شبانهم وبكى الغــــواني

ويشكو عبيد بن أيوب العنبري من بعد المحبوبة، واستحالة الصلة لكثـرة الموانـع فيجهش الشاعر بالبكاء، حيث يغدو الحب ألماً ممضاً، وبكاءاً عاليا، وحرقة تعتصر القلـب، وتورثه سقماً قلما يفارقه، يقـول [3]:

جرى ظبيٌ ببينِ الحــيِّ فَرْدَاً   ..... وفاتحه خطـــــوف
وقلت لصاحبي والقلب يهفـو   أتزجر ذي السوانح أم تعيفُ[4]
فقال نعم جَرَيْنَ ببين سلمـى   وبعض البين منتعفٌ شطوف[5]
كأن دموع عيني يوم بانـوا   جمانٌ خَانـــهُ رَسنٌ ضعيفُ
كأنَّ حمولهُم يوم استقلـــوا   وعام السَّرحُ وانشمر القطُوفُ[6]
ذري عنبٍ سقته العين حتّى   له في كلِّ هاجـــرةٍ رفيف[7]

---

(1) آن : الآن هو الرفق والدعة والسكينة .

(2) عدواء : عداوء الشغل موالفة .

(3) شعر عبيد بن أيوب العنبري ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(4) السوانح : مفردها سانح ، وهو الذي يأتي من جهة اليمين ، – تعيف : تتركها .

(5) شطـــوف : بعيـــد .

(6) السَّرح : الماشية ، – انشمر : مرّ مسرعاً ،– القطُوف " من الدواب التي تسير السير وتبطئ .

(7) الرفيف : الاهتزاز نضارة .

فلما أن بدت أظعان سلمـــى ودون كلامهم حَنَقٌ أنــــوافُ[1]
وَجَدْتُ هشاشةً ووجدتَّ خوفاً ووقَّرني يمانيةٌ هتــــــوفُ

ولتوبة بن الحُمَيِّر * قصائد كثيرة يبدؤها بغزل رقيق، مفعم بالحب، الخالص المتدفق الدائم الذي يرى توبة أنه لن ينتهي حتى بالموت، يقول في مطلع قصيدة له [2].

ألا هل فؤادي عن صِبا اليوم صافحُ وهل ما وأت ليلى به لكَ نـــــاجحُ[3]
وهل في غدٍ، إن كان في اليومِ علَّةٌ سراحٌ لما تلوى النُفوس الشحــائحُ[4]
سقتني بشرب المستضاف فصرَّدت كما صرد اللوح النطاف الضحاضحُ[5]
ولو أن ليلـــى الأخيليـــــة سلَّمت عَليَّ، ودوني تُرْبَةٌ وصفـــــائـــحُ[6]
لسلَّمْتُ تَسْليمَ البشاشَةِ أو زقـــــا إليها صَدىً من جانِبِ القَبْرِ صائـــحُ[7]
ولو أرسلت وحياً إلى عرفتـــــه مع الريح في موماتهـــا إذ تنـــاوح[8]
ولو أن ليلى في السماء لأصعــدت بطرْ في إلى ليلى العيون الطوامـــح[9]
وأغبط من ليلى بما ليس نافعــــي بلى، كل ما قرت به العين صـــــالحُ[10]

فهل تبكني ليلى إذا مت قبلهــــــا وقامت على قبري النساء النــــوائحُ
كما لو أصاب الموتُ ليلى بكيتهـــا وجادَ لها جارٍ من الدَّمع ســـــافحُ

---

(1) الحُنقْ : شديد الغيظ ،- الأنوف : عزيز النفس .

* هو توبة بن الحمير بن حزم، من بني ربيعة ابن عامر بن صعصعة، يكنى أبا حرب، وهو صاحب ليلى الأخيلية ، كان فارساً مغواراً بعيد الغارات ، قتل ثور بن أبي سمعان ، فقتله بنو عوف بن عامر به .

(2) المنتخب من أشعار العرب ، : 286-288 .

(3) صافح : معرض ،- وأى : وعد ، والمصدر وأْى .

(4) لواه دَيْنَه : مطلة ، الشحائح : جمع شحيحة ، كصحيفة وصحائف .

(5) المستضاف : الملجأ المحرج المثقل بالشر ،- صرّدت : أعطت قليلاً من الشراب ، وصرد شربة أيضاً قطعة .- اللوح : العطش .- النطاف : الماء ،- الضحضح والضحضاح : الماء القليل يكون في الغدير .

(6) الصفائح : حجارة عريضة ، يعني القبر .

(7) زقا : صاح ،- الصدى : كانوا يزعمون أن عظام الموتى تصير هاماً وأصداء .

(8) الوحي : الإشارة والكلام الخفي ،- الموماة : الفلاة لا ما ء بها ،- تناوح : تناوحت الرياح : هبت من جهات مختلفة .

(9) الطوامح : نقو ل طمح بصري إليه، أي علا وامتد .

(10) يقول : أنا محسود منذ عرفت بليلى ، وإن لم أنل منها ما أطلب ، ولكنني قرير العين بأن أذكر بها .

ويقول في قصيدة أخرى، متحدثاً عن نأي ليلى، وبعد دارها فيقول [1].

نأتك بليلى دارها لا تزورهـــا ... وشطت نواها واستمر مريرهــــــا
وخفت نواها من جنوب عفيرةٍ ... كما خفَّ من نيل المرامي حفيرهــا
يقول رجال لا يضيرك نأيهـــــا ... بلى كل ما شف النفوس يضيرهــــا
أليس يضير العين أن تكثر البكا ... ويمنع منها نومها وسرورهــــــــا
لكل لقاءٍ نلتقيه بشاشـــــــــة ... وإن كان حولاً كل يوم نزورهـــــا
وإني ليشفيني من الشوق أن أُرى ... على الشرف النائي المخوف أزورها
وأن أترك العنس الحسيرَ بأرضها ... يطيف بها عقبانها ونسورهــــــــا
حمامة بطن الواديين تـــــــرنمي ... سقاك من الغرِّ الغوادي مطيرُهــــــا
أبيني لنا لا زال ريشك ناعمـــــاً ... ولا زلت في خضراء دان بريرُهــــا
وقد تذهبُ الحاجات يسترها الفتى ... فتخفى وتهوى النفس ما لا يضيرُها
وكنت إذا ما زرت ليلـــى تبرقعت ... فقد رابني منها الغداة سفورُهــــا
وقد رابني منها صدودٌ رأيتـــــهُ ... وإعراضها عن حاجتي وبسورهــــا

(3) الحوار بيـــن الشاعـــر والمحبوبـــة :

إذا كانت قصائد الصعاليك لا تبدأ بالوقوف على الأطلال صـــراحة، مـــع ذكرهـــا ووصفها، في جو نفسي مفعم بالحزن والأسى، بعد أن هيَّج الموقف ذكرياته مع أحبائه، وإذا لم تبدأ بالغزل والتشبيب بالمحبوبة، دون ذكر لأطلالها أو الوقوف عليها مع ذكرٍ دائم لـــصد المحبوبة، وبعدها، ووصف ما يعانيه الشاعر من هذا، فإن شعرهم يبدأ غالباً بحوار هـــادئٍ بين الشاعر وصاحبته، التي غالباً ما تكون زوجته، حوار نجـــده مفعمـــاً بـــالود والمحبـــة والاحترام الذي يكنّه الشاعر لزوجته ورفيقة دربه، التي أحبها وأجلّها، وعرف لهـــا قـــدرها وهذه أمثلة على مقدمات هذا القسم من الشعر .

يطلب عروة من زوجته أن تتركه وشأنه، ولا تكثر من لومه وتعنيفه على منهجـــه الذي خطه لنفسه، فيقـــول[2]:

أقلي عليّ اللـــوم يا بنت منذر ... ونامي وإن لم تشتمي النوم فاسهري

---

(1) منتهى الطلب من أشعار العرب : 80-81 .

(2) ديـــــوان عــــــروة : 67 .

ذريني ونفسي، أم حسان إنني　　　بها، قبل أن لا أملك البيع مشتـــري
أحاديث تبقى والفتى غير خالدٍ　　　إذا هو أمسى هامةً فـــــوق صيَّر

ويقـــــول [1].

دعيني للغنى أسعى فإنـــي　　　رأيت الناس شـــرُّهُم الفقيــر
وأبعدُهم وأهونُهم عليهـــــم　　　وإن أمسى له حسب وخيــرُ

ويقــول [2].

دعيني أُطوِّف في البلادِ لعلّني　　　أُفيد غنى، فيه لذي الحق محملُ

ويطلب قيس بن الحدادية من صاحبته أن تكف عن عذله، وتنتظـــر عـــسى الله أن يجمع بينهما يقـــول [3].

لا تعذليني سلمى اليوم وانتظري　　　أن يجمع الله شملاً طالما افترقا
إن شتَّت الدهر شملاً بين جيرتكم　　　فطال في نعمةٍ يا سَلم ما اتَّفقا

ويطلب الشنفرى من زوجته أن تتركه ونفسه، فالموت لا مفرّ منه، فلم الخوف[4].

دعيني وقُولي بَعْدُ ما شئت إنني　　　سَيُغْدَى بنعشي مـــــــرَّةً فأُغَيَّبُ

إذا كانت الأمثلة السابقة تبدأ بألفاظ يغلب عليها صيغة الأمـــر، لأن الـــشاعر فـــي معرض الطلب . فإن بعض القصائد والمقطوعات الشعرية تبدأ بحديث الزوجة إلى زوجها، مثل قول عـــروة [5].

تقول ألا أقصر من الغزو واشتكى　　　لها القولُ طرفٌ أحورُ العين دامعُ

ويقول في مطلع أبيات أخرى ذاكراً لوم زوجته له على مخاطرته، وتخويفـــه مـــن أعدائـــــه [6]:

أرى أم حسان الغداة تلومنـــي　　　تخوفني الأعداءَ والنفس أخوف
تقول سليمى : لو أقمتَ لسرَّنا　　　ولم تدرِ أنِّي للمقام أطـــــوف
لعلّ الذي خوفتنا من أمامنـــا　　　يصادفه في أهله المتخلـــــف

ويقول تأبط شـــــراً [7]:

---

(1) ديـــــوان عـــروة : 79
(2) السابق : 97 .
(3) الأغـــاني جزء 14 : 143 .
(4) ديـــوان الصعاليك : 11 .
(5) ديـــوان عـــروة : 82 .
(6) الديـــوان : 87 .
(7) ديـــوان الصعاليك : 173 .

ألا تلكما عرسي منيعة صُمَّتَتْ **من الله إثماً مستسرّاً وعالنـــــا[8]**
تقول تركت صاحباً لك ضائعاً **وجئت إلينا فارقــاً متباطنــــا[1]**

ويقول أيضـــــــاً [2]:

تقول سُليمى لجاراتهـــــــــا **أرى ثابتاً يَفَنَاً حـــــــــوقلا[3]**
لها الويل مـــــا وَجَدَتْ ثابتاً **أَلَفَّ اليديـــــــن ولا زُمَّلا[4]**

ويقول أيضـــــاً [5]:

ألا عَجب الفتيان من أُمّ مالك **تقولُ أراك اليوم أشعث أغبــرا[6]**
تبوعاً لآثار السرية بعدمـــا **رأيتك براق المفارق أيســـرا[7]**

ويقول عـــروة [8]:

قالت تماضر إذ رأت ما لي خوى **وجفا الأقاربُ، فالفؤادُ قــريحُ[9]**
مالي رأيتك في النَّدِيِّ منكســـاً **وَصِباً، كأنك في النــدي نطيحُ[10]**

ويقول سعد بن ناشب [11]:

تفندني فيما ترى من شراستي **وشدَّة نفسي أُمُّ سَعدٍ وما تدري[12]**
فقلت لهـا أن الكريم وإن حلا **ليُلْفَى على حالٍ أمَرَّ مـــن الصَّبْرِ**
إن تعذلينـــي تعذلي بي مُرَزَّأً **كريم نثا الإعسار مشترك اليسرِ[13]**

ويقول عمرو بن برّاقة [14]:

---

[8] عرسي : زوجتي ،– عالناً : ظاهراً .
[1] فارقاً : وحيداً من دون رفيق ،– متباطن : متستّر .
[2] ديـــوان الصعاليك : 156 .
[3] اليَفَنَ : الهَرِم،– حوقلاً : ضعيفاً .
[4] ألفّ اليدين : قويهما ،– الزُمّل : الضعيف الجبان .
[5] ديـــوان الصعاليك : 131 .
[6] أشعث : متلبد الشعر .
[7] السريَّة : الجماعة من المقاتلين ،– برّاق المفارق : مشرق الجبين ،– أيسر : سهل المخالقة .
[8] ديـــوان عـــروة : 54 .
[9] خـــوى : فـــرغ .
[10] الوصب : المريض ،– النطيح ، من نطحه الثور بقرنه : أصابه به ،– ونطع فلان : دفعه عنه وأزاله .
[11] الأصمعيات : 270–271 .
[12] تفندني : أي تجهلني،– الشراسة : سوء الخلق .
[13] العذل : اللوم والتعنيف .
[14] منتهى الطلب : 843

تقول سليمى لا تعرَّض لتلفةٍ **وليلكَ عن ليل الصَّعاليك نائم**

ألم تعلمي أنَّ الصَّعاليك نومُهمْ قليلٌ إذا نام الخَلِيُّ المسالمُ

والأمثلة على حوار الصعلوك مع صاحبته كثيرة، منتشرة في شعرهم ومقطوعاتهم، وسآتي إليه بالتفصيل في الفصل الثاني، حين أتكلم عن الزوجة في شعر الصعاليك .

وبعد فإن الذي يتتبع شعر الصعاليك سواء كانوا جاهليين أم مخضرمين، أم أمويين، يصل إلى قناعة لا يخالطها شك، بأن هؤلاء الشعراء، كان لهم مقدمات طليلة، ونسيب وغزل، افتتحوا قصائدهم بها، كغيرهم من الشعراء في عصرهم، فوقفوا على الأطلال ووصفوها كما وصفها غيرهم، وبكوا واشتكوا، وتذكروا الأحبة وحنوا إلى تلك الذكريات، وعانوا من الهجر، وبعد من يحبون، فسهروا وراقبوا النجوم وكل ذلك في شعر جيد الوصف، ودقيق المعاني، وعميق الإحساس .

كذلك نجدهم يبدأون بالنسيب والتشبيب بالمحبوبة، مباشرة ذلك إن لم يذكروا الأطلال صراحة، وقد ذكرت من الأدلة على القسمين بما يوضح الفكرة، ويفي بالغرض .

إذاً كان للصعاليك مقدمات غزلية وطليلة، وهذا الأمر واضحٌ وضوحاً راسخاً في شعرهم، بما لا يدع مجالاً لإنكاره، أو تجاهله، أما الذين قالوا بعدم وجود مقدمات غزلية للصعاليك، فربما يكونون بنوا رأيهم على أحد سببين، أولهما، أنهم اعتبروا الصعاليك عروة والشنفري وتأبط شراً والسليك، وعمرو بن براقة، رغم أن في شعر هؤلاء كثير من المقدمات الغزلية كما ذكرت . وإما أنهم لم يطلعوا على شعر هؤلاء، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عنها ودراستها، فأطلقوا هذا الرأي جزافاً، بناء على انطباع شخصي أن هؤلاء الشعراء لم يكن لديهم وقت للغزل والحب، ولقاء الأحبة، ففي حياتهم من الأهوال والأمور الجسام، ما يصرفهم عن هذا كله .

وهذا الأمر غير صحيح، فالذي يتتبع شعر قيس بن الحدادية، ومالك بن حريم، وعروة بن الورد، وعبدة بن الطبيب، وتوبة بن الحمير، وغيرهم من الشعراء يجد فيه من الغزل اللطيف العذب، ما يجعله يغير فكرته، ويرجع عن رأيه، ويصل إلى قناعة على أن هؤلاء كان لديهم بعض الوقت، يحيون فيه حياه العشاق، المحبين، بما فيها من شوق وحب، للمحبوب، وألم وحسرة على فراقه، وبكاء على ذكرياته، وكل هذا واضح في شعرهم، الذي سبق ذكرهُ، وقد يتضح الأمر أكثر بعد استكمال موضوعات هذا الفصل .

ثانياً : الحـــب وآثـــــــاره

نالت المرأة المحبوبة نصيباً وافراً من شعر العرب في الجاهلية والإسلام، بـــل لقـــد استحوذت على النصيب الأكبر منه، ففاقت الأم والأخت والزوجة فالشعراء توجهـــوا إليهـــا بشعرهم ووقفوا عليها مقدمات قصائدهم، بكل ما تحمل كلماتهم من معاني الحب والوفـــاء، والشوق واللهفة، " لهذا كان ما وقفه الشاعر الجاهلي على الحبيبة أكثرمما وقفة علـــى مـــن سواها من النساء، وأكثر مما وقفه عليها من الشعراء الذين عاصروه من الأمـــم الأخـــرى، توجه إليها الشاعر العربي بغزله ونسيبه، وتعرض لوصفها مباشرة كما تعرض لها بأسلوب غير مباشر "[1] .

" وكان غاية أمنية الشاعر المحب أن يسمعها نشيده، وأكبرهم الواحد منهم أن ينـــال رضاها أما غير الحبيبة من النساء فلم يثرن في الرجال ما أثارته هي " [2] .

والشعراء الصعاليك كغيرهم من شعراء عصرهم شغلتهم المرأة، فأحبوها، واكتـــووا بنار حبها، وألم فراقها، فبكوا ديارها، وبعد مزارها، وشغلتهم بجمالها، فوصـــفوها وصـــفاً جميلاً، ينم عن أذواقهم ، وما لفت انتباههم، رغم نظام حياتهم الذي يختلف عن غيرهم، فلم تشغلهم خشونة العيش، وبعد المنازل، وكثرة الكرّ والفرّ، وطول الحـــروب، وشـــدة الفقـــر وشظف العيش، وسوء الحال، وكل ذلك لم يشغلهم عن الجانب الإنـــساني فـــيهم، فنجـــدهم يطلقون العنان لمشاعرهم، وأحاسيسهم، فيأخذ الحب منهم مأخـــذه، فيطفـــوا ذلـــك الجانـــب الإنساني وتلك المشاعر الفياضة، التي تدل على صدق العاطفة، وصفاء الـــسريرة، وعفـــة النفس وعمق الإحســـــاس .

(1) هجرة المحبوبة وبعدهـــا :

قد يبلغ تأثير الحب في المحبين ذروته، حين تبعد المحبوبة، ويصعب لقاؤها الأمـــر الـــذي يوّرث الشاعر ألما وحزناً ولوعة، مما يجعله يصرخ متألماً باكياً شاكياً من الأرق والهمـــوم التي لا تفارقه، بعد أن أخذ الشوق مأخذه يقول صخرالغي الهذلي، مصوراً فزعة وذعـــره، وشدّة حزنه وذلك لتذكره محبوبته التي بعدت عنه وعزّ مزارهـــا [3] :

---

[1] المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 88 .

[2] الســـابـــق : 89 .

[3] الأغـــانـــي ، جزء 22 : 379 .

إني بدهماء وعزّ ما أجدُ — عــاودني من حِبَابُها زُؤُدُ[1]
عاودني حُبُّها وقد شحطت — صرف نواهـــا فإنني كمدُ[2]

ويذكر عبدة بن الطبيب خولة وهجرها له، متسائلاً هل بعد هذا الفراق والبعد مــن لقاء أم أن قلبه المرتهن عندها لا فكاك له ؟ يقـــول [3] :

هل حبل خولة بعد الهجر موصولُ — أم أنت عنها بعيد الــدارِ مشغــولُ
حلت خويلة في دارٍ مجــــاورةً — أهل المدائن فيها الديــك والفيــلُ
فخامر القلب من ترجيح ذكرتهــا — رسٌّ لطيفٌ ورهنٌ منك مــــكبولُ

وقد يكون البين أحياناً خصاماً بين الحب وعشيرة المحبوبة، أي بين العشيرتين فيمنع الفريقان عندئذٍ عن المحاورة، بكل ما في هذه الكلمة من حياة البدوي من معنى ولكن ألم تكن المحبوبة ذاتها في الأصل الجارة [4] ؟ يقول الشنفــري [5] :

ألا أم عمرو أجمعت فــاستقلَّتِ — وما ودعت جيرانهـــا إذ تولَّتِ[6]
وقد سبقتنا أم عمرٍ بأمرهــــــا — وكانت بأعناقِ المطــــي أظلت[7]
بعيني ما أمست فباتت فأصبحت — فقضّت أموراً فاستقلت فــــولَّت[8]
فواكبدا على أميمة بعدمـــــــا — طمحت فهبها نعمـــة العيش زلَّتِ[9]

وقد يكون البعد والهجر مدعاة للصبر والتجلد كما يقول القتال الكلابي [10] :

صرمت شميلةُ وجهــــــةً فتجلّدِ — من ذا يقــــول لها علينا تقصدِ

ويشكو توبة بن الحمير من بعد دار ليلى فيقــول [11] :

نأتك بليلى دارها لا تزورها — وشطت نواها واستمّر مريرهـــا
وخفت نواها من جنوب عَفيرةٍ — كما خفَّ من نيلِ المرامي حفيرها

---

[1] عزّ ما أجد : أي شدَّ ما أجد ،– حِبَا بها : حبها وهو واحد ليس بجمع .– الزُّؤُد : الفزَع والذُعْر .

[2] صرف نواها : الوجه الذي تصرف إليه قصدها إذا نأت ،– الكمد : شدَّة الحزن .

[3] المفضليات : 135 .

[4] انظر الغزل عند العرب : ج . ك . فادية ، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني : 51–52 .

[5] المفضليات : 108 .

[6] أجمعت : عزمت أمرها ،– استقلَّت : ارتحلت .

[7] سبقتنا بأمرها : استبدت واستأثرت به ،– وكانت .... : أي فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها .

[8] بعيني : يأسف أن يرى رحيلها ولا حيلة له .

[9] زلت : ذهبت ،من قولهم زلّ عمره : ذهب .

[10] منتهى الطلب : 646 .

[11] الســـــابــق : 80 .

وتهيج أشواق جحدر العلكي، وتتحرك شجونه، بروية حمامتين تبكينان على شجرة، فيتذكر سليمى التي بعدت عنه وبانت، حيث لا سبيل لرؤيتها [1]:

وقِدْمَاً هاجني فازددتُ شوقاً ... بكاءُ حمامتين تجاوبـــان

تجاوبتـــا بلحنٍ أعجمـــيٍ ... على عودين من غرب وبـــان

فكان البان أن بانت سليمى ... وفي الغرب اغتـــراب غير دان

(2) الأرق :

إن بعد المحبوبة، وعدم رؤيتها، والتنعم بقربها، والهناء بوصلها قد أورث المحبـــين أرقاً وسهراً لا يغادرهم، ولذلك نجد الشعراء الصعاليك يكثرون من الحديث عن الأرق وقلة النوم، يصور تأبط شراً في مطلع مفضليته، ما يعانيه من الأرق، وطول الليل، وشدة الشوق، متحدثاً عن خيال محبوبته الذي يطرقه ليلاً، فيقــول[2]:

ياعيدُ مالك من شوقٍ وإيـــــراقِ ... ومن خيـــــالٍ على الأهوالِ طرَّاقِ

طيف ابنة الحرِّ إذ كنا نجاورهـــا ... ثم افتتنت بهـــــــا بعــد التفرَّاق

يسري على الأين والحيات محتفياً ... نفسي فِداؤكَ من ســـــار على ساق

تاالله آمن أُنثى بعدمـــــــا حَلَفتْ ... أسماء بالله من عهدٍ وميثـــــــــاق

ممزوجة الوُدِّ بينا واصلت صَرَمَتَ ... الأوَّلُ اللَّذ مضى، والآخر الباقـــــي

ويأرق عروة لرؤية البرق . الذي ذكره بمحبوبته التي أحبها واشتاق إليها، وندم على فراقها، المحبوبة التي كانت يوماً من الأيام زوجة ينعم بقربها، إلى أن أُكره على مفاداتهـــا وتخييرها، فاختارت أهلها، فظل نادماً على فراقها، يذكرها في كل مناسبة، يقــول[3]:

أرقتُ وصُحبتي، بمضيق عمقٍ ... لبرق، في تهامة، مستطيـــر

إذا قلت استهل على قديــــــد ... يحورُ ربابُهُ حور الكسيـــــر

تكشف عائذٍ بلقاء، تنفـــــــي ... ذكور الخيل عن ولدٍ شفــور

سقى سلمى، وأين ديار سلمـــى ... إذا حلت مجاورة السريـــــرِ

ولا يجد عبدة بن الطبيب سوى خيال هند الذي يطرقه ليلاً، فيذهب نومـــه ويـــسهر ليله، وذلك بعد أن ييأس من وصلها، وهذا أمر شائع عند الصعاليك، وهو ذكر الخيال الذي يطرق ليلاً، ولعل هذا أمرٌ نفسيٌ يجعل الصعلوك يحيا مع خياله وذكرياته، بعد أن

---

[1] العقد الفريد ، جزء 6 : 224–255 .

[2] المنتخب في محاسن أشعار العرب : 282–283 .

[3] الديوان : 62–63 .

صعب عليه لقاء من يحب، وذلك لأسباب كثيرة لا تخفى على أحد . يقول عبدة بن الطبيب [1] :

تأوَّب من هند خيـــالٌ مؤرقُ إذا استيأست من ذكرها النفس يطرق[2]
وأكوارُنا بالجوِّ جَوِّ جُـــواذةٍ بحيث يصيدُ الآبدات العسلَّــــــقُ[3]
وحلّت مُبيناً أو رمادان دونهـــا إكامٌ وقيعانٌ من السرِّ سعلــــــقُ[4]
شآمية تجري الجنوب بقرضها مِراراً فواقٍ كَيْلُها ومُحلَّـــــــقُ

ويبيت تأبط شراً يراقب النجوم، بعد أن أذهب خيال سعاد نومه، وأقض مــضجعه، وكيف لا يسهر هؤلاء، والذي يؤرقهم طيف الأحبة، الذي يمر بخاطر أحدهم مرور الــصبا في ساعات المساء، فيلامس قلوباً صادقة مخلصة، أحبت حباً فطرياً خالصاً ولم تنعم بهــذا الوصل وهذا الحب؛ بسبب كثرة الترحال، وبعد المحبوبة، وشدَّة الطلب وقساوة الحياة، وهذا كله يجعل هؤلاء الشعراء يعانون من الحرمان والهجر والصد أكبر المعاناة، وتشتد المعانـــاة ليلاً، حين ينفرد الإنسان وحيداً، فيصبح الليل طويلاً ثقيلاً، يضيق به الشاعر ذرعاً، يقــول تأبط شــراً [5] :

لقد قال الخليُّ وقال حُلْســـاً بظهــر الليل شُدَّ به العُكومُ[6]
لطيفٍ من سعادَ عناك منهـــا مـــراعاةُ النجومِ ومن يَهيمُ

ويشتد الأرق بجحدر العكلي، حتى كأن في عينيه شيء من العوار، أو أصابها شيء من الفلفل، فنجده يصرّح بهذا في مطلع قصيدة له حيث يقــول [7] :

إني أرقت لبرق ضافني ساري كـــأن في العين منه مس عوارِ
أوحرّ فلفلة كانت بهـــا قذيت لما يرى قشرها عن حرَّها الباري

ويأرق يعلى الأحول أيضاً لرؤية البرق فنجده يقــول [8] :

---

[1] انظر شعره في موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .
[2] التأوّب : الورود ،– خيال مؤرَّق : مُسْهِرْ .
[3] الأكوار : قد تعني الجماعة من الناس ، وقد تعني الأرض يكون بها المساكن ،– والآبدات : جمع آبده وهي الوحوش
[4] الأكام ، والآكام والأُكُم : جمع الجمع ومفردها : أَكَم وأَكمات والتي مفردها : أَكمة وهي التل أو الموضع الذي يكون أكثر ارتفاعاً مما حوله ،– القيعان : جمع قاع وهي الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .
[5] الأغـــانـــي ، جزء 21 : 175 .ديـــوان الصعاليك : 167 .
[6] قال حلساً : قال كلاماً جاداً ،– العكوم : جمع عكم : ما يشد به فم البعير .
[7] منتهى الطلب : 635 .
[8] الأغاني جزء 19 : 111 (دار الفكر) .

أرقت لبرقٍ دونـــــــه شدوان يمانٍ وأهوى البرق كل يمـــانِ

فبت لدى البيت الحـــرام أخيله ومطواي من شوقٍ له أرقـــانِ

إذا قلت شيماهُ يقولان والهـــوى يصادف منا بعض ما يريـــان

لقد مثل الأرق ظاهرة في شعر الصعاليك، حيث كثر ذكره في شعرهم، وهذا أمـــر غير مُسْتغرَبْ ولا مستهجن، بل قد يكون أمراً طبيعياً عند المحبين المتيمين ، وهـــو عنـــد الصعاليك أكثر، نظراً لظروف عيشهم، وقلة نومهم، ولكن الأمر اللافت للنظر هو العلاقـــة بين الأرق والبرق الذي يتكرر كثيراً في شعرهم، ، يقول الدكتور عبد الكريم يعقوب معلقـــاً على أبيات عروة السابقة : "من المفيد الإشارة إلى أن انكشاف السحاب وعدم هطول المطر كانا دليلاً على انحباس الهم والحزن في نفس الشاعر، لقد أقفرت حياته من مظاهر الفـــرح والبهجة، وأقفر المكان الذي عاش فيه مع زوجته من مظاهر الحياة، فأهمية المكان تنبع من كونه قيمة اجتماعية، أو بعبارة أدق من كونه مكاناً اجتماعياً زاخـــراً بالحيـــاة والحـــضور الإنساني، وإذا ما تلاشى هذا الحضور، واندثرت تلك الحياة، حل الخراب واليباس فالمطر لم ينهمر لأن سلمى رحلت، ورحل معها الخصب والنماء والعطـــاء والحنـــان، ولعلـــه فـــي استحضاره صورة العائذ التي تذود الخيل عن ولدها برجلها فينكشف بياض بطنها كانكشاف السحاب وتبدده، يشير إلى الأمومة المتجسدة في سلمى والتي حرم الشاعر منها بعد رحيلها، فآلت حياته قفراً خاوياً من مظاهر الحياة، ورغم المسافات التي تفصل بينهما ما زالت تسكن قلبه ووجدانه، فهي الكائن الذي استوطن وجدانـــه وكيانـــــه " [1] .

ربما كان الشعراء ينظرون إلى البرق على أنه بشير خير، حيث يشير بقرب هطول المطر، الذي يعم به الخصب والنماء، وتعمر الديار التي طالما دعا لها الشعراء بالسقيا كـــي تظل عامرة بأهلها، فلا يرحلون عنها، بل يبقون بها، فينعم الشاعر بقرب محبوبته . لـــذلك سرعان مايتذكر الإنسان الديار وساكنيها كلما رأى البرق والسحاب وقرب المطر، فيثير فيه ذلك شجوناً وأحزاناً، وآلاماً مؤرّقة تذهب النوم وتسهر العين وتقضُّ المضجع .

3- شـــدة الحـــــب :

لم يمر بالأدب العربي عصر من من العصور لم يكن الحب فيه ينبوعاً من ينابيعه، فالشعر الجاهلي القديم في البادية، بصوره التقليد ية ولغته المتقنه، وتشبيهاته القوية، وبحوره الدقيقة وأوزانه الرصينه، كانت كل قصيدة من قصائده، تقريباً، تفتح باســـم حبيـــب تغنـــى

---

[1] المرأة الزوج في أشعار الصعاليك الجاهلين ، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ، مجلد 13، ،(عدد 1) 1411هـ - 1991م ص 127 .

باسمه، أو وصف لمنازله ودياره، أو وقوف لوداعه أو بكاء لفراقه، أو ذكر لأي شأن مـــن شؤونه وهذا كان تقليداً في الجاهلية ثم نهج كثيرون من الإسلاميين عليه . لم يكن ذلـــك إلا لما للحبيبة من أثر في نفوس الشعراء والسامعين [1] .

لقد أحب الشعراء وهاموا بمن يحبون، حتى ملكن عقولهم وقلوبهم، وشغلن تفكيرهم، يقـــول مالك بن حريـــم [2] :

منعمة لم تلق في العيش ترحة ولم تلـــــق بؤساً عند ذاك فتجدعا

أهيم بها لم أقض منها لبانــــــة وكنت بها في سالف الدهر موزعا

بل قد يتمنى الشاعر أن تطيب نفسه بذكرها قبل الموت، لشدّة، شوقة لها، وحبه إياها إنـــه يفكـــر فيها حتى في أشد الأوقـــات وأعصبهـــا علـــى الإنســـان، يقـــــــول أبـــــو الطمحـــان القينـــي [3] :

ألا عللاني قبل نوح النوائـــح وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح[4]

وقبل غدٍ يالهف نفسي على غدٍ إذا راحَ أصحابي ولست برائـــح

لقد " كانت الحبيبة بل كان حبها ألماً ممضاً وبكاءً عالياً، وحزنـــاً وشـــغفاً وهيامـــاً، وجنوناً مستعراً، كم أسهرت الحبيبة المحبين، فقضوا لياليهم الطويلة يرعون نجومهـــا، فـــلا غرو إذا ما استهانوا بالموت وتمنـــوه "[5] .

ومن الشعراء المتيمين الذين لم يفوزوا بحظ عند محبوباتهم، أو فرّق بينهم مفـــرّق قيس بن الحدادية الذي يقـــول [6] :

فإن كانت الأيام يـــــا أم مالك تسليكم عني وترضي الأعاديــــــا

فلا يأمنن بعدي امرؤ فجع لذةٍ من العيش أو فجع الخطوب العوافيا

ويبلغ به الأمر مبلغه حين يجد نفسه في حيرة وقلق شديدين فلا هو ينعم بوصـــل أم مالك، ولا هو ميت فمستريح مما هو فيـــه :

فلا مدركاً حظاً لدى أم مالك ولا مستريحاً في الحياة فقاضيـــا[7]

---

(1) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 116-117 .

(2) الأصمعيات : 63 .

(3) الحمـــــاسة لأبي تمام : 83 .

(4) التعليل : تطبيب النفس بذكر ما تحب ،– الجوانح : ضلوع الصدر ،– ارتقاء النفس : بلوغها التراقِ .

(5) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 128 .

(6) الأغـــــانـــــي : جزء 14 :150 .

(7) الأغـــانـــي جزء، 14: 150 .

وقد يلجأ الشاعر أحياناً إلى الشكوى والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، راجياً قربها فنجده يصرخ صرخات عالية تبوح بما في صدره من حرقة وشوق وألم، يقول قيس [1]:

شكوت إلى الرحمن بعد مزارها　　　وما حمَّلتْني وانقطاعَ رَجائيـا

وكيف لا يصرخ شاكياً، وقد اضرّ بجسمه بعدها، وأورثه أسقاماً، وآلاماً وأحزاناً غيرت من شكله مما جعله يفضل أنه مات قبل سماعه نبأ رحيلها، يقول [2]:

وإن الذي أمَّلت من أُمّ مالك　　　أشاب قذالي واستهام فواديا
فليت المنايا صبحتني غُدَيَّةً　　　بِذَبحٍ ولم أسمع لبينٍ منادياً

وهنا يبلغ الأمر ذروته عن الشاعر الوله، المتيم، الهائم بحب محبوبته، فالحياة تصبح غير ذات قيمة بدونها، فهي لا تحلو ولا تطيب إلا بقرب الأحبة، أما إذا كان البين والفراق، فهنا يصبح الموت خياراً مفضلاً، وهذا يبين مدى تعلق الشاعر بمحبوبته، وتعلقه بها، وإخلاصه في حبها، ووفائه لها يقول قيس [3]:

خليلىّ إن دارت على أم مالك　　　صروف الليالي فابعثا لي ناعيا
ولا تتركاني لا لخير مَعَجَّلٍ　　　ولا لبقاءٍ تنظران بقائيـا

ويقول [4]:

إذا ما طواكِ الدَهرُ يا أم مالكٍ　　　فَشأنُ ألمنايا القاضيات وشأنيا

أماتوبة بن الحمير فيذهب إلى ما بعد الموت، حيث أن حب ليلى باق حتى بعد موته فالموت وإن فرق الأجساد، فلن يفرق الأرواح العاشقة الهائمة يقول [5]:

ولو أن ليلى الأخيليلة سلمت　　　عليَّ، ودوني تُرْبَةٌ وصفائحُ
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا　　　إليها صَدىً من جانب القبر صائحُ
ولو أرسلت وحياً إلىّ غرفته　　　مع الريح في موماتها إذ تناوحُ
ولو أن ليلى في السماء لأصعدت　　　بطرفي إلى ليلى العيون الطوامح

---

(1) السابق جزء، 14: 151 .
(2) السابق : 151 .
(3) السابق : 150-151 .
(4) السابق : 151 .
(5) المنتخب من أشعار العرب : 287 .

ثم يتساءل توبة عن مدى حب ليلى له، وهل ستبكيه بعد موته، كما سيبكيها لو أنها ماتت قبله [1] :

فهل تبكين ليلى إذا مت قبلها ... وقام على قبري النساء النوائحُ

كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها ... وجادَ لها جارٍ من الدمع سافحُ

لقد كان الحب عند توبة مثالاً يحتذى في العفة وصدق العاطفة، واللهفة على رؤية المحبوب، والرضى منه بأقل القليل من الوصل، وهو العاشق المتيم، الذي لا يشفيه ولا يذهب شوقه إلا رؤية ليلى، أو حتى ديارها، يقول [2] :

وإني ليشفيني من الشوق أن أُرى ... على الشرف النائي المخوف أزورُها

ويقول [3] :

يقر بعيني أن أرى العيس تعتلي ... بنا نحو ليلى وهي تجري ضفورها

وأشرف بالأرض اليفاع لعلني ... أرى نار ليلى أو يراني بصيرها

ويطلب الشاعر من نفسه التمسُّك بحب ليلى، وعدم اطاعة الوشاة قائلاً :

تمسَّكْ بحبل الأخيلية واطَّرِحْ ... عدى الناس فيها والوشاةَ الأدانيا

أن حب توبة لليلى قد تمكن منه حتى لم يعد بالإمكان السيطرة عليه فغدا طوفاناً من المشاعر الفياضة الصادقة التي تعصف بالمشاعر، فلا يملك من أمره شيئاً إلا أن يطيعه ويذهب معه إلى حيث لا يدري، يقول [4] :

فهلا منعتم إذ منعتم كلامها ... خيالاً يوافيني على النأي هاديا

ولو كنت مولى حقها لمنعتُها ... ولكنّ من دوني لليلى مواليا

يلومُك فيها اللائمون فصاحة ... فليت الهوى باللائمين مكانيا

لو أن الهوى في حب ليلى أطاعني ... أطعتُ ولكنَّ الهوى قد عصانيا

وكم من خليل قد تجاوزت بذله ... إليك وصادٍ لو أتيتُ سقانيا

بل إن الشاعر يستلذ بذكرها، وإن كانت بعيدة عنه، لا يمكنه الوصول إليها، حتى وإن كان ذكرها يجعله يشرف على الهلاك من شدَّة ما يجد يقول [5] :

ولو أنَّ ليلى في بلادٍ بعيدةٍ ... بأقصى بلاد الجنِّ والنَّاسِ واديا

لكانت حديث الركب أو لانتحى بها ... إذا أَعْلَنَ الرَّكبُ الحديثَ فؤاديا

---

(1) منتهى الطلب : 86 .

(2) منتهى الطلب : 81 .

(3) السابق : 82 .

(4) السابق : 87 .

(5) السابق : 88 .

ذكرتك بالغور التهامي فأصعــدت شجون الهوى حتى بلغن التراقيا

4- البكـــــاء :

إن بعض الشعراء الصعاليك، رغم ما عرفوا به من بأسٍ وشدّة، وصلابة، وفروسية وشجاعة، وجرأة على مجابهة الأخطار، رغم كل هذه الصفات التي طالما افتخروا واعتدوا بها، إلا أنهم لا يجدون غضاضة في ذكر بكائهم، في بعض المواقف إذا ما جاشت العاطفة، وشفهم الوجد والهوى، وآلمهم الفراق، وحركت شجونهم الذكريات فهذا عروة يقــف علـــى منازل صاحبته (أم عمرو)، ويصف وقوفه بها وبكاءه عليها فيقــول [1] :

ألم تعرف منازل أُمَّ عمـــرو بمنعرج النواصف من أبـــان
وقفت بها فغاض الدمع منـــي كمنحدرٍ من النظم الجُمـــــانِ
ولكن لن يلبث وصل حـــــيٍّ وجده وجهه مر الزمــــــان

إن عروة يأنف أن يبكي في الشدائد والملمات، ولكنه يبكي حين رأى ديار أم عمرو، الديار التي حرّكت شجونه، وأثارت الكوامن من ذكرياته، فطغى الجانب الإنساني الضعيف الذي تحكمه العاطفة الجياشة الصادقة، وهنا تفيض الدموع حسرة وألماً على حبٍ مــضى، وشوقاً لمحبوب رحل ولم يبق منه إلا أطلالاً على الأرض، وذكريات يحملها الشاعــر .

ويقف أبو الطمحان القيني على أطلال محبوبته، التي تبدو رسوماً كالوشم في ظاهر اليد فتأخذه الحيرة، ويشتد به الشوق، ويحن إلى تلك الأيام الجميلة، فيبكي، ولكن سرعان ما ينتبه لنفسه، فيعرف أن بكاء ما مضى سفاهة ؛ إن كان يشغل الإنسان عن منهجه الذي خطه لنفسه، فالإنسان لا يمكن أن يظل رهين أطلال وذكريات، بل لا بد أن يتجاوز هذه الحالـــة، وينطلق في حياة رحبة واسعة، يقــول [2] :

لمن طلل عافٍ بذات السلاسلِ كرجع الوشم في ظهورِ الأنامــل
وقفت به حتى تعالى لي الضحى أسائله ما إن يبين لسائــــــــــل
ولما رأيت الشوق مني سفاهــة وأن بكائي عن سبيلي شاغلـــــي
صرفت وكان اليأس مني خليقةً إذا ما عرفت الصَّرْمَ من غير واصلِ

ويبكي عبيد بن أيوب العنبري لفراق سلمى، وبعدها عنه، يقول مصرحاً بذلك [3]:

وقلت لصاحبي والقلب يهفـــو أتزجر ذي السوانـــح أم تعيفُ

---

[1] عروة بن الورد، حياته وشعره د. إبراهيم الخواجة : 191 .

[2] أبو الطمحان القيني ، موسوعة الشعر، المجمع الثقافي .

[3] عبيد بن أيوب العنبري، موسوعة الشعر، المجمع الثقافي .

فقال نعم جرين ببين سلمـــــى وبعض البيــن منتعفٌ شطوفُ

كأنَّ دُموع عيني يومَ بانـــــوا جمانٌ خانـــــــهُ رَسَنٌ ضعيفُ

ويجيب توبة بعض من يقول أن الفراق والبعد لا يضرّه، قائلاً، إن كل مـــا يـــؤذي النفس يضرُّها ولا ينفعها، وأنتم لا تعرفون خصائص الحب وأحواله، ثم يذكر لهم دليلاً على تأثره وألمه لفراق محبوبته قائلاً : لو أردتم دليلاً على ذلك فانظروا العين عند فرط البكـــاء كيف يضرُّها ويحول بينها وبين النوم والسرور، أليس ذلك ضراراً بها وإيذاء لهـــا، وكـــأن توبـــة يريـــد أن يدلل على صدق عاطفتـــه، وعميق شوقـــــه، ببكائـــــه علـــــى فـــراق محبوبتـــه، يقـــــول [1]:

يقول أناسٌ لا يضيرك نأيهـــــا بلى كُلَّ ما شف النفوس يضيرها

أليس يضير العين أن تكثر البكا ويمنع منها نومها وسرُورهـــــا

ويصرّح مرّة أخرى بأن بكاء الأحبة حق لا يستطيع أحد سلبه إياه، فإن كان بإمكان أهل ليلـــى منعهـــا من رؤيتـــه ولقائـــه، فإنـــه ليس بمقدورهـــم منعـــه مـــن الـــشعـــر والبكـــاء يقـــول [2]:

فإن تمنعوا ليلى وحسن حَديثها فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا

ويرى توبة أن البكاء دليلاً على صدق العاطفة والإخلاص في الحب، والوفاء حتـــى بعد الموت، يقول متسائلاً [3]:

فهل تبكين ليلى إذا مت قبلهـــــا وقام علـــــــــى قبري النساء النوائحُ

كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها وجادَ لها جـــــــــارٍ من الدمع سافحُ

ولكن توبة يعرف أن من الحلم والوقار أن يدع الإنسان البكاء، ولكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه منه، يقول مخاطباً حمامةً، هيجته وزادت من بكائه [4]:

لعمري لقد سهرتني يا حمامة ال عقيق وقد أبكيتِ من كـــانَ باكيا

وكنتُ وقورَ الحلمِ مـــا يستهشني بكاءُ الصدّى لو نحت نوحاً مدانيا

لقد ظل العربي على مرّ العصور لا يجد حرجاً في ذكر البكاء تذللاً لمن يحـــب، أو ألماً وحسرة على فراقه، أو شوقاً لرؤيته، وكيف لا وهي المـــرأة التـــي أحبتهـــا القلـــوب، واستهوتها الأنفس، ولذت برؤيتها الأعين، وتاق لها العشاق، وضعف أمامها الفرسان، أمـــا البكاء في غير هذا الموضع، فهو مستنكر، معيب ، يأنف منه العربي ويـــراه نقـــصاً فـــي

---

[1] الحماسة لأبي تمام : 132 ،– منتهى الطلب :80 .

[2] منتهى الطلب : 87 .

[3] منتهى الطلب : 86 .

[4] منتهى الطلب : 87-88 .

الرجولة والمروءة، وعنوان ضعف وخور، وهذا ما لم نجده عند أيٍ من الشعراء الصعاليك أو غيرهم، وهذا ما صرح به أبو فراس في سجنه وهو يخاطب حمـــامـــة قائـــــلاً [1]:

أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقــةٌ ويسكت محزون ويندب سالي

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي

5- تبـــــادل الحـــب :

قد توصف عواطف المرأة أحياناً بالتقلب وعدم الثبات، فالمرأة يـــستهويها الجمـــال، والغنى والشباب في الرجل، فأينما وجد هذا مال قلبها، وهذا أمرٌ أشار إليه الشعراء بوضوح في شعرهم يقول . ثعلبة بن صفير واصفاً تقلب المحبوبات وعدم استمرارهن على حبهن :

وأرى الغواني لا يدوم وصالها أبداً على عسرٍ ولا لمياســــر[2]

ويشيـــر علقمـــة الفحـــل إلى سعـــي المـــرأة وراء الثـــــراء والـــشباب عنـــــد الرجـــل فقـــال [3]:

فإن تسألوني بالنساء فإننــــــــي بصير بأدواء النســــــاء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودَّهــــــن نصيب

يردن ثراء المال حيث علمنـــه وشرخ الشباب عندهــن عجيب

لقد كان الصعلوك يعرف كغيره من العرب أن الطريق إلى قلـــب المحبوبـــة هـــو الشباب، والنضارة والمال، فبغيرهما لا سبيل لقلبها، وأكثر ما كان يقض مضجع العربـــي، ويقلقه، رؤية الشيب قد وخطه، لأنه نذير بطي حقبة من الحياة بكل ما فيها من لهو، وسهر وشرب، ومغازلة للنساء، وبكل ما فيها من فتوة وقوة ونشاط، وفروسية ومغامرة، لذلك نجد الشاعر العربي يجزع جزعاً شديداً من رؤية الشيب كما يصور ذلك مالك بن حـــريم حـــين يقـــول [4]:

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعاً وقد فات ربعيُّ الشباب فودَّعــــا

ولاح بياض في سوادٍ كأنـــــــــــه صُوارٌ بجوِّ كــــان جدْباً فأمْرعــا

---

[1] ديـــــوان أبي فراس الحمداني دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الثالثة 1993 : 126 0

[2] المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 108 .

[3] الشعر والشعراء : جزء 1 :146 0

[4] الأصمعيـــــات : 62-63 .

إن هذا الجزع والفزع من تولِّي الشباب، له ما يبرره عند هـؤلاء الـشعراء فكبـر السّنْ، وتولي الشباب، وضعف الصحة مدعاة لشماتة الأعداء، وسأم الأهل والبقاء في ساحة البيت، بين الأطفال، يقـول عـروة [1]:

أليس ورائي أن أدبَّ على العصا فيشمت أعدائي، ويسأمني أهلـي

رهينة قعر البيت، كل عشيـة يطيف به الولدان أهدج كالـرأل[2]

ويذكر عروة عزوف النساء عنه بسبب تقدم سنه، قائـلاً[3]:

ويدعونني كهلاً، وقد عشت حقبةً وهنّ، عن الأزواج نحوي، نوازع[4]

كأني حصان مال عنه جلالـه أَغر كريمٌ حوله العوذ راتـع[5]

ويذكر القتال الكلابي صراحة عزوف المرأة عنه بسبب كبره في الـسن، وميلهـا بوصلها إلى أصحاب الشباب الأغيد، وهذا الميل في المرأة فطري، نلمـسه فـي عواطفهـا وحديثها، ونظرات عينيها، وتقاسيم وجهها، يقـول [6]:

صرمت شُمَيلةُ وِجْهَةً فتجلـدِ من ذا يقولُ لهـا علينا تَقْصدِ

أشميل ما أدراك إن عاصيتني أن الرَّشاد يكونُ خَلْفَكِ مـن غدِ

يا ظبية عَطَفَتْ لآدم شـادنٍ هلاّ أويت لقلب شيـخٍ مقصدِ

فإذا أراد الوصل لا تصلينـهُ ووصلت أصحاب الشباب الأغيد

ويقول في قصيدة أخـرى [7]:

فصدت حياءً والمودَّة بيننا وأبيض بلٌّ بالظعائن حـابسُ

فإما تريني قد تجلل لمتي رداءُ الشباب فاسألي ما أمارس

إن إعراض المرأة عن الرجل إذا تقدمت به السن، وبدا الشيب عليه، وعزوفها عنه ، جعل كثير من الشعراء ينصرف عن اللهو، ويراه أمراً لا يليق بسنه، ولا بشيبه حيـث أن لكل زمن أهله ورجاله، وحيث أن الصبابة أو التصابي لا يليق بشيخ كبير، حتى وإن أثارت فيه رؤية الأطلال، والذكريات شعوراً نابياً بعودة شبابه، يقول عبدة بن الطبيب :

فعدِّ عنها ولا تشغلك عن عملٍ إن الصَّبابة بعد الشيب تضليلُ

---

(1) الديـوان : 89 .

(2) أهدج : خائف ،– الرأل : فرخ النعام .

(3) الديـوان : 82 .

(4) كهلاً : شيخاً كبيراً .

(5) العوذ : الحدثية النتاج (الوضع) من الظباء والإبل والخيل، ومفرها : عائـذ .

(6) منتهى الطلب : 646 .

(7) منتهى الطلب : 651 .

ومن حسن الحظ أن الزّلة تدوم قليلاً لدى هذا العاشق، العاقل نسبياً :

وللأحبة أيامٌ تذكرهـــــــــــا   وللنـــــوى قبل يوم البين تأويلُ[1]

وإذا كان عبدة بن الطبيب يرى الصبابة بعد الشيب ضلالاً، فإن أبو الطمحان القيني يرى هذا الأمر سفاهة حين يقــول [2]:

ولما رأيت الشوق مني سفاهــة   وأن بكائي عن سبيلي شاغلـــــي

صرفت وكان اليأس مني خليفة   إذا ماعرفت الصرم من غير واصل

لذلك فالشاعـــر سرعـــان ما يثــوب إلــى رشده ، ويعــود اليـــه عقلــه ، ويتــرك مـــا لا يليــق بــه .

إن بعض الشعراء كان يؤلمه ميل المرأة عنه، لشيبه أو كبر سنه، واقبالهـا علـى الشاب الفتــي، لذلك نجـد عندهم تفسيـرات ومبـررات للشيب، فهذا عـروة يخـاطب محبوبتــه قائـــلا [3]:

وما شاب رأسي من سنين تتابعت   طــوال ولكـــن شيبته الوقائع

فعروة لم يشب لكبر سن، أو طول عمر ولكن بسبب الحروب التي خاض غمارها، واكتوى بنارها . أما قيس بن الحدادية فلديه تفسيرآخرللشيب، ألا وهو حب محبوبته، وصبره عليها، يقــول [4]:

وإن الذي أملت من أم مالك   أشاب قذالي واستهـام فؤادي

وقد يلجأ الشاعر أحيانا إلــى الحديث عن بعـض صــفات الفروسـية والبطولـة والاخلاق والكرم التي يتحلى بها رغم شيبه ، وكأنه يريد أن يصرف نظر المرأة عن شـيبه إل النظر إلى أمور أخرى قد لا يقــدر عليها الشاب أو حتى لا يتصف بها فليس كل شــيء قوة وفتوة وشباب ؛ ولكن هناك أمـــور لا بد من أن يتحلى ويتصف بها الإنسان ، يقــول مالك بن حــريــم [5]:

فإن يك شاب الرأس مني فإنني   أبيت علـــى نفسي مناقب أربعا

فواحدة ان لا أبيت بغـــــرة   إذا ما سوام الحي حولي تضوعا[6]

---

(1) انظر الغزل عند العرب ، ج. ك . فادية ، ترجمة إبراهيم الكيلاني : 60 .

(2) أبو الطمحان القيني ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(3) الديوان : 82

(4) الأغاني :جزء 14 : 151 .

(5) الاصمعيات : 64 .

(6) الغرة :الغفلة . السوام :الابل السائحة ، تضوع:تفرق .

وثانية أن لا أصمت كلبنـــــــا إذا نزل الأضياف حرصا لنودعا[1]
وثالثة أن لا تقذع جارتـــــــــي إذا كـــان جار القوم فيهم مقذعا[2]
ورابعة أن لا أحجل قدرنــــــــا علـــى لحمها حين الشتاء لنشبعا[3]
وإني لأعدي الخيل تقرع بالقنــــا حفاظا على المولى الحريد ليمنعا[4]

إن هؤلاء الشعراء يريدون أن يصرفوا نظر المرأة، من المظهر الحـــسي والـــشكل للإنسان – وهو مهم بالطبع لأي امرأة – وتوجيه نظرها واهتمامها، إلى خصال أخرى أكثر أهمية، وهي والفروسية والبطولة، والكرم والشجاعة، ومجابهة الأهوال والملمات بكل ثبات وعزيمة، مع كرم الأخلاق ونبل الصفات .

والصعاليك يختلفون في ردة فعلهم وتعاطيهم مع انصراف المرأة عنهم ،وصـــدودها وإعراضها ،فمنهم من تجده ينفر منها ، ويقابل صدودها بصدود مثله ، ونفورها بنفور أشد وأقوى ، وبين متذلل لها ، باك على أعتابها .

أما المثال الاول من هؤلاء الصعاليك فيمثله تأبط شرا ،الذي يـــذكر صـــراحة أنـــه سيقابل القطيعة بالقطيعة ، وأنه يأبى أن يضعف أمامها ،أو يثنيه حبها عن منهجه الذي خطه لنفسه، يقـــول[5]:

إني إذا خلة ضنت بنائلهـــــــا وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق [6]
نجوت منها نجائي من بحيلة إذ ألقيت ليلة خبت الرهط أوراقـــي[7]

ويعلق صاحب كتاب الغزل عند العرب على هذين البيتين قائلا : "وفي المفـــضليات حالات يغتبط فيها الحبيب من جراء قطع صلته بالحبيبة ،مصرحا أنه سيعمد الى القطيعـــة ذاتها كل مرة تدعو اليها أي عندما لا يلقى من محبوبته استجابة فورية ،إن البـــين حـــادث عادي في حياته العشقية "[8] والحقيقة أن البين ليس حادثا عاديا في حياة الصعاليك ، بل إنهم

---

(1) لنودع : لنترك ، يقصد أنه لا يمنع كلبه النباح خوف الضيف .

(2) تقذع :من القذع ، وهو الرمي بالفحش وسوء القول .

(3) لا احجل :أي لا استرها ، يريد انه يظهرها ليطعمها الضيفان .

(4) أعدي الخيل :أحملها على العدو ، تقرع : تكبح لتكف من بعض جريها ، الحريد : المنفرد المنعزل

(5) المفضليات :28.

(6) الخلة : الصداقة وتطلق على الذكر والمؤنث والجمع، النائل : ما ينال ، بضعيف الوصل :بحبل ضعيف ، الأحذاق :المتقطع.

(7) بجيلة :القبيلة التي أسرته ، الخبت : اللين من الارض . الرهط : موضع ، اوراقي : استنفذت مجهودي في العدو.

(8) الغزل عند العرب :53.

عانوا منه أشد معاناة ، وفي شعر عروة وقيس بن الحدادية ،وتوبة وعبــد بــن الطبيــب وغيرهم شعر كثير يبين عظيم المعاناة التي عانوها جراء الفراق والبين والبعد عن المحبوبة ولكن الصعلوك لديه من الشدة والصلابة والعزيمة ،وقوة الإرادة ما يجعلــه يــسيطر علــى عواطفه ، فيقودها هو ، ولا يسمح لها أن تقوده، لكن المفارقة العجيبة أن الصعلوك لا يحب المرأة المبتذلة الرخيصة ، التي هانت عليها نفسها،وفرطت في عفتها وشرفها ، يقول السليك [(1)]:

يعاف وصال ذات البذل قلبــــي ويتبع الممنعــــــــــة النَّوارا [(2)]

فقلب الشاعر يعاف المرأة التي تجود بوصلها، ويعلق بالممنعة التي لا تأتي ريبة

إن هذا النفور الذي نجده عن تأبط شراً، قد لا نجده عند بكر بن النطــاح * الــذي يمثل، القسم الثاني من الصعاليك الذين نجد فيهم ضعفاً وليونة وتــذللاً للمــرأة مــن أجــل استرضائها، والفوز بوصلها يقــول [(3)]:

أهل دارٍ بين الرصافة والجسرِ أطالوا غيظي بطول الصدودِ
عذَّبوني ببعدهم وابتلوا قلبي بحزنيـــــــن طارفٍ وتليد
ما تهب الشمـــــال إلا تنفست وقال الفؤاد للعيـــن جودي
قلّ عنهم صبري ولم يرحموني فتخيَّرت كالطريد الشريــــدِ
وكلتني الأيامُ فيك إلـــــى نفس ي فأعييتُ وانتهى مجهوديَ

فالشــاعــر هنــا يشكــو عذابه وحزنـــه، وقلــة صبــره، ونفــاذ حيلتــه، حتى إنـــه لــم يجــد إلا البكــاء . ويقـــول [(4)]:

العين تبدي الحب والبغضـــا وتظهر الإبرام والنقضــتـــا
درّة ما أنصفتني في الهـــوى ولا رحمت الجسد المنضـــى [(5)]
مرّت بنا في قرطقٍ أخضـــرٍ يعشق منها بعضها بعضـــا[(6)]
غضبى ولا والله يا أهلهـــــا لا أشرب البارد أو ترضـــى

---

(1) ديوان الصعاليك : 188 .

(2) الممنعة : الصعبة ، – النَّوار : المرأة النفور من الريبة .

* بكر بن النطاح، شاعر اسلامي، كان صعلوكاً يصيب الطريق،ثم أقصر عن ذلك ، وكان شجاعاً بطلاً فارساً، شاعراً حسن الشعر والتصرف فيه ، كثير الوصف لنفسه بالشجاعة والإقدام .

(3) الأغاني ، جزء 19 : 48-49 .

(4) الأغاني جزء 19 : 49 .

(5) المضى : المهزول .

(6) القرطق : رداء .

كيف أطاعتكم بهجري وقـــد جعلتُ خدّي لها أرضـــا؟ (1)

إن الشاعر يتذلل ويستعطف محبوبته كي ترضى عنه، ويبلغ به الأمر مــن التــذلل وهوان النفس مبلغه في البيت الأخير، حين يجعل خدّه أرضاً لها تطؤها وهذا لا يليق برجل، فكيف بطائفة من الناس هم أشد الناس أنفة وبأساً وقوة، واعتداداً بأنفسهم، وهم الــصعاليك، ولكن ربما غيرت طباع هذا الشاعر حياة المدينة التي ألفها، والعيش النــاعم المرفــه بــين الجواري والقيان .

ويقول أيضاً مصوراً حاله أثر صدودها، وما أورثه هذا الصدود من سقم بعد صحة وبكاء بعد ضحك، وحزناً بعد سعادة، حتى أن الدموع تحولت دماً لفرط بكائه وشــدّته ممــا جعل القرطاس والقلم يرقان له، ويبكيان معــه [2]:

صدت فأمسى لقاؤها حرمــــا واستبدل الطرفُ بالدموع دَمــــا
وسلطت حبها على كبـــــدي فأبدلتني بصحةٍ سقمـــــــا
وصرت فرداً أبكي لفرقتهــــا وأقرع السَّنَّ بعدهــــــا ندما
شق عليها قول الوشاة لهــــا أصبحت فــي أمر ذا الفتى علما
لولا شقائي وما بليت بـــــه من هجرها ما استثرت ما اكتتما
كم حاجةٍ في الكتاب بُحتُ بهــا أبكيتُ منها القرطاس والقلمــــا

بل قد يصل به الأمر إلى التفكير في الانتحار، لأنه لا يطيق غضب محبوبتــه، أو صدودها فالسرور له أهله، والأحزان والعبرات لها أهلها يقول بكر بن النطاح [3]:

غضب الحبيب عليّ في حبي له نفسي الفداء لمذنبٍ غَضبـــان
مالي بما ذكرَ الرسولُ يدان بل إن تمَّ رأيك ذا خلعت عنانـــي
يا من يتــوق إلى حبيب مذنبٍ طاوعتَه فجزاكَ بالعصيــــانِ
هلا انتحــرتَ فكنتَ أولَ هالكٍ إن لم يكن لك بالصدود يـــدان
كنــــــا وكنتم كالبنان وكفِّها فالكف مفردة بغير بنــــــانِ
خُلِقَ الســرور لمعشرٍ خلقوا له وخُلِقْتُ للعبرات والأحـــــزان

ثم يفسر ضعفه وشحوبه بشدّة ما يلاقي من الابتلاء في حبها، الإبتلاء الذي يعجــز الشاعر عن وصفه، فلم يتبلى أحد – في نظر الشاعر – بما ابتلي به إلا أيوب عليه الــسلام ورغم كل هذا فهو ما زال متمسك بمحبوبته، مفتوناً بجمالها، متعلقاً بها . يقــــول [4]:

---

(1) ويروي : كيف تعاطيكم بهجري وقد *** جعلت خدي لها أرضا .

(2) الأغــــــاني، جزء 19 : 49 .

(3) الســــابــق : 51 .

(4) الســــابــق : 50-51 .

هل يبتلى أحدٌ بمثل بليتـــــــــــي **أم ليس لي في العالمين ضريبُ ؟**
قالت عنان وأبصرتني شاحبـــــــاً **يا بكر ما لك قد علاك شحوبُ ؟**
فأجبتها يا أختِ لم يلق الــــــــذي **لا قيتُ إلا المبتلى أيـــــــوبُ**
قد كنتُ أسمع بالهوى فأظنـــــــه **شيئاً يَلذُّ لأهلــــــــــه ويطيبُ**
حتى ابتليت بحلوه وبمـــــــــــرِّه **فالحلْوُ منه للقلـــــــــوبِ مُذيبُ**
والمرُّ يعجزُ منطقي عن وصفـــــه **للمُرِّ وصفٌ يا عنـــــان عجيبُ**
فأنا الشقيُّ بحلوه وبمـــــــــــرِّه **وأنا المعنىّ الهائم المكـــــروبُ**
يا دُرَّ حالفك الجمالُ فمالـــــــــه **في وجه إنسان ســـواك نصيبُ**
كل الوجوه تشابهت وبَهَرْتِهـــــــا **حُسناً فوجهك في الوجوه غريبُ**
والشمس يغرب في الحجاب ضياؤها **عنا ويشرق وجهك المحجــوبُ**

إن تذلل بكر بن النطاح، وضعفه أمام محبوبته، واستماتته من أجل أن ينال رضاها وينعم بوصلها، يعد أمر مستغرباً ومستهجناً في عالم الصعاليك، ولكن ربما كون بكـــر بـــن النطاح شاعر إسلامي متأخر نوعاً ما عاش في القرن الثاني الهجري، وكونه كان يعيش في بغداد بين قصورها وجواريها، كل هذا، جعله لين الجانب، عذب الحديث، رقيـــق الـــشعر، بخلاف أولئك الصعاليك الذين عاشوا في الصحراء، فنشأوا أشداء صلاب، كشدتها وصلابتها وقسوتها .

ثالثاً: ملامح المحبوبة وصفاتها:

1- الصفات المعنويـــة:

من الأشياء التي تميز الفتاة العربية، حياؤها، وعفتها، وتمنعها، وعدم ابتـــذالها، وهـــذه الأشياء الثلاثة هي عدة الفتاة وسلاحها في الحياة، وهي سمات حرصت عليها بنات العرب، فالحياء يحتم على الفتاة أن لا تظهر كاشفة عن وجهها حتى على أقرب الناس إلـــى قلبهـــا، وحتى لو كان ذلك في وقت فراق بين المحبوبين، وقد ساد الحزن وعم الأسى، ولم يبـــق إلا البكاء. يقول قيس بن الحدادية [(1)] :

فشدّت على فيها اللثام وأَعرضت وأمعن بالكحلِ السَّحيق المدامعُ

وقد تلجأَ المرأة العربية أحياناً إلى رفع نقابها أو خمارها، والكشف عن وجههـــا أو شعرها، ولكن هذا الأمر لا يكون إلا في وقت شديد عصيب، كأن تخشى المحبوبة على حبيبها من الموت، كما فعلت ليلى الخيلة حين علمت بتربص قومها لتوبة لقتله، فجلست في طريقه، وكشفت عن وجهها، فاستنكر توبة فعلتها، وعلم أن هناك أمراً، فعـــاد مـــن حيث جاء ثم قال [(2)] :

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

وقد تنزعه في حالة المعركة واشتداد الخطر عليهـــا، استنهاضـــاً لأهلهـــا، وإثـــارة لحميتهم، كما فعلت فكيهة، حين أجارت السليك، واجتمع عليها القوم ، فنزعـــت خمارهـــا، وصرخت بأخوتها، فجاؤها، ودفعوا عنها، يقول السليك [(3)] :

وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

والمرأة العربية تحرص أن تحيا عفيفة شريفة، طاهرة، نقية من كل شائبة، فهذا هو رأس مالها في الحياة، فإن مست العفة، سقطت المرأة مـــن شـــاهق إلـــى وادٍ ســـحيق، فتناوشتها صخوره وأحجاره وأشواكه، تاركة جروحاً لا تندمل، وآلاما لا تنتهي .

لذلك تظل الفتاة العربية حريصة على سمعتها، وشرفها. فتحيا في مجتمعها- الذي يقدس هذه الأشياء – حياة كريمة عزيزة .

لذلك نجد بعض الشعراء إذا ما أراد مدح فتاة، سارع إلى مدحها بهذه الصفات، التي تعتبر أفضل ما تمدح بها امرأة، يقول السليك [(4)] :

---

(1) الأغاني، جزء 150:14

(2) الأغاني جزء 11 : 198 ، ومنتهى الطلب : 81.

(3) ديوان الصعاليك : 188 .

(4) ديوان الصعاليك : 187 .

لعمرُ أَبِيْكَ والأَنْباءُ تُنْمـــــــي   لنِعْمَ الجارُ أُخْتُ بنـــــي عُوارا
منَ الخفراتِ لم تفضحْ أباهــا   ولم ترْفَعْ لأُخْوَتِها شنـــــارا[1]

سأل الحجاج ليلى الأخيلية فقال لها، إن شبابك قد ذهب ، واضْمَحلَّ أمـــرك وأمـــر توبة، فأقسم عليك إلا صدقتني، هل كانت بينكما ريبةٌ قط؟، أو خاطبك في ذلك قط؟ فقالت : لا والله أيها الأمير إلا أنه قال لي ليلةً وقد خلونا كلمةً ظننت أنه خضع فيها لبعض الأمـــر، فقلت لـــه :

وذي حاجةٍ قُلْنَا له لا تَبُحْ بهــا   فَلَيْسَ إليها ما حَيِيتَ سبيـــلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه   وأنت لأُخرى فارغٌ وحليـــلُ

فلا والله ما سمعت منه ريبة بعدها حتى فرّق بيننا الموت. قال لها الحجاج: فما كان منه بعد ذلك : قالت: وجّه صاحباً له إلى حاضرنا فقال : إذا أتيت الحاضر من بني عبادة بن عقيل فاعلُ شرفاً ثم اهتف بهذا البيت :

عفا الله عنها هل أبيتَنَّ ليلـــــةً   من الدَّهْر لا يسري إليّ خيالُها

فلما فعل الرجل ذلك عرفتُ المعنى فقلتُ له :

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه   عزيزٌ علينـــا حاجةٌ لا ينالها[2]

إن هذه القصة تبين بجلاء مدى حرص المرأة العربية على شرفها، وعفتهـــا، وتمنعهـــا على من أحبها، واشتاق لها، وتاق للقائها .

إن التمنع في المرأة أمر محبوب عند الرجل، وهذا ما صرح به السليك حين كره وصل المرأة المبتذلة، ومال إلى المرأة النافرة، الممنعة، فقال [3] :

يعاف وصال ذات البذل قلبـــي   ويَتَّبع المُمنَّعَةَ النـــــــــــوارا

لذلك كان الشاعر حريصاً على سمعة محبوبته، حتى لا تشوبها شائبة، ولا يظن بها سوء، يقول توبة [4] :

عليّ دماءُ البُدْن إن كان زوجها   يرى لي ذنباً غير أني أزورهـــــا
وأني إذا ما زرتها قلت يا اسلمي   فهل كان في قولي اسلمي ما يضيرها

إنه يريد أن يعلو بمحبوبته عن كل شك وريبة، معلناً أنه إذا زارها لم يزد في زيارتـــه على السلام والسلام فقط .

---

[1] من الخفرات: من الحييات ، – الشنار : العيب والعار.

[2] الأغاني جزء 11 :197.

[3] ديوان الصعاليك: 188.

[4] الأغاني جزء 11 : 299.

والمرأة تخشى الوشاة وتكرههم، لأنهم يفسدون الـود، ويفرقـون المحبـين ويقطعـون الوصل، ويغيرون النفوس، ويكدرون الصفو، لذلك فهي تخشى من ذيوع سرها، وانكـشاف أمرها، وذيوع صيتها، فتصبح حديث الناس الأمر الذي تخشاه، يقول قيس بن الحدادية [1] :

سعى بينهم واشٍ بأفلاق برمـــةٍ	**ليفجع بالأظعان من هو جــازع[2]**
بكت من حديث بثه وأشاعــــه	**ورصفه واشٍ من القوم راصــع[3]**
بكت عين من أبكاك لا يعرف البكا	**ولا تتخالجك الأمور النــــوازع**
فلا يسمعن سري وســـرك ثالث	**ألا كل سر جاوز اثنين شائـــع**
وكيف يشيع السر مني ودونــــه	**حجاب ومن دون الحجاب الأضالع**

إن الفتاة العربية تظل دائماً خائفة وجلة، تحرص كل الحرص على سمعتها، وطيب ذكرها، وقد يحرص المحبون على بقاء حبهم طي الكتمان، حتـى لا ينكـشف أمـرهم ويحال دون لقائهم ، والشعراء خصوصاً كانوا لا يذكرون أسماء محبوباتهم خوفاً عليهن، وحرصاً على سمعتهن، وحتى لا يحرموا لقاءهن .

والفتاة العربية تحب الشاب أو الرجل العاقل الرزين المتزن في أقواله وأفعاله، لذلك قـد تواجه الرجل بحقيقة أمره إذا ما رأت منه غير ما تريد، يقول توبة [4] :

وقد زعمت ليلى بأني فاجـــرٌ	**لنفسي تقاها أم عليها فجورهــــا**

والفتاة بطبيعتها تهوى الشباب في الرجل، فهي مفتونة بالشباب والفتوة، والقوة والحيوية والنشاط في الرجل، وهذا أمرٌ لطالما تحدث عنه الشعراء في شيء من التحسر أحياناً كثيرة.

كذلك فهي تحب منه جمال الشكل، وحسن المظهر، ونضارة الوجه، فهي تصرح بهـذا الأمر، إذا ما رأت في محبوبها غير ما تريد، يقول مالك بن الريب [5] :

وقد تقول وما تخفي لجارتهــا	**إني أرى مالك بن الريب قد نحــلا**

---

(1) الأغاني جزء 14 : 148.

(2) برمة : عرض من أعراض المدينة قرب "بلاكث" بين خيبر ووادي القرى. – أفلاق: جمع فلق كسبب، وهو المطمئن من الأرض بين ربوتين.

(3) الربع: المنزل.

(4) منتهى الطلب : 83.

(5) الأغاني جزء 22 :312.

إن هـذا الأمـر يزعج الشاعـر، ويؤثر في نفسه، لذلك نجده يسارع إلـى تعليـل ذلك بقوله [1]:

من يشهد الحرب يصلاها ويسعرها ... تراه مما كسته شاحباً وجـــلا

وإذا كان مالك بن الريب فسر شحوب لونه وهزاله، بأحوال الحروب التي يصلاها، فإن توبة قد تغير لونه من السير في الهواجر دون ستور، يقـول [2]:

وقالت أراك اليوم أسود شاحباً ... وأنى بياض الوجه حر حرورهـا

وغيرني إن كنت لما تغيـري ... هواجر تكتنيها وأسيرهـــــا

إذا كان يوم ذو سموم أسيـره ... وتقصر من دون السموم ستورها

وقد يكون سوء المظهر مدعاة سخرية من قبل المرأة، متناسية ما يجب النظر إليـه من حسن خلق، وكريم صفات.يقول عبيد بن أيوب العنبري [3] :

تقول وقد ألممت بالإنس لمـــةً ... مخضبة الأطراف خرس الخلاخل

أهذا خليل الغول والذئب الـــذي ... يهيم بربات الحجال الهراكـــل [4]

رأت خلق الأدارس أشعث شاحبـاً ... على الجدب بساما كريم الشمائـل[5]

إن سوء المظهر، أمر ملازم للصعاليك غالباً، نظراً لظروف عيشهم، فالصعلوك قد يكون شاحب اللون، وهذا ناتج عن قلة طعامه وشرابه، ويكون أشعث أغبر رث الثياب، لأنه دائم السفر والتنقل في مجاهل الصحراء ومتاهاتها، ليس لديه وقت للاهتمام بمظهره الخـارجي، فالأمر أكبر من ذلك، لذلك فمن الطبيعي أن تكون المرأة بطبيعتها، وما فطرت عليه، مـن حب للجمال وحسن المظهر، نافرة من هذا الأمر، معترضة عليه ساعية إلى تغييره .

والمرأة تحب المال، وتكره الفقر، وهذه الحقيقة أدركها الصعلوك، وصرح بها في شعره لذلك نجده دائب السعي وراء جمع المال، كي يحيا حياة كريمة، يفوز فيهـا بالمكانـة فـي المجتمع، ويحوز رضى المرأة سواء كانت محبوبة، أو زوجة، فالفتيات يملن إلـى الثـراء ووفرة المال، لأن فيه عيشاً كريماً، وتحقيقاً للرغبات، وحصناً من عوادي الزمن . فالفقـر

[1] السابق : 312.

[2] منتهى الطلب : 83 .

[3] الشعر والشعراء: 669 .

[4] ربات الحجال: النساء – الهراكل : جمع هركلة وهي الشابة الحسنة الجسم والخلق .

[5] الأدراس: الثياب البالية. – الأشعث : مغبر الشعر، الشحوب: اصفرار اللون ، – الشمائل: الصفات والخصال .

وحش ضـــــارٍ، يجعــل صاحبـــه منبـــوذاً عند المجتمـــع، موضع ازدراء عند النـــساء . يقـــول عــــروة [1] :

دعيني للغنى أسعى فإنـــــــي — رأيت الناس شرهم الفقيـــــــر
وأبعدهم وأهونـهم عليهـــــــــم — وإن أمسى له حسب وخيـــــر[2]
ويقصيه الندي، وتزدريـــــــه — حليلته وينهره الصغيـــــــر[3]
ويلقى ذو الغنى وله جـــــلال — يكاد فؤاد صاحبه يطيــــــر [4]
قليل ذنبه والذنب جـــــــــم — ولكن للغنى رب غفــــــــور

إن عروة يدرك أن الغنى المادي هو المقياس الحقيقي لقيمة الإنسان، لذلك يطلب من صاحبته أن تتركه لحال سبيله، كي يحصل على المال والثروة ، فالناس تنظر إلـــى الفقيـــر على أنه شر الناس وأضعفهم وأهونهم عليهم، فلا خير فيه، ويقابل بكل احتقار وازدراء من زوجته، ومن الصغار، أما الغني مهما كان وزنه ينعم بالاحترام والتقدير ، يقبل المجتمع كل خطاياه ويغفرها له. وإذا كان هذا حال الفقير مع زوجته، التي هي أقرب الناس له، فما بال المحبوبة التي ما زالت حرة، لا يربطها بالرجل رابطة الزواج، وليس بينهما ميثاق غلـــيظ. يقول قيس بن الحدادية [5] :

وما راعني إلا المنادي ألا اظعنوا — وإلا الرواغي غدوة والقعاقـــــع
فجئت كأني مستضيف وسائـــــل — لأخبرها كل الذي أنا صانـــــــع
فقالت تزحزح ما بنا كبر حاجــة — إليك ولا منا لفقرك راقـــــــــع

إنها لا تريد أن تربط مصيرها برجل فقير، وما الذي يجبرها على ذلك وهي ما زالـــت في حيرة من أمرها، وبمستطاعها أن تختار الغني الذي يريحها ويكفيها مشقة العيش وسوء الحال ، وهذا صنف من النساء ،ولكن هناك بعض منهن قد تضحي بهذا الأمر من أجـــل أن تفوز برجل يتصف بالحلم ، ورجاحة العقل ،وبالرجولة والفروسية ومكارم الأخـــلاق ،وان كان فقيرا، فالغنى ليس كل شيء في هذه الحياة.

ومن الأشياء التي اشتهرت بها الفتاة أو المحبوبة ، إخلاف الموعد ويرجع ذلك لأسباب منها ، الخوف من الرقيب ، أو الواشي ، أو التمنع والدلال ، حتى لا تظهر بمظهر المبتذلة

---

[1] الديوان: 79 .
[2] الخير هنا بمعنى الشرف .
[3] تزدريه: تحتقره، حليلته : زوجته ، ينهره : يزجره ويعامله معاملة سيئة .
[4] جلال: إكرام وإكبار وتعظيم.
[5] الأغاني جزء 14: 149 .

الرخيصـــة، وهــذا أمــر لم يكن يروق للمحبين ، الذين طالما اشتكوا من هذا الأمــــر . يقــول تأبــط شــرا [1] :

تالله آمن أنثى بعدمــــــا حلفت | **أسماء بالله من عهد وميثـــاق**[2]
ممزوجة الود بينا واصلت صرمت | **الأول اللذ مضى، والأخر الباقي** [3]
تريك وعد أماني تغر بــــــــه | **كالقطر مر على ضجنان بــراق** [4]

والتمنع صفة من صفات المرأة العربية ، تحرص عليها ، وحرص الشعر الجاهلي على إظهارها بهذه الصفة، فالشاعر دائما يظهر في مظهر المحب المدله بحبهــا ، اللاهــث خلفها ، المتمني قربها ، الباكي المتذلل عندها طمعا في رضاها ، وطلبا في وصلها.

إن المرأة إذا بالغت في دلالها ، وأمعنت في تمنعها ، قد تجعل المحب العاشق لهــا يصرخ صرخات عالية ، ألما وحرقة على فراقها ، يقول قيس بن الحدادية [5] :

وبدلت من جدواك يا أم مــــالك | **طوارق هم يحتضرن وساديــا**
فلا مدركا حظا لــــدى أم مالك | **ولا مستريحا في الحياة فقاضيا**
وان الذي أملت مــــن أم مالك | **أشاب قذالي واستهام فؤاديـــا**
شكوت إلى الرحمن بعد مزارها | **وما حملتني وانقطاع رجائيــا**

ويقــول [6] :

كأن فؤادي بين شقين من عصا | **حذار وقوع البين والبين واقع**

هذه بعض صفات المرأة المعنوية التي ذكرها الشعراء الصعاليك للمرأة المحبوبة ، وسيأتي إن شاء الله في الفصل الثاني من هذا البحث ذكر الصفات المعنوية للزوجة بــشكل أوسع ، وذلك أن الشعراء الصعاليك أعطوا زوجاتهم نصيبا وافرا من شعرهم وبذلك أكــون قد عرضت لبعض ملامح المرأة العربية المعنوية ، التي ذكرها الشعراء، واسترعت انتباههم سواء كانت محبوبة أو زوجة ، فتاة أو امرأة .

---

(1) المنتخب في محاسن أشعار العرب : 283.

(2) تالله آمن : أي لا آمن ، و(لا) تحذف في القسم كثيرا ومنه قوله تعالى :" تالله تفتؤ تذكر يوسف".

(3) ممزوجة الود: غير صافية . – الأول اللذ مضى : يعني وصالها الذي انقطع ،–الأخر الباقي :يعني هجرها الذي استمر .–اللذ :لغة في الذي .

(4) ضجنان :جبل بناحية مكة على طريق المدينة ،–القطر :السحاب هنا ،– براق : يبرق ولا يمطر فهو خلب .

(5) الأغاني جزء 14: 150–151

(6) الأغـــــاني جزء 14 : 149 .

2- الوصف المادي للمحبوبة :

ذكر أفلاطون أن إدراك الجمال يكون على مرحلتين ،المرحلة الأولى مرحلة الحس ،ويصل إليها المعجبون عن طريق النظر و السمع وهؤلاء هم الغالب في كل أمة ،فيعجبون بالأشكال والصور ،والألوان والأصوات ، وكل ما دخلت في تركيبه هذه الأشياء من آثـار الفن والمرحلة الثانية مرحلة إدراك كنه الجمال فسماها أفلاطون بمرحلة المعرفة لما فيها من إدراك الحقيقة ، وهي مرحلة لا يصل إليها إلا القادرون على التفكير الحـر فـي الجمـال المطلق وهم قليلون ، يدركون هذا النوع من الجمـال المتجلـي فـي الأشـياء الجميلـة ، فيستطيعون إدراكه مجردا عن هذه الأشياء (1).

ونحن إذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي وجدنا الشاعر يبدو فيه وهو يحمل فـي ذهنـه عناصر كثيرة للجمال ، هي مجموعة القيم المتوارثة ، والقيم الثقافية له ، أي التي ورثها عن أسلافه على أنها عناصر للجمال ،مضافة إلى ما انتزعه من محيطه، فكان لهذا بقر الوحش والظبـاء، والرخام والعاج والماء البارد الصافي موطنا يقتبس منه عناصر الجمـال، كمـا كانت الشمس والقمـر وغيرهما موطنـا لذلك أيضا، ونجـد الـشاعر مـن ناحيـة محبوبتـه يحب واحـدة فـي الغـالب، فيـسميهـا باسمهـا، ويخلـص إليهـا كـل الإخـلاص (2).

لقد اهتم الشعراء بجسم المرأة ، ووصفوه وصفا دقيقا ، وصوروا مواطن الجمال فيه ؛ كل حسب ذوقه ، وبيئته ، وطبيعة حياته .

لقد أعجب الشعراء بالفتاة العربية الصغيرة ، تلك الفتاة التي لاخبرة لديها في الحياة، فهي التي افتتن بها الشعراء، يقول القتال الكلابـي (3):

وإني ليدعوني إلى طاعة الهوى   كواعب أتراب مراض قلوبها (4)

فالشاعر يعترف بمدى تأثير الفتيات الصغار الكواعب ، حتى أنه لا يستطيع مقاومة شراكهن التى قلما تخطئ صيدها .

كذلك فإن الشعـراء أعجبتهم الفتـاة البضـة الغضة ، الناعمة اللينـة ، يقـول حاجز الأزدي واصفا أمامـه (5):

صباحك و اسلمي عنا أمامـا   تحية وامق وعمي ظلامـا

---

(1) الجمهورية لأفلاطون :149 . عن المرأة في الشعر الجاهلي علي الهاشمي :90 .

(2) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 91 .

(3) شعر القتال الكلابي ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(4) الكواعب : جمع كاعب وهي الفتاة التي برز نهداها .– أتراب : متساويات في سن واحدة .

(5) الأغاني ، جزء 13 : 212 .

برهرة يحار الطرف فيهـــــا   كحقة تاجر شدت ختامـــــــا(1)

و المرأة تدرك أن الرجل تستهويه المرأة الشابة ، حسنة الجسم و الخلق ، لـذلك فهـي تستغرب في شيء من التعالي و التكبر ، أن يهيم بها رجل صعلوك ، أشعث الرأس ، يعيش بعيدا مع الوحوش الضارية . يقول عبيد بن أيوب العنبري (2) :

تقول و قد ألممت بالإنس لمــة   مخضبة الأطراف خرس الخلاخل

أهذا خليل الغول والذئب الـذي   يهيم بربات الحجال الهراكـــل

رأت خلق الأدراس أشعث شاحباً   على الجدب بساماً كريم الشمائل

والهراكل هن الشابات حسنات الجسم و الخلق . كذلك فإن الشعراء أعجبوا بأرداف المرأة الكبيرة ، و ذكروها في شعرهم ، و عدوا ذلك من مفاتن المرأة التي تسترعي الانتباه . يقول تأبط شراً (3) :

و تلك لئن عنيت بهـــا رداح   من النسوان منطقها رخيـم (4)

و يشبه السليك أرداف صاحبته بكثيب الرمل المتحرك ، الذي درجت عليه الـريح ، فأردافها كبيرة ، و ناعمة و لينة ، كبر و نعومة و لين هذا الكثيب . يقـول (5) :

كأن مجامع الأرداف منهـــا   نقىً درجت عليه الريح هــارا (6)

أما مشية المرأة ، فشبهوها بمشية الأرخ ، – وهي أنثى البقر التي لم تنتج – التـي شربت الماء و ارتوت ، فثقلت مشيتها . يروى أن تأبط شراً أحب جارية من قومه ، فطلبها زماناً لا يقدر عليها ، ثم لقيته ذات ليلة فأجابته ، و أرادها فعجز عنها فلما رأت جزعه من ذلك تناومت عليه فآنسته ، و هدأ ثم جعل يقـول (7) :

ما لك من .... سليب الخلـــة   عجزت عن جارية رفلّـــــة (8)

تمشي إليك مشية هركلـــــة   كمشية الأرخ تريد العلـــــة (9)

---

(1) برهرة : بضة غضة ، – الحقة بضم القاف : وعاء من خشب أو من عاج .

(2) الشعر و الشعراء : 669 .

(3) ديوان الصعاليك : 167 .

(4) رداح : كبيرة الردفين .

(5) ديوان الصعاليك : 188 .

(6) النقي و (النقا) : كثيب الرمل المتحرك ، – هار : حرّك .

(7) الأغاني : جزء 22 : 148 .

(8) الرفل : الكثير اللحم ، و الطويل ذيل الثياب .

(9) الأرخ : الأنثى من البقر التي لم تنتج ، – العلة : تريد أن تعل بعد النهل ، أي أنها قد رويت ، فمشيتها ثقيلة ، و العلّ : الشرب الثاني.

فالشاعر يستغرب من عجزه عن فتاة كثيرة اللحم، متثاقلة في مشيتها، كمشية البقرة الوحشية، التي تسير ببطء تريد أن تشرب من الماء مرة ثانية، و قد أثقلها الشرب الأول .

ويصور تأبط شراً حسن القوام وبطء المشية بقولــه (1) :

فإذا تقوم فصعدة في رملـــــــة لبدت بريق الديمة لم تغـــدق (2)

وإذا تجيء تجيء شحب خلفها كالأيم أصعد في كثيب يرتقـــي(3)

إنها معتدلة القوام كالقناة المستقيمة،تمشي ببطء كمشية الحية في كثيب الرمل .

إن بطء المرأة وتثاقلها في مشيتها،ينتج عن طبيعة جسمها،الغض اللين غير المؤهل للاعمال الشاقة القاسية،فهي خلقت لبيتها وتربية صغارها،ولا تغادر البيت إلا فـــي أوقـــات قليلة، بعكس الرجل الذي يتحمل الأعباء والمشقات.وربما تكون المشية المتثاقلة مقصودة من قبل المرأة،تعبيراً عن الدلال والزهو بالنفس.

أما الجيد وطـــــــول العنق فمــــن مفاتـــــــــن النــساء التـــي تحـــدث عنهـــا الشعراء،يقول مالك بن الـــريب(4):

كأن النار إذ شبت لليلـــــــي أضاءت جيد مغزلة نـــــــوار

ويشير تأبط شراً الى طول عنق صاحبته، بقولـــه (5) :

نياق القرط غراء الثنايــــا وريداء الشباب ونعم خيـــم (6)

وتحدث الشعراء عن صفاء الخد، وجماله، وإشراقه يقول القتال الكلابي (7) :

فما إن برحنا السجن حتى بدا لنا جبين كقرن الشمس غير مشنج

وخد أسيل من فتاة حييـــــــــة ألا فسقاها كل مزن مبعـــــج (8)

---

(1) ديوان الصعاليك : 151 .

(2) الصعدة : القناة المستقيمة ، – الديمة : الغيمة الماطرة .

(3) الأيم : الحية .

(4) الأغاني : جزء 22 : 308 .

(5) ديوان الصعاليك : 168 .

(6) نياق القرط : طويلة القرط ، كناية عن طول جيدها ، – غراء الثنايا : براقة الثنايا أي الفم و الأسنان ، – ريداء : لينة ناعمة ،

نعم خيم : نعم الطبيعة و السجية .

(7) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك : 650 .

(8) أسيل : تقول خيد أسيل؛ طال و استوى و صار أملساً . – مزن مبعج : أي سحاب ممطر .

و يقـــــول [1]:

يضيء سناها وجه ليلى كأنمـــا   يضيء سناها وجه أدماء مغزل [2]

ومن مفاتن المرأة التي أحبها الشعراء ، بياض البشرة ، و خـــصوصاً و أن اللـــون الغالب على المرأة العربية في الجزيرة ، هو اللون الأسمر مما جعـــل الـــشعراء يمـــدحون البشرة البيضاء للمرأة ، كذلك أحبوا الشعر الأسود المسترسل ، يقول بكر بن النطـــاح فـــي مزج بديع بين بياض محبوبته و سواد شعرها[3]:

بيضاء تسحب من قيام فرعها   و تغيب فيه و هو وحف أسحم[4]

فكأنها فيه نهار ساطـــــــع   و كأنه ليل عليها مظلــــــــم

إن هذه الحبيبة بيضاء صافية نقية طويلة الشعر، فإذا قامت جرتـــه ، و إذا أرســـلته سترها ، فتغيب فيه ، و هو مع طوله و كثرة أصوله كثير السواد شديد الظلمة فكأنهـــا فيـــه لشدة بياضها نهار ساطع من خلال ظلام، و كأن ذلك الشعر لشدة سواده عليها ليـــل مظلـــم يغشى بياض النهار. وقد يكون الشعر الناعم الطويل سلاحا ، تؤثر به المرأة على الآخرين ، يقول مالك بن الريب [5]:

و تصطاد القلوب على مطاهـــا   بلا جعد القرون و لا قصـــــار

أما جمال الفم و الأسنان فقد أكثر الشعراء الصعاليك من التغني بهما و وصـــفهما ، يقول قيس بن الحدادية [6]:

فما نطفة بالطود أو بضريـــــة   بقية سيل أحرزتها الوقائـــــــــع[7]

يطيف بها حران صادٍ و لا يرى   إليها سبيلا غير أن سيطالـــــــع[8]

بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً   من الليل و اخضلت عليك المضاجع[9]

---

(1) السابق : 644 .

(2) سناها : ضوؤها ، الأدماء من النساء : من كان في لونها سمرة .

(3) الحماسة : لأبي تمام : 64 .

(4) الفرع : شعر الرأس ، – الوحف : الكثير الأسود ، – الأسحم : المظلم .

(5) الأغاني : جزء 22 : 308 .

(6) الأغاني : جزء 14 : 148 .

(7) النطفة : الماء الصافي قل أو كثر ، و الجمع نطاف ، – و الطود : الجبل ، – وضرية : بئر .

(8) أطاف به : ألمّ به و قاربه . – حران صادٍ : عطشان . – طالعه : أطلع عليه أي أشرف .

(9) الطارق : الآتي ليلاً . – اخضلت : نديت .

إن فيها أطيب من الماء البارد عند الظمئان الذي لا يجد الماء و لا يقدر عليــه ، و يقول مالك بن حريــم [1]:

كأن جنا الكافور والمسك خالصاً و برد الندا و الأقحوان المنزعا [2]

وقلتاً قرت فيه السحابة ماءهــا بأنيابها و الفارسيّ المشعشعــا[3]

فالشاعر يرى أن الرضابة فيها أطيب من ماء السحابة البارد ، و أطيب من خمــور فارس كذلك فإنه يشبّه أسنانها بالأقحوانة ، و هو تصوير شائع عند العرب .

ومــن الذيــــن شبهــــوا أسنــــان المــرأة بالأقاحـــي لـــشـــدة بياضهـــــــا مالك بن الريب إذ يقــول [4]:

و تبسم عن نقي اللــون عذب كما شيف الأقاحي بالقطــار [5]

وشبهها القتّال الكلابي بالبرد حيث يقــول [6]:

كأن الشفاه الحــو منهن حملت ذرى برد ينهل عنها غروبها

و يصف تأبط شراً بريق أسنان محبوبته و نصاعة لونها قائلاً [7]:

نياق القرط غراء الثنايـــــا و ريداء الشباب و نعم خيــــم

ويقول حاجز الأسدي و اصفاً عذوبة ثغر محبوبته قائـــلاً [8]:

منازل عذبة الأنياب خـــــودٍ فما إن مثلها في الناس نيــــم

و لم ينس الشعراء و هم يتحدثون عن مفاتن المرأة ، و مواطن الجمـــال فيهـــا أن يتحدثوا عن طيبها ، حيث أن الطيب أمر مهــم عنــــد النســــــاء العربيـــات، يقـــول عبيد بن أيوب [9]:

أقاتلتي بطالة عامريــــــــــة بأردانها مسك ذكي و عنبـــــر

---

(1) الأصمعيات : 63 .

(2) الجنى : كل ما يجنى ، – الأقحوان : نبت له نور أبيض ، – المنزع : المنزوع .

(3) القلت : النقرة في الجبل تمسك الماء ، –قرت : جمعت ، – الفارسي : المنسوب إلى فارس ، أراد به الشراب ، و هو الخمر ، المشعشع : الممزوج بالماء .

(4) الأغاني : جزء 22 : 308 .

(5) شيف: زين ، – القطار : المطر .

(6) شعر القتال الكلابي : موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(7) ديوان الصعاليك : 168 .

(8) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك : 2083

(9) السابق : 606 .

ومن الأشياء المؤثرة عند النساء ، رخامة الصوت و لين الحديث ، و هذا أمر محبب عند الرجال ، يؤثر فيهم تأثير السحر ، يقول تأبط شراً [1]:

و تلك لئن عنيت بهـــا رداح   من النسوان منطقها رخيـــم

فالشاعر يمتدح محبوبته برخامة صوتها ويصور صخر الغي الهذلي شدة تـأثير صـوت محبوبته و مقالتها بقولـه [2]:

والله لو أسمعت مقالتهـــا   شيخاً من الزب رأسه لبـــد

مآبه الروم أو تنـــوخ أو الـــ   آطام من صوران أو زبـــد

لفاتح البيع يوم رؤيتهـــا   و كان قبل انبياعه لكـــد

هذه بعض ملامح المرأة المادية التي تعرض لها الصعاليك في شعرهم و اســترعت انتباههم ، حيث تحدثوا عن جمال الوجه ، و طول الجيد ، و حــسن القــوام ، و رخامــة الصوت ، و بطء الحركة ، و كبر الأرداف ، و حلاوة الثغر ، و بريق الأسنان.... إلخ .

و سيأتي إن شاء الله حديث آخر عن ملامح المراة المعنوية و المادية في الفــصل الثــاني ، عند الحديث عن و صف الزوجة معنوياً و ماديا ً . و بذلك تكتمل الصورة و تتضح وتعــم الفائدة إن شاء الله .

---

(1) ديوان الصعاليك : 167 .

(2) ديوان الهذليين : 254 – 255 .

رابعـــاً: وفـــاء المحبوبـــــة:

إن وفاء الزوجة لزوجها في حياته أو بعد موته ليس أمراً مستغرباً عند العــرب ، بل أمراً عادياً تتفاوت فيه النساء ، بحسب النشأة و التربية و الأخلاق و ظروف العــيش ....، بل قد تكون الزوجة وفية لزوجها حتى بعد طلاقها منه ، و مفارقتها إياه ، و هذا مـــا فعلته سلمى الكنانية مع زوجها عروة بن الورد حين فاداها و فضلت أهلها لأسباب قـــاهرة خارجة عن إرادتها ، سأذكرها فيما بعد . فقد جعلها و فاؤها لزوجها تقول فيه كلاماً صادقاً ، يدل على أصالة المرأة العربية ، و حسن أدبها و أخلاقها ، حيث أقبلت عليه و قالت : " يا عروة أما إني أقول فيك ، و إن فارقتك الحق ، و الله ما أعلم امرأة من العــرب ألقــت سترها على بعلٍ خيرٍ منك ، و أغض طرفاً و أقل فحشاً و أجود يداً و أحمى للحقيقة "[(1)].

إن هذا القول من امرأة مفارقة لزوجها يعد أمراً جميلاً ، و لكن الأمر الأجمل هو أن نجد أسمى درجات الوفاء عند المحبوبة ، حيث تظل المحبوبة وفية لمحبوبها تخاف عليه ، و تحفظ عهده، في حياته ، فإن مات بكته بكاء عاليا ، و رثته رثاءً خالداً .

وسأتناول في موضوع وفاء المحبوبة نموذجاً فريداً، من نماذج الوفاء الخالــدة فـــي أدبنا العربي، بطلته شاعرة عربية معروفة أحبت صعلوكاً من صعاليك العرب، أما الشاعرة فهى ليلى الأخيلية، وأما الشاعر الصعلوك فهو توبة بن الحمير، فقد جمعهما حب خالد يعــد من نمـــاذج الحب الفريـــدة في شعرنا العربـــي رغم أنهـــا كانت متزوجـــة غيـــره، وهـــو متـــزوج غيرهـــا .

لقد كانت ليلى تخشى أن يمس توبة أي سوء في حياته ، و ذلك أنهـــا علمـــت أن قومها يترصدونه ، يريدون أن يوقعوا به ، فجلست في طريقه سافرة عن وجهها ، فلما جاء و رآها عرف أن في الأمر شيئاً ، فعاد أدراجه ناجيا بنفسه و قال في ذلك :

و كنت إذا ما جئت ليلى تبرقعــت   فقد رابني منها الغداة سفورها[(2)]

أي شيء يجعل المرأة العربية تتخلى عن نقابها ، و تكشف عن وجهها ؟ ، إنه أمر جلل ؛ ألا و هو خوفها عليه ، و حبها له .

أما وفاؤها له ، فقد تجلى بكل معاني الإخلاص و الحب بعد وفاته ، و هذا أسمى درجات الوفاء ، الوفاء لمن مات و فارق الدنيا ، و انقطع وصله ، حيث بكته بكاءً مراً ، و رثتـــه

(1) ديوان عروة : 62 (الحاشية).

(2) الأغاني : جزء 11 : 198.

رثاءً صادقاً ، فخلدت ذكره ، و نعتته بما لم تنعت به أحداً من أبناء عــصره ، و جعلتــه حديث العامة و الخاصة.

سأل معاوية بن أبي سفيان ليلى الأخيلية عن توبة بن الحمير فقال : ويحك يا ليلى ! أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ليس كل ما يقول الناس حقاً ، و الناس شجرة بغي يحسدون أهل النعم حيث كانوا و على من كانت . و لقد كان يا أمير المــؤمنين سبط البنان ، حديد اللسان ، شجا للأقران ، كريم المخبر ، عفيف المئزر جميل المنظر ، و هو يا أمير المؤمنين كما قلتُ له ، قال : و ما قلتِ له ؟ قالت : قلت و لم أتعــدَّ الحــقَّ و علمي فيــه [1] :

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعــــره ألد ملد يغلب الحق باطلـــــــه[2]

إذا حل ركب في داره و ظلــــــه ليمنعهم مما تخاف نواز لــــه

حماهم بنصل السيف من كل فادح يخافونه حتى تموت خصائلـــــه[3]

فقال لها معاويـــــة : ويحك ! يزعم النـــاس أنــــه كـــان عاهـــــراً خاربــــاً . فقالت من ساعتهـــا [4] :

معاذ إلهي كان و الله سيـــــــداً جواداً على العلات جمّا نوافلـــه[5]

أغرّ خفاجيا يرى البخل سبــــة تحلب كفاه الندى و أناملـــــــه[6]

عفيفاً بعيد الهم صلبا قناتــــــه جميلا محياه قليلاً غوائلــــــــه

وقد علم الجوع الذي بات سارياً على الضيف و الجيران أنك قاتله

وأنك رحب الباع ياتوبُ بالقــرى إذا ما لئيم القلب ضاقت منازلـــه

يبيت قرير العين من بات جــاره ويضحي بخير ضيفه و منازلــه

---

(1) الأغاني ، جزء 11 : 222 .

(2) الألد : الكثير الجدل و الخصومة الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق – و مُلد : وصف من ألددت بفلان إذا عسرت عليه في الخصومة .

(3)) الفادح هنا : الخطب من خطوب الدهر . – الخصائل : جمع خصيلة و هي كل لحمة فيها عصب ، و الظاهر أنها كنت بموت خصائل الفادح عن سكونه و ذهابه .

(4) الأغاني ، جزء 11 : 223 .

(5) على العلات : أي على كل حال من عسره و يسره .

(6) خفاجي : منسوب إلى خفاجة و هو من آباء توبة .

فقال لها معاوية : ويحك يا ليلى ! لقد جزتِ بتوبة قدره . فقالت : و الله يـــا أميـــر المؤمنين لو رأيته و خبرته لعرفت أني مقصِّرة في نعته ، و أني لا أبلغ كُنْهَ ما هو أهلـــه . فقال لها معاوية : من أي الرجال كان ؟ قـــالت [1]:

أتته المنايا حين تم تمامـــــه وأقصر عنه كلّ قرن يطاولـــه

وكان كليث الغاب يحمي عرينه وترضى له أشباله و حلائلـــه

غضوب حليم حين يطلب حلمه وسم زعاف لا تصاب مقاتلـــه [2]

فأمر لها معاوية بجائزة عظيمة . و قال لها : خبريني بأجود ما قلت فيه من الشعر . قالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت فيه شيئاً إلا و الذي فيه من خصال الخير أكثر منه ، و لقد أجدت حين قلت [3] :

جزى الله خيراً و الجزاء بكفــــــــه فتى من عقيل ساد غـــير مكلف

فتى كانت الدنيا تهون بأسرهـــــــــا عليه و لا ينفك جم التصـــرف

ينال عليات الأمور بهونـــــــــــــة إذا هي أعيت كل خرق مشرف [4]

هو الذوب بل أري الخلايا شبيهـــــــه بدرياقة من حمر بيسان قرقف [5]

فيا توب ما في العيش خير و لانـــــدى يعد و قد أمسيت في ترب نفنف [6]

وما نلت منك النصف حتى ارتمت بك ال منايا بسهمٍ صائبِ الوقع أعجف [6]

فيا ألف ألف كنت حيا مسلمـــــــــا لألقاك مثل القسور المتطـــرف [7]

كما كنت إذ كنت المنحى من الـــــردى إذا الخيل جالت بالقنا المتقصف [8]

وكم من لهيف محجر قد أجبتـــــــــه بأبيض قطاع الضريبة مـــرهف [9]

---

(1) الأغاني ، جزء 11 : 223 .

(2) السم الزعاف (و قيل الذعاف بالذال) : القاتل لساعته .

(3) الأغاني ، جزء 11 : 224.

(4) الهونة : الرفق و السهولة . و أعياه الشيء : أعجزه . – الخرق (بالكسر) : السخي ، أو الفتى الحسن الكريم الخليقة .

(5) الذوب : العسل – الأري : العسل أيضا – الشوب : الخلط و المزج – الدرياقة : الخمر – بيسان : بلدة بالشام كانت مشهورة بالخمر – القرقف: أحمر يرعد صاحبها

(6) النفنف : المفازة

(6) النصف هنا : اعطاء الحق ، مثل الإنصاف ، و النصف و النّصفَة – السهم الأعجف : الرقيق .

(7) القسور : الأسد – المتطرِّف : المغير .

(8) القنا المتقصف : المتكسر – و جولان الخيل : كناية عن الحرب .

(9) المحجّر : المضيّق عليه .

فأنقذته و الموت يحرق نابــــــــــــه   عليه و لم يطعن و لم يتنسّف [1]

ودخلت ليلـــــى علـــى الحجاج، فقال لهـــا : يا ليلى ، أنشدينـــا بعض شعرك في توبة، فأنشدتـــه قولهـــا [2]:

لعمرك ما بالموت عار على الفتى   إذا لم تصبه في الحياة المعاير
وما أحدٌ حيّ و إن عاش سالمــاً   بأخلد ممن غيبته المقابـــــر
فلا الحي مما أحدث الدهر معتب   و لا الميت إن لم يصبر الحي ناشر
وكل جديد أو شباب إلى بلــــى   و كل امرئ يوما إلى الموت صائر
قتيل بني عوف فيا لهفتا لــــه   و ما كنت إياهم عليه أحـــــــاذر
و لكنني أخشى عليه قتيلـــــة   لها بدروب الشأم باد و حاضـــــر

وفي رواية أخرى أنها أنشدته قولهـــا [3]:

فإن تكن القتلى بواء فإنكـــــم   فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر[4]
فتىً كان أحيا من فتاة حييـــــة   وأشجع من ليث بخفان خـــــادر
أتته المنايا دون درع حصينـــة   وأسمر خطيٍّ و جرداء ضامـــــر
فنعم الفتى إن كان توبة فاجــرا   وفوق الفتى إن كان ليس بفاجــر
كان فتى الفتيان توبة لم ينـــخ   قلائص يفحصن الحصا بالكراكـــر

فقال لها أسماء بن خارجة : أيتها المرأة إنك لتصفين هذا الرجل بشيءٍ مـــا تعرفـــه العرب فيه . فقالت : أيها الرجل هل رأيت توبة قطّ ؟ قال لا . فقالت : أما والله لو رأيتـــه لوددت أن كل عاتق [5] في بيتك حاملٌ منه ؛ فكأنما فُقِىء في وجه أسماء حبُّ الرمان . فقال له الحجاج : و ما كان لك و لها! [6].

لقد وصل الأمر بليلى أن فضلته على الخلفاء، مما أغضبهم عليها، يروى أن عبــد الملك بن مروان دخل على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فرأى عندها امــرأة بدويــة أنكرهـــا، فقـــال لهـــا : من أنت ؟ قالـــت : أنـــا الوالهـــة الحـــرّى ليلى الأخيلية . قال : أنت التي تقوليـــــن :

---

[1] حرق الأنياب : حكها بعضها ببعض ، و هو كناية عن الغضب – و تنسف في الصراع : قبض بيده على خصمه ثم عرض له رجله فعثره

[2] الأغاني ، جزء 11 : 226 – 227 .

[3] السابق : 228 .

[4] باء فلان بدم فلان : قتله به ، و دم فلان بواء لدم فلان إذا كان كفأً به .

[5] العاتق : الشابة .

[6] الأغاني ، جزء 11 : 228 .

أُريقت جفان بن الخليع فأصبحت ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ حياض الندى زالت بهنّ المـــــراتب [1]
فعفاته لهفى يطوفون حولـــــه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ كما انقضّ عرش البئر و الورد عاصب [2]

قالت أنا التي أقول ذلك . قال : فما أبقيت لنا ؟ قالت الذي أبقاه الله لك . قـــال: و ماذاك ؟قالت : نسباً قرشياً ، و عيشاً رضياً ، و امرةً مطاعة . قال : أفردته بالكرم ! قالت : أفردته بما أفرده الله به . فقالت عاتكة : إنها قد جاءت تستعين بنا عليك فـــي عين تسقيها[3] وتحميها لها . و لست ليزيد إن شفعتها في شيء من حاجاتها ، لتقديمها أعرابياً جلفاً علـــى أمير المؤمنين . فوثبت ليلى فقامت على رجلها و اندفعت تقــول [4] :

ستحملني و رحلي ذات وخــد ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عليها بنت آباء كـــــرام[5]
إذا جعلت سواد الشام جنبـــاً ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ و غلق دونها باب اللئـــــام
فليس بعائد أبداً إليهـــــم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ذوو الحاجات في غلس الظــلام
أعاتك لو رأيت غداة بنّـــــا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عزاء النفس عنكم و اعتزامـــي
إذاً لعملت و استيقنت أنـــي ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مشيعة و لم ترعى ذمامــــي
أأجعل مثل توبة في نـــــداه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ أبا الذبان فوه الدهر دامــــي[6]
معاذ الله ما عسفت برحلـــي ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ تغذ السير للبلد التهامــــي[7]

وأقبل الحجاج على ليلى يوماً فقال لها : بالله يا ليلى أرأيت من توبة أمراً تكرهينه ، أو سألك شيئاً يــُعاب ؟ قالت لا والله الذي أسأله المغفرة ما كان ذلك منه قط . فقال : إذا لم يكن فيرحمنا الله و إياه [8] .

لقد مثلت ليلى نموذجاً رائعاً للمحبوبة الوفية ، التي أحبت فأخلصت فـــي الحـــب ، المحبوبة الحرّى الوالهة التي فُجِعتْ بموت حبيبها ، فرثته رثاءً صادقاً مفعماً بـــالحزن ، و اللوعة و الأسى ، و وصفته بكريم الصفات ، مما جعله حديث الركبان و مجالس السمر .

---

(1) تريد أنه قد مات فأريقت جفانه و مات الندى بموته . و الخليع من آباء توبة .

(2) العفاة : طالبو المعروف – اللهف (بالتحريك) : الحزن و التحسّر ، و الوصف منه لهف ككتف ولهيف ولهفان الورد :الماء المورود – عاصب :جامع ، ويحتمل أن يكون عاصب هنا شديدا،على أن يكون الورد العطش .

(3) تسقيها : تجعلها لها سقيا .

(4) السابق : 230 – 231 .

(5) الوخد : ضرب من السير .

(6) أبو الذبان : كنية عبد الملك بن مروان لشدة بخره و موت الذباب إذا دنا من فيه .

(7) عسفت : سارت و خبطت .

(8) الأغاني : جزء 11 ، 234 .

إن طول الزمن ، لم ينس ليلى توبة ، حيث ظلت وفية له حتى وفاتها ، حيث يروى أن ليلى الأخيلية أقبلت من سفر ، فمرت بقبر توبة و معها زوجها و هي في هودج لها . فقالت : و الله لا أبرح حتى أسلّم على توبة ، فجعل زوجها يمنعها من ذلك ، و تأبى إلا أن تلم بـــه . فلما كثر ذلك منها تركها . فصعدت أكمة عليها قبر توبة ، فقالت : السلام عليك يا توبة ، ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت : ما عرفت له كذبةً قط قبل هذا . قالوا : وكيــف ؟ قالــت : أليس االقائــــل :

و لو أن ليلى الأخيلية سلّمت	**عليّ و دوني تربة و صفائــــــح**
لسلّمت تسليم البشاشة أوزقا	**إليها صدى من جانب القبر صائح**
و أُغبط من ليلى بما لا أنالُه	**ألا كل ما قرّت به العين صالــــح**

فما باله لم يسلّم علي كما قال : وكانت إلى جانب القبر بومـــة كامنـــة، فلمـــا رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل، فنفر فرمى بليلى على رأسها، فماتــت من وقتها، فَدُفِنت إلى جنبه يقول صاحب الأغاني وهذا هو الصحيح من خبر وفاتهـــا [1] .

نماذج من رثاء ليلى لتوبة :

لعل المواقف السابقة توضح مدى وفاء ليلى لتوبة ، و حبها له ، و إخلاصها في هذا الحب و لعل ما قالته ليلى من شعر في رثائه ، يعد نموذجاً فريداً ، حيث بكته بكاء الوالهـــة الحرّى ، و هذه بعض النماذج من رثائها لتوبة . تقـــول [2] :

نظرت و دوني من عمايـــة منكب	**وبطن الركاء أي نظرة ناظـــــر[3]**
إلى الخيل أجلى شأوها عن عقيرة	**لعاقرها فيها عقيرة عاقــــــــر[4]**
فآنست خيلا بالرقـــــــي مغيرة	**سوابقها مثل القطا المتواتــــــر[5]**
لا بصر جيشا من فوارس غاوروا	**فلم تقصر الأخبار و الطرف قاصري[6]**
فإن تكن القتلى بـــــــواء فإنكم	**فتى ما قتلتم آل عوف بن عامــــر[7]**

---

[1] الأغاني : جزء 11 : 229 – 230 .

[2] المنتخب من أشعار العرب – جزء 2 : 287– 289 .

[3] عماية : جبل بنجد ، و سمي عمايه لأنه لا يدخل فيه شيء إلا عمي ذكره و أثره ، بطن الركاء : واد بنجد .

[4] شأوها : سرعتها و جريها ، العقيرة : تعني توبة – أي أن من عقر مثل توبة فقد عقر عقيرة لها شأن .

[5] الرقي : موضع معروف بديار بني عقيل . – المتواتر : الذي يأتي بعضه في أثر بعض .

[6] غاور القوم : أغار عليهم .

[7] باء فلان بدم فلان : عدله ، و باء بفلان قتله له .

وإلا يباوئه السليل فإنكـــم ستلقون يوماً ورده غير صــادر[1]
فإن يك عبد الله آسي ابن أمـه وآب بأسلاب الكمي المغــاور[2]
وظل كذات البو تضرب حولـه سباعا و قد ألقينه في الجراجــر[3]
فلا يبعدنك الله يا توب إنمـا لقاء المنايا دارعاً مثل حاســر[4]
أتته المنايا دون زغف حصينـة وأسمر خطي و كبداء ضامــر[5]
تـوارده أسيافهم و كأنمـا تصادرن عن صافي الحديدة باتــر[6]
من الهند وانيات في كل قطعـة دم زل عن بادٍ من الأثر داثــر[7]
فنعم الفتى إن كان توبة فاجــر ونعم الفتى إن كان ليس بفاجــر
فتىً هو أحي من فتاة حييـة وأجرأ من ليث بخفان خــادر[8]
فتىً كان للمولى سناءً و رفعـةً وللطارق الساري قرىً غير قاتــر[9]
فتىً لا تخطاه الرفاق ولا يــرى لقدرٍ عيالاً غير جارٍ مجــاور
كأن فتى الفتيان توبة لم ينـخ قلائص يفحصن الحصا بالكراكــر[10]
جنوحاً بموماة كأن صريفهـا صريف خطاطيف الصرى في المحاور[11]
ولم يبن أبراداً دقاقـا لفتيةٍ كرامٍ ، و يرحل قبلهم في الهواجــر[12]

---

[1] يباوئ : يساوي ، السليل : هو السليل بن ثور قتله توبة و كان شريراً نظير توبة في القوة و البأس .

[2] عبد الله : أخو توبة ، و كان قاتل مع توبة حتى قتل توبة ، – الكمي : الشجاع ، –المغاور : أصحاب الغارات .

[3] ذات البو: الناقة، و البو: جلد الحوار يحشى قشا، و يقرّب من الناقة لتدر عليه، –الجراجر : الحلوق .

[4] الدارع : اللابس السلاح ، و الحاسر ضده .

[5] الزغف : اللينة من الدروع ، – الأسمر الخطيّ : الرمح ينسب على الخط ، – الكبداء : العظيمة الوسط ، و في الديوان خمصاء ، و هي التي غارت عيناها من الجهد .

[6] توارده : أي تداولته سيوفهم واحداً بعد الآخر .

[7] سيف مهند ، و هندواني ، و هندي : صنع في الهند و أحكم عمله ، – أثر السيف : رونقه و فرنده .

[8] خفّان : مأسدة قرب الكوفة – الخادر : مقيم في خدره . أي أجمته .

[9] المولى : ابن العم و الجار و الحليف ، – الطارق : الذي يأتي ليلاً ، – الساري : الذي يسير بالليل ، – القِـرى : ما يقدم للضيف من طعام ، – القاتر : المضيق على من حوله .

[10] القلائص : جمع قلوص ، و هي الناقة الشابة القوية ، – الكراكر : جمع كِـرْكِـرة و هي رحى زور البعير أو صدره . مدحته بالسير في الهواجر وذلك أن الإبل إذا أنيخت في الهاجرة فحصت بكركرتها الأرض تطلب برد الثرى .

[11] الموماه : الفلاة لا ماء فيها . الصريف : الصوت . – الخُطّاف : حديدة حجناء في جانبي البكرة يكون فيها المحور . الصّرى : الماء المجتمع .

[12] ابراداً رقاقاً : أي أخبية تقي حر الشمس .

ولم يدع يوماً للندى حين ببتغـــي وللحرب يرمي نارها بالشرائـــــــر
وللبازل الكوماء يرغو حوارهــــا وللخيل تعدو بالكماة المساعـــــــر[1]
فليس شهاب الحرب يا توبة بعدهـا بغازٍ و لا غادٍ بركب مسافـــــــر[2]
وكنت إذا مولاك خاف ظلامـــــةً دعاك ، و لم يقنع سواك بناصــــر
وقد كان قبل الحادثات إذا انتحـــى وسائق أو معبوطة لم يغـــــادر[3]
وقد كان موهوب السنان و بين الــ لسان و مجذام السُّرى غير فاتــر[4]
وداعٍ على مكروهة قد أجبتــــــه على الهول منها ، و الحتوف الحواضر
ولا تأخذ الكوم السمان سلاحهــــا لتوبة في نحس الشتاء الصنابـــر[5]
إذا ما رأته مقبلا بسلاحــــــــه تقته الخفاف بالثقال البهـــــارز[6]
قرى ضيفه شحم السنام و سيفـــه مشاش مصابيح السباط المشافـــر[7]
فتىً ليس تبني بيتها أم عاصـــم على مثله أخرى الليالي الغوابـــر[8]
طوت نفعها عنا كلاب و أوســـدت بنا أجهليها بين عاوٍ وشاعـــــر[9]
و قد كان حقا أن تقول سُراتهـــم لعاً لأخينا عالياً غير عاثـــــر[10]

---

[1] البازل : البعير استكمل الثامنة و طعن في التاسعة ، و ذلك زمن قوته و استحكامه ، يستوي فيه المذكر و المؤنث ، الكوماء : عظيمة السنام ، الحوار : ولدالناقة ،– الكماه : جمع كمي الذي لا يدرى كيف يؤتى .– المساعر : جمع مسعر وهو من يشعل الحرب ويقودها .

[2] تقول : لا يقود الخيل بعك احد مثلك . شهاب الحرب : رجلها و مِسعرُها ، شبهته بالنجم المنقض .

[3] الوسائق : الطرائد من الإبل ، تقول : كأن ابن عمك إذا طُردت طريدة لم تبطئ عليه ، و لم تتخلف ، – المعبوطة : المنحورة بغير علة .

[4] مجذام السُّرى : رجل مجذام و مجذامة : قاطع للأمور فيصل ، و رجل مجذامة للحرب و السير .

[5] يقال : أخذت الإبل سلاحها و رماحها إذا سمنت فيبخل صاحبها بنحرها ، فكان سمنها سلاحها يقيها النحر ، – و النحس : الرياح الباردة ، – الصنابر : البرد .

[6] تقاه و اتقاه بمعنى واحد ، – البهارز : العظام الضخام ، و المفرد بهرزة .

[7] قرى ضيفه : قدم القِـرى و هو الطعام الذي يقدم للضيف ، قدّم له لحم السنام ، كما قرى السيف المشاش ، و هو رؤوس العظام ، مثل الركبتين و المرفقين . و المفرد : مشاشة . و المصابيح : جمع مصباح و مصبح : و هو من الإبل التي تصبح في مبركها لا ترعى حتى يرتفع النهار ، و هو مما يستحب من الإبل، و ذلك لقوتها و سمنها ، – السباط المشافر : الطويلة المشفر ، و المشفر للبعير كالشفة للإنسان .

[8] أم عاصم : امرأة توبة ، على أنها لا تعرف كليهما مذلة أبداً .

[9] أوسدت : دعت و أغرت ، تستعمل للكلب في الصيد ، إذا أغريته به .

[10] لعا : دعاء للعاثر معناه انتعش .

و قالت ترثيـــــه [1]:

كم هاتفٍ بك من باكٍ و باكيـــــــــةٍ ... يا توب للضيف إذ تدعى وللجـــــار
و توب للخصم إن جاروا و إن عدلوا ... و بدلوا الأمر نقضاً بعد إمـــــــرار
إن يصدروا الأمر تطلعه مـــــــوارده ... أو يوردوا الأمر تحلله بإصـــــــدار

و قالت ترثيـــــــه [2]:

هراقت بنو عوف دماً غير واحدٍ ... له نبأ نجدية سيغـــــــــــــور
تداعت له أفناء عوف و لم يكن ... له يوم هضب الردهتين نصير [3]

وقالت ترثيـــــــه [4]:

يا عين بكّي بدمعٍ دائم السجـــــم ... و ابكي لتوبة عند الروع و البهـــم [5]
على فتىً من بني سعد فجعت بـــه ... ماذا أُجنّ به في الحفرة الرجـــــــم
من كل صافية صرف و قافيـــــة ... مثل السنان و أمر غير مقتصـــــــــم
ومصدر حين يعيي القوم مصدرهم ... و جفنة عند نحس الكوكب الشبـــم [6]

---

[1] الأغاني : جزء 11 : ص 220 .

[2] السابق : 220 .

[3] أفناء الناس : أخلاطهم و هم النزّاع من هاهنا و هاهنا .

[4] السابق : 220 .

[5] السَّجَم : ظاهر أنها تريد دائم القطران، فحركت الجيم للشعر، أما السجم بالتحريك فهو الماء والدمع .
البهم هنا : مشكلات الأمور و احدتها بهمة (بالضم) .

[6] الشبم : البارد . و نحس الكوكب الشبم كناية عن الشتاء .

أولاً : مكانة الزوجــة في الشعر الجاهلـــــي

حظيت الزوجة في الشعر الجاهلي بمكانة بارزة، ربما تلي مكانة المرأة المحبوبــة حيث أن الشعر الجاهلي رسم لها صورة واضحة متكاملة، أظهر فيها بجلاء صورة المــرأة العربية الزوجة، شريكاً أساسياً للرجل في الحياة، تشاركه همومه وأحزانه، كمــا تــشاركه أفراحه، وتقف بجانبه في العسر واليسر، يجلس إليها فيفضي لها بما يخــتلج فــي صــدره، ويشغل باله، ويكدر صفو حياته، فيجد قلباً، حانياً، وأذناً واعية، يقول فتصغي لــه، ويــأمر فيطاع، ويطلب فيلبى طلبه، بنفس راضية مطمئنة، كذلك نجد الزوج يستمع لأرائها بعنايــة، ويتقبل هذه الآراء في كثير من الأحيان، فكثيراً ما يصور لنا الشاعر لومها لــه، وخوفهــا عليه، وحرصها علي حياته، وماله وعياله، وتبرمها من طيشه ولهوه، بينما يحاول هــو أن يحاورها ويحاول إقناعها بشيء من الهدوء، والعطف والحنان والود، الذي يدل دلالة واضحة على عقلية العربي الذي ظل على الدوام يحترم المرأة، ويعرف لها قدرها، ويحــافظ علــي شعورها.

لكــن ربما نجده يغلظ عليهــــا إذا ما تجاوزت الحد فــي اللوم أو تــدخلت فــي بعض شؤونه.

إن رقي مكانة المرأة الزوجة في الجاهلية جعلت الكثير مــن الــشعراء يفتتحــون قصائدهم بذكرها، يتوددون إليها، ويحاولون استرضاءها، ويتغنــون بوصــفها فــي حلهــا وترحالها، فهذا زهير بن أبي سلمي يبدأ معلقته بذكر " أم أوفي " ويسهب في وصف آثارها ورحلتهــا [1].

وإذا كان الشعر العربي يزخر بالشعر الذي أبدع أصحابه في وصف المحبوبة وصفاً معنوياً وحسياً، حتى أنهم لم يتركوا شيئاً يخصها إلا وصفوه، فإن الشاعر العربي أيــضاً لا يجد حرجاً أيضاً في وصف الزوجة وصفاً حسياً وخصوصا في أوقــات المعــارك، يقــول عمرو بن كلثوم[2]:

على آثارنـــا بيض حســـــان   نحـــــــاذر أن تقسم أو تهـــونا

---

(1) انظر المعلقة في شعر زهير بن أبي سلمي .للأعلم الشنتمري ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ص9 وما بعدها .

(2) شرح القصائد المشهورات ، ابن النحاس ،ج2 :122– 126 .

إذا مارحـــــن يمشين الهوينا ** **كما اضطربت متون الشاربينـــــا

يقتـــــن جيادنـــا ويقلن لستم ** **بعــولتنـــا إذا لـــــم تمنعـــونـــا

فالمرأة تحتاج إلى الرعاية، والمحافظة، ولا يتأتى ذلك إلا بالتضحية من أجلها بكـــل غالي ونفيس، فيجب على الرجل الجود بنفسه رخيصة في ساحات الوغى من أجل زوجته، يقول الأعشى واصفاً نساء العرب وزوجاتهم في معركة " ذي قار " التي انتصر فيها العرب على الفرس:

لما أتونا كـــــأن الليل يقــدمهم ** **مطيق الأرض يغشـــاها بهم سَدَفُ [1]

وُظعْنُنَا خلفنـــــــا كُحْلَاً مَدَامعهُا ** **أكبـــادُها وُجفُ مما تـــــرى تجفُ [2]

حواسِرَ عن خدود عـــاينتْ عِبَراً ** **ولاَحَها وعَلاهـــا غُبرْةُ كُسُـــــفُ [3]

من كل مرجانةٍ في البحر أخْرَجَها ** **غَوَّاصُها ووَقَّاهــــا طينُهَا الصَدَف [4]

وقد نجد الشاعر العربي يصفها وصفاً معنوياً بديعاً، يصور فيـــه حيـــاء الزوجـــة وعفتها، وكرمها، وحسن علاقتها بجيرانها، يقول الشنفرى[5]:

لقد أعجبتني لا سقوطاً قنـــاعها ** **إذا ما مشت ولا بذات تلفـــت

تحل بمنجـــاة من اللـــوم بيتها ** **إذا ما بيـــوت بالمـــذمـــة حلت

كأن لها في الأرض نسياً تقصه ** **على أمهـــا وإن تحـــدثك تبلت

أميمه لا يخزي نشـــاها حليلهـــا ** **إذا ذكـــر النسوان عفت وجلت

إذا هو أمسى آب قرّة عينـــــه ** **مآب السعيد لم يسل أين ظلت

وكانت المرأة إذا خالفت زوجها في الرأي، إنما تعمل على أداء واجبها الاجتمـــاعي في تقويم ما اعوج منه، ولفت نظره إلي ما يجب أن يعنى به، وفي أداء الزوجة لهذا الواجب دليل علي مقدار الحرية الواسعة التي كانت المرأة تتمتع بها في الجاهلية [6].

---

(1) السُدْفة : الظلمة .

(2) الظعينة : الزوجة ، المدامع : جمع مدمع وهي العين ، تجف : تخفق .

(3) كُسُف : جمع كاسف وهو المهموم .

(4) الديوان : 347 . شرح محمد محمد حسين . المكتب الشرقي للنشر .بيروت _ لبنان .

(5) المفضليات : 109، ديوان الصعاليك : 16 .

* الشنفرى شاعر جاهلي صعلوك من بني الحرث بن ربيعة ، من الأزد، والشنفري لقبه هو أبن أخت تأبط شرأ، ضرب به المثل في العدو ، والمكر والدهاء ، له ديوان شعر مطبوع ومن أشهر شعره (لامية العرب) .

(6) المرأة في الشعر الجاهلي . علي الهاشمي : 144 .

وقد نجد العربي في كثير من شعره، يستمع لرأيها، ويحاورها حواراً هادئاً، محاولاً إقناعها بوجهة نظره، يقول حاتم الطائي مصوراً لومها له علي بذل ماله [1].

وعاذلةٍ هبَّت بليل تلــومُنـــي وقد غاب عَيوقُ الثريا فعّــردا [2]

تلوم على إعطائي المال خلةً إذا ضن بالمال البخيلُ وصـــرَّدا

تقول ألا أمسك عليك فـــإنني أرى المال عند الممسكين معبَّدا[3]

ذريني وحالي إن مالك وافر وكل أمرىءٍ جار علـــى ما تعودا

إنه يحاورها حواراً هادئاً، بسعة صدر، وطول بال، محاولاً إقناعها على أن تكــف عن لومه بحدّة فيقول[4]:

أعاذلَ لا آلــوكِ إلا خليقتـــي فلا تجعلي فــوقي لســـــانك مبْرَدَا

ذريني يكُنْ مالي لعرضي جُنَةً يقي المالُ عرضي، قبل أن يتبدد ا[5]

أريني جواداً مات هزلاً لعلنـــي أرى مـــــا تريــن، أو بخيلاً مخلدا

وإلا فكفَي بعض لومك واجعلي إلى رأي من تَلْحيْن رأيك مُسْنــدَا[6]

كذلك نجده يحاورها حواراً رزيناً، ينم عن شخصية متزنة، تعرف للمـــرأة قـــدرها، ويقدر حرصها علي ماله ونفسه وعيالـــه[7].

وهذه الصورة للمرأة نجدها واضحة في شعر الصعاليك، الذي يزخر بالحوارات بين الزوج وزوجته ، وهذا ما سيتم تفصيل القول فيه لاحقاً.

والزوجة تحب أن يظل زوجها مستقيماً، يحافظ على علاقته السليمة بها دون إسفاف، أو عكوف على الهوى والخمر، والانغماس في الملذات، والملهيات، لما فيه مـــن اعوجـــاج للخلق، وبعد عن الفضيلة، يقول الأعشى[8]:

ذريني لك الويلات آتي الغوانيا متى كنت زرّاعاً أسوق السوانيا

ولكن المرأة إذا ما تمادت في لوم زوجها، وخرجت عن الحدود التي رســـمها لهـــا، وتدخلت فيما لا يعنيها، فحينها قد تجد العربي قاسياً عليها، شديداً يُعنفها ويغلظ القول لهـــا،

---

(1) الديوان : 74 .

(2) عيوق الثريا : هو النجم الذي يتلو الثريا ولا يتقدمها . عرّد : مال للمغيب .

(3) المال المعبد : المال المعبود .

(4) الديوان : 74 .

(5) جُنَّه : وقاية .

(6) تلمين : تلومين .

(7) انظر الديوان ص 78,83,104 .

(8) الديوان : 365 .

يقول عنترة لامرأة له من بُجيْلَة لا تزال تذكر خيله وتلومه علي جواد كان يؤثره، ويطعمه ألبان إبله [1]:

لا تذكري مهري وما أطعمته	**فيكون جلك مثل جلد الأجــرب**
إن الغَبوُق له وأنت مســـــوءةُ	**فتأوهي ما شِئتِ ثم تحــوّبي [2]**
كذب العتيق وماء شَنٍّ بــــاردٍ	**إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي[3]**
إن الرجال لهم إليك وسيلـــةً	**إن يأخذوك تكحلي وتخضبي**
ويكون مركبك القعودُ ورَحْلُهُ	**وابــن النعامة يومئذٍ مركبي**

والعربي كان دائم الغيرة علي زوجته، محباً لها، يسعي لحمايتها، ويحاول إبعادها عن عيون الآخرين، يقول الأعشى واصفاً غيرة أحد الأزواج علي زوجته[4]:

لها ملك كان يخشي القراف	**إذا خالط الظن منه الضميــرا [5]**
إذا نزل الحي حـــل الجحي	**ش شقياً غوياً مبيناً غيـــوراً [6]**
يقول لعبــديه حثــا النجــاء	**وغضا من الطرف عنا وسيــرا[7]**
فليس بمرع علـــى صـــاحب	**وليس بمـــانعــه أن تحـــورا[8]**
وليـــس بمانعها بابهـــــا	**ولا مستطيـــع بهــا أن يطيــرا**
فبـــان بحسنـــاء بـــراقــــة	**على أن في الطرف منها فتورا**

كذلك فإن الزوج في الجاهلية، يري أن من الرجولة أن يحافظ علي امرأته، ويقوم سلوكها، ولا يرضي منها إلا بالطاعة والموافقة، وحفظ الأمانة الزوجية ويرى أن الرجل الذي لا يكون كذلك فهو والنساء سواء ، بل نجد العربي أحياناً يلجأ إلي ضرب زوجته، وهذا كله ما أجمله الشنفرى في قولـــه[9]:

إذا أصبحت بيــن جبــال قوٍّ	**وبيضان القُرى لم تحذريني[10]**

---

[1] الديوان :108 .

[2] الغبوق : شراب العشي . ، التحوب : التوجع .

[3] العتيق : التمر . ، الشن : القربة الخلق الصغيرة .

[4] الديوان : 129 _130 .

[5] القراف : المخالطه .

[6] [5]لجحيش : المكان المنعزل البعيد .

[7] النجاء: السير السريع .

[8] المُرْعِ :اسم فاعل من أرعى ، مثل أبقى _ مبقٍ .

[9] ديوان الصعاليك : 54 .

[10] القو : موضع بين البصرة والكوفة كان ينزله المسافرون .– بيضان : جبل لبني سليم بالحجاز .

سأخلي للظعينــــة مـــا أرادت **ولست بحارس لك كل حين**[1]
إذا ما جئت ما أنهـــاك عنـــه **ولم أنكر عليك فطلقينـــــــي**
فأنت البعل يومئذٍ فقومــــــي **بسوطك لا أبالك فاضربينـــي**

والمرأة بطبيعتها تميل إلي الشباب في الزوج، وتبغض الشيخوخة والهرم، فهي تحب أن تري زوجها شاباً علي الدوام، وهذا ما نجده في شعر كثير من الشعراء الجاهليين يقول عبدة بن الطبيب[2]:

فإن تسألوني بالنســـــاء فإنني **بصير بأدواءِ النســـاء طبيبُ**
إذا شاب رأس المرءِ أو قل ماله **فليس لـــه مـــن ودهن نصيب**
يردن ثراء المال حيث علمنــــه **وشرخ الشباب عندهن عجيب**

فالمرأة تحب الزوج الشاب الغني كثير المال، وهذا ما تمنته بنت ذي الإصبع العدواني حين قالت[3]:

ألا ليت زوجي من أناسٍ ذوي غنى **حديث الشباب طيبُ الريح والعطْرِ**
طبيب بأدواء النساء كأنــــــــه **خليفة جان لا ينـــام علـــى وتْر**

ومهما يكن فإن الرجال كانوا شديدي التعلق بأزواجهم يقدسونهن، ويعشقونهن وكان رباط الزواج المقدس كبير القيمة في نظرهم، لهذا كان تعرضه للتصدع أو لأي لـــون من ألوان الكدر أمراً تستعظمه نفوسهم الكبيرة[4].

فالزوجة كانت حبيبة وزوجة، وأم عيال، وشريكة حياة، تقول فيسمع لقولها، وتشير فينظر في رأيها، وتحاور زوجها بحرية، فيحاورها حواراً هادئاً فيه من الود والمحبة ما فيه، وهذا ينم عن مكانة مرموقة، احتلتها الزوجة في العصر الجاهلي، كركن أساسي في بنـــاء نسيجه الاجتماعي.

(1) الظعينة : الزوجة المسافرة في الهودج .
(2) الشعر والشعراء ، الجزء الأول : 146 .
(3) المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي : 168 .
(4) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 146 _ 147 .

ثانياً : حضور الزوجة في شعر الصعاليك

ظلت الزوجة حاضرة حضوراً بارزاً في شعر الصعاليك، حضوراً فاق حضور المحبوبة في شعر كثير منهم، وهذا ينم عن مكانة عالية تبوأتها الزوجة عند زوجها، فالصعلوك يرى في الزوجة كائناً، يستحق التقدير والاحترام، تشاركه أفراحه، وأحزانه، وتتحمل معه أعباء الحياة، وتقف معه وإلى جانبه في السراء والضراء، إن الزوجة بالنسبة له تمثل الحاضر والواقع الذي يعيشه، الواقع الذي يحب العمل من أجله، والسعي من أجل توفير الحياة الكريمة له، إن الزوجة في شعر الصعاليك هي تلك المرأة المحبة لزوجها، والحريصة على حياته ونفسه وماله.

وقد اتخذ الحديث مع الزوجة في هذه الأحاديث الاستهلالية أشكالاً متعددة، فكان يخاطبها بلهجة مفعمة بالود والتحبب، وبألقاب متنوعة، فيها تكريم وإشعار بالعزازة0 والزوجة في شعر الصعاليك غيرها في شعر الأمراء وأبناء البيوتات، وهي تختلف في شعر شاعر منهم عنها في شعر شاعر آخر، فعروة بن الورد مثلاً وهو أحد الصعاليك كان عطوفاً، محباً لزوجته، وهذا يظهر جليا في مخاطبته لها ، في كثير من شعره،لذلك نجدها حاضرة على الدوام في حوارات هادئة، تنم عن علاقة ود وحب تربطهما، وكذلك نجد أن النساء ما كانت ترغب في تأبط شراً لمغلاته في الخشونة في حياته، كذلك كان الشنفري خشناً في معاملاته مع زوجته، وكان قيس بن الحدادية محباً لزوجته مثل عروة، وهي تحبه وتخشى عليه الأخطار[1].

إن شعر الصعاليك يصور لنا المرأة الزوجة على أنها تلك المرأة المحبة لزوجها والمتوددة له، التي تحمل همه، وتخاف عليه، فتلومه حيناً، وتزجره حيناً، وتبكي عنده ومن أجله حيناً آخر، كما يظهر شعرهم صبرهم على نسائهم في رفق ولين ومحبة وتقدير، فشعر عروة، والشنفري، وتأبط، وعمربن بواق، وقيس بن الحداديه، وأبي خراش، وعبدة بن الطبيب والسليك وغيرهم، يزخر بالحوارات الهادئة مع الزوجة مما يدل على حضورها البارز في شعرهم .

---

[1] أنظر المرأة في الشعر الجاهلي ،على الهاشمي : 141 – 142 .

ثالثاً : صفـــات الزوجـــة

1 – الصفـــات المعنـــويـــة :

إذا كان الشعر الجاهلي الغزلي منصباً علي الحبيبة، فـــإن الزوجـــة فـــي شـــعر الصعاليك تمثل في كثير من الأحيان المحبوبة التي يشتاق لها زوجها، ولا يجد حرجاً فـــي ذكرها والتودد إليها، بشوق وحرقة، ولعل الحياة القاسية التي كان يحياها الصعاليك و التـــي فرضت عليهم العيش بعيداً في مجاهل الصحراء، حيث السفر الطويل، والغـــزو المتكـــرر، والغربة عن الأهل، كل هذا جعل الصعلوك دائماً يتوق إلي الحياة المستقرة الهانئة في حضن بيت دافئ، وزوجة عطوفة .

إن هذه الزوجة كانت كثيراً ما تلفت نظر الشاعر الصعلوك بصفاتها المعنوية، التي يحبها العرب عادة في نسائهم، بل هي الصفات التي يسعد المرأة ويشرفها أن توصف بهـــا، يقول الشنفرى في زوجته، واصفاً إياها وصفاً روحياً سامياً[1]:

لقد أعجبتني لا سقوطاً قنـــاعها إذا مـــــــا مشت ولا بذات تلفت

تبيت بعيد النوم تهدي غبـــوقها لجارتهـــــا إذا ما الهدية قلّت[2]

تحل بمنجاة من اللوم بيتهـــــا إذا مـــــــا بيوت بالمذمة حلت[3]

كأن لها في الأرض نسياً تقصّه علـــــــى أمها وإن تكلمك تبلت[4]

إن زوجه الشنفرى كما يروي هو امرأة كريمة، عفيفة، بعيدة عن الريبـــة، شـــديدة الحياء،وقناعها لا يسقط عنها لشدة حيائها، كما أنها لا تكثر التلفّت، لأن هذا الفعل من أفعال الريبة، وهي امرأة كريمة، تهدي لجارتها الشراب في وقت يعم فيه الجدب، ويقل فيه الطعام، وإذا مشت تمشي بحياء، كالذي يبحث عن شيء فقده، فلا تكاد ترفع رأسها، إن هذه الصفات الخُلُقيّة من أفضل الصفات التي تحرص المرأة العربية على أن توصـــف بهـــا، ويحـــرص الزوج على وجودها في زوجتـــه.

كذلك فهي زوجة أمينة تحفظ سرّ زوجها، ولا تفشيه، ولا تذكر زوجها أمام النـــاس إلا بما يجب، عفيفة تقرّ في بيتها ولا تغادره، يقـــول[5]:

---

(1) المفضليات : 109 .

(2) الغبوق : ما يشرب بالعشي .

(3) المنجاة : مفعلة من النجوة وهي الارتفاع .

(4) النسي : الشيء المفقود، – تقصه : تتبعه ،– أَمّها : قصدها .

(5) المفضليات :109 .

أميمةُ لا يُخْزِي نَثَاها حليلَهـــا إذا ذُكِرَ النســوانُ عفَّتْ وَجلَّت [1]
إذا هــو أمسى آب قرّة عيــنه مــآب السَّعيد لم يسل أين ظلَّت [2]

قال الأصمعي " هذه الأبيات أحسن ما قيل في حق النساء وعفتهن "[3].

إن الصعلوك كثير التنقل، يطيل البعد عن بيته وزوجته، لذلك نجده يعجــب بهــذه الصفات في المرأة، لأنه أحوج الناس لزوجة، وفيَّة، تصون نفسها، وتقرّ في بيتها،وتحــافظ على شرفه، فلا تهتك له سراً، ولا تعص له أمراً ولا تفشي لها سراً، وبذلك نجده ينطلق في رحلة البحث عن الرزق هادئ البال، مطمئناً إلى أن خلفه زوجة عــصية علــى الأهــواء، جمعت كل الصفات الحسنة، في مجتمع تنكر له، فلا عهد ولا ذمة ولا وفاء مجتمع لا يعرف إلا الغدر، والخديعة، يتربص به في كل وقت وكل حين فلا يشعر فيه بالطمأنينة، والراحــة النفسية التي يطمع إليها، لذلك فهو يجدها متجسدّة في زوجته، فيجد فيها الصدر الحنون الذي يفتقده، والوفاء الذي يتمناه، والصلة التي قطعت، والراحة والدعة التي يفتقدها، إنه الحــضن الدافئ الذي يجد فيه مالا يجده في مجتمعه.

لذلك نجد العرب يحرصون على الزواج من الشريفة العفيفة، التي نشأت منشأً حسناً، حيث أنها ستصبح مسئولة عن بيتها وزوجها وأبنائها، فصلاحها صلاح لأبنائها، وهذا مــا يشير إليه عبيد بن أيوب العنبري حين يقــول[4]:

وأول خُبْثِ الماءِ خُبْثُ تُرابِــه وأولُ خُبْثِ النَّجلِ خُبْثُ الحَلائِلِ

فالمرأة الخبيثة السيئة، تثمر ثمرة خبيثة، وهو مالا يرغب فيه العرب في الجاهليــة وأيده الدين الجديد حين قــال ﷺ " **إياكم وخضراء الدمن** " **قيل وما خضراء الدمن ؟ قــــال** " **المرأة الحسناء في المنبت السوء** ".

أن زوجة الصعلوك تحب زوجها، تخاف عليه من مخاطر الصعلكة، التي لا حــدود لهــا، وتظل قلقة من المجهول الذي ينتظره، فلا تطمئن ويهنأ بالها إلا إذا وجدته بجانبهــا، قريبــاً منها، وفي هذا تجد سعادتها، يقول عــروة[5]:

تقول: سليمى لو أقمت لسرَّنا! ولم تدر أنــــــي للمقام أطوّفُ

---

[1] النثا : حديث المرأة عن زوجها حسن أو سيء ، – حليل : زوج .
[2] آب : رجع .
[3] المضليات :109 (هامش الصفحة) .
[4] الحيوان للجاحظ ، جزء 5 :138 تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الثانية مطبعة الحلبي القاهرة – مصر1966م .
[5] الديــــوان : 87 .

إن حب الزوجة لزوجها، يجعلها تحاول استمالة قلبه، واستعطافه عن طريق البكاء، من أجل أن يدع الغزو، ويبقى بجانبها، لأنها لا تطيق فراقه ولا تقدر على العـيش بدونـه، يقول عـروة[1]:

تقول: ألا أقصر من الغزو واشتكى   لها القول، طرف أحور العين دامع

سأغنيك عن رجـــع الملام بمُزْمِع   من الأمر لا يعشو عليه المطاوع [2]

لعل أبرز ما يميز هذين البيتين ظاهرة الحزن المتبدية في عيني زوج الـصعلوك، حيث استطاع، بما أوتي من ملاحظة دقيقة، أن يتفهم لغتهما، ويكشف أسرارهما، لأنهما مرآه النفس، وينعكس فيها ما تستنبطه النفس من مشاعر وأحاسيس، لذلك راح يديم النظـر فـي عينيها، وما تحتبسهما من دموع أفرزتها مشاعر الحب والخوف والحزن، والرجاء، فهنـاك أشياء يعجز لسان المرأة عن البوح بها إلى شريكها، لأنها تبقي عصية على أن تتـشكل أو تتكون في كلمات، وعلى الشريك أن يفهم وحده ما يدور في خلدها من مطالـب ورغبـات، وعروة – ذلك الصعلوك الفارس– يُحِسُّ بزوجته، ويعلم ما ينتابهـا مـن مـشاعر القلـق والخوف، بل يستجيب لظلال الحزن المرتسمة في عينيها، ولكنها استجابة تتحقق وفق أسلوبه في الحياة، فالحزن في عينيي الحبيبة بقدر ما يثير الشفقة، ويوقد مشاعر الحـب، ويـضفي على عينيها جمالاً مشوباً باللطف والسكينة والوداعة، يكون دافعاً للصعلوك، ومحرضاً لـه على تأمين الحياة الحرّة الكريمة لحبيبته، ولكي يؤمن لها الحياة التي تليق بها، بعيـداً عـن الفقر والذل والهوان، لابد من أن يتابع غزواته، ويستمر في غاراته، ويواجه المـوت كـل لحظه، لكي ينتزع منه أسباب الحياة التي ينشدها مع عائلته.

فالحزن في العيون، ليس له تأثير سلبي على الصعلوك، فهو لا يهزمه ولا يضعفه، ولا يقف حائلاً بينه وبين عزيمته – علماً بأنه أشد وقعاً علي المرء من اللغة المحكية – بل على العكس من ذلك تتجلي ايجابيته في كونه عاملاً فاعلاً، ومحركاً يدفع مسيرة الـصعلوك إلي المثابرة من غير تردد أو تريث، حتى يحقق المجد لأسرته ومجتمعه الجديد.

وأشار عروة في موضع آخر لجمال زوجته بشكل عام فقـال:

فراشي فراشُ الضيفِ والبيتُ بيتهُ   ولم يلهني عنه غـــزالٌ مقنعُ

أحدثـــه إن الحديث مــن القِرى   وتعلمُ نفسي أنه سوف يهجعُ [3]

---

[1] الديـــوان : 82 .

[2] مزمع : من أزمع الأمر أي قرّره ، وأثبت عليه وأصرّ، واظهر فيه حزماً . – يعشو عليه : يقصده . – المطاوع : الموافق .

[3] الديوان : 83 .

فقد اختصر في هاتين الكلمتين (غزال مقنع) ما يمكن أن يقوله في المرأة الجميلة وتجدر الإشارة إلي أن عروة في تشبيه زوجته بالغزال. قد كشف عن مدي اهتمامه بالصفات المعنوية للزوجته، بالإضافة إلي جمالها الخارجي، فالغزال يمثل الرقة واللطافة إلي جانب البراءة والوداعة والأمان، هذه الصفات التي يفتقدها الصعلوك في محيطه.

فصورة الغزال هنا لم تأت عفو الخاطر، وإنما اختارها عمداً لما تحمله من دلالات ورموز، فالغزال يرمز للسلم لأنه " محمي بمقتضي العقيدة الدينية لما له من قداسة، أو لما فيه من قوى سحرية على سواء " [1] وحياة الصعلوك تفتقر إلي السلام _ في معظم الأحيان _ وهو أحوج ما يكون إلي ذلك الوجه البريء المسالم الجميل، كي يخفف عنه الكثير من المعاناة، ويمنحه الثقة بالغد، والأمل في الوصول إلي غايته التي يبتغيها.

ويرمز الغزال إلي الأمومة وما فيها من مشاعر الدفء والحب والحنان، حيث ينظر الصعلوك في محيطه وإلي ما حوله، فلا يجد هذه المعاني متجسدة إلا في زوجته . إن نظرة من عينيها تبعث فيه الدفء وترد الروح إلي نفسه المتعبة حتى تستعيد قواها وتصبح أكثر قدرة علي التصدي والمواجهة.

فما يفتقر إليه الصعلوك في محيطه، يجده متجسداً في ملامح حبيبته، وهو مع ذلك يؤثر ضيفه على نفسه، ويضحي بتلك الأوقات السعيدة التي يعيشها مع زوجته، حتى يقوم بواجبه تجاه ضيفه، ويقدم له ما يسد حاجته.

إن الصعلوك يهمه كثيراً أن تعرف زوجته فضائله وأخلاقه، لأنه يهمه رضاؤها، لأن رضاء النساء عن أزواجهن. كان يوقد في نفوسهم الحزم، وهم جعلوا من أزواجهم مرايا تريهم صور نفوسهم، وموازين تظهر لهم قيم فضائلهم، وكان رضاؤهن اكبر سلوة يلجأون إليها، في الشدائد[2].

لذلك يصور لنا عروة زوجته في صورة المرأة العالمة بصفات زوجها، وأخلاقه فهي تحسن التعامل معه، فيقول مفتخراً[1]:

وقد علمت سليمى أن رأيي ... ورأي البخل مختلف شتيت

وأني لا يريني البخل رأي ... سواء إن عطشت وإن رويت

وأني حين تشتجر العوالي ... حوالي اللُّبّ ذو رأي زميت[3]

---

(1) الصورة في الشعر العربي : 68 .

(2) المرأة في الشعر الجاهلي : علي الهاشمي : 144 .

(1) الديوان : 50 .

(3) تشتجر العوالي : هو اختلاط بعضها ببعض في الحرب _ حوالي : بالتشديد المخفف. يقال للمحتال من الرجال إنه حوالي _ الزميت : الجليل الوقور .

وأكفي ما علمتُ، بفضـــل علم وأســـــــــأل ذا البيان إذا عميت

ويهم الشاعر الصعلوك، أن تعرف المرأة نسبه وقومه وأنه ليس من سوقة القـــوم أو أراذل الناس، بل هو رجل أصيل النسب عريق الأصل، يقول حاجز بن عوف الأزدي *[1]:

قومي سلامان إما كنت سائلــــــةً وفي قريش كـــريم الحلف والحسب

إني متى أدعُ مخزوماً تري عُنُقاً لا يرعشون لضرب القوم من كثب[2]

يدعى المغيرة في أولى عديدهـــم أولاد مرأســـــــةٍ ليسوا من الذنب[3]

إن الصعلوك يظل دائما، يرنو إلي الحياة المستقرة في جماعة تحميه في وقت الشدة، ينتمي إليها، وتنتمي إليه، يحن إلي الحياة الأسرية المستقرة، التي يسودها الأمـــن والأمـــان، وهو أشد ما يفتقر إليه الصعلوك، في حياةٍ يسودها التشرد والضياع، والبعـــد عـــن الأهـــل والوطن بعيداً في مجاهل الصحراء . لذلك نجدة يفتخر أمام الزوجة بأهله وقومه ونسبه، لأنه يعلم علم اليقين أن المرأة تنزع دائماً إلي الحياة المستقرة، ولا تقوى علـــي حيـــاة التـــشرد والضياع.

إن الزوجة كغيرها من النساء تحب المال، وتفضل الرجل الغني، فالزوج إن لم يكن غنياً، كان موضع ازدراء من الزوجة، الزوجة التي تحب المـــال والثـــروة، الثـــروة التـــي تستهويها، فالفقير لا خير فيه عند المرأة، فهو يقابل بكل احتقـــار وازدراء عنـــدها وعنـــد صغـــارهـــا أما الغني مهما كان وزنه ينعم بالاحترام والتقدير، وتقبل خطاياه، ويغفـــر لـــه يقول عـــروة[4]:

دعيني للغني أسعـــــى، فإني رأيت النـــــاس شرُّهم الفقيرُ

وأبعدُهم وأهـــــونهم عليهم وإن أمسي لـــــه حسب وخيرُ

ويقصيه النَّديُ ، وتَزْدَريـــــه حليلته ، وينهره الصغيـــــرُ

ويلفى ذو الغنى ولـــــه جلالُ يكاد فـــؤادُ صاحبه يطيـــرُ

قليل ذنبه والذنبُ جـــــــمٌّ ولـــكنْ للغنى ربٌ غفـــــورُ

---

* شاعر جاهلي مقل ، ليس من مشهوري الشعراء ، وهو أحد الصعاليك المغيرين غلي قبائل العرب ، وممن كان يعدو على رجليه عدواًيسبق به الخيل .

(1) الأغاني :جزء:13 : 211 .

(2) العنق :الجماعة الكثيرة من الناس .

(3) مرأسة : رآسة .

(4) الديـــوان : 79 .

إن عروة يطلب من زوجه أن تتركه لحال سبيله، كي يحصل على المال والثــروة، فالناس تنظر إلى الفقير على أنه شر الناس، فهو يقابل بكل ازدراء واحتقار من زوجته، ومن الصغار، وأما الغني، مهما كان وزنه ينعم بالاحترام والتقدير.

وفي أبيات أخرى يبدو الفقر وحشاً ينشب أنيابه في نفس عروة، ويتضح مــن هــذه الأبيات أثر المرأة المباشر في تمرد الجاهلي على واقعه، فالمرأة بطبيعتها، تحــب المــال، وتفضل الرجل الغني، ولا يعجبها تقاعس الزوج عن السعي في طلب الرزق، ويسوؤها بقاؤه مع العيال، لذلك فهي تواجهه بالحقيقة المرّة فالمال قد خوى، وجفا الأقارب، والرجل أمسى منكساً ، والقعود مع العيال قبيح.

إن الفقر مذله وفضوح، لهذا يجب عليه أن يخاطر بنفسه كي يصيب غنيمة ومــالاً فالمال فيه مهابة وتجلة، والفقر شر لا يمكن احتماله، والغنى خير عسير منالــه، والنتيجــة الحقيقية هي الخروج عن الجادة، والمخاطرة، وطلب الغنيمة، بنفس ثائرة تشعر بظلم الواقع عليها، حيث الفقر من جانب، وجفاء الأقارب، وامتعاض الزوجة وتبرمها، وعدم رضــاها بفقره، وهنا لا بد من التمرد على الواقع والخروج إلى البحث عن الرزق بــشتى الطــرق، والمخاطرة بالنفس من أجل ذلك حيث تكون المخاطرة بالنفس أمراً محتوماً أمام قسوة الواقع المعاش، وربما كانت ضرورات الحياة واقتناص العيش سداً للحاجة، ودرءاً لخطر المــوت جوعــاً وراء خروج كثير من الشعراء الصعاليك للسلب والنهب، يقــول عــروة[1]:

قالت تماضر إذ رأت مالي خوى	**وجفا الأقــارب فالفؤاد قريحٌ** [2]
مالي رأيتك في النــــدي منسكاً	**وَصِباً، كأنّك في النَّدي نطيحُ** [3]
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة،	**إن القُعَودَ مــع العيــال قبيحُ**
المال فيه مهــابــــة وتَجِلَّـــةٌ؛	**والفقرُ فيه مذلّـــةٌ وفضــوحُ**

إن حب الزوجة للمال يجعلها حريصة عليه، تخشى من تبذيره وضياعه، لذا نجدها تطلب من زوجها الاقتصاد في الإنفاق، وقد يصل بها الأمر إلى البخل أحياناً، كما يصور لنا ذلك تأبط شراً حين يقــول*[4]:

---

[1] الديــــوان : 54 .

[2] خـــوى : فـــزع .

[3] الوصب : المريض – النطيح ، من نطحه الثور بقرنه : أصابه به ، ونطحه فلان : دفعه عنه وأزاله .

* هــو ثابت بن جابر ، شاعر جاهلي، من صعاليك العرب المغيرين، وأحد ثلاثة لا يدركهم الطلب ، عاصر الشنفرى ، وعمرو بن براق

[4] المفضليـــات : 30 .

تقول أهلكت ملاً لو قنعت بـــه　　　من ثوب صدقٍ ومن بزٍ وأعلاق [1]
عاذلتي إن بعض اللوم معنفــة　　　وهــل متاعٌ وإن أبقيتُهُ بــــــــاقِ

لعل حب المرأة الزوجة للمال، نابعٌ من خوفها المستمر من المجهول الذي ينتظرها ويلف مستقبلها، حيث أن الفقر وضياع المال مدعاة للخروج المستمر، والتعــرض للخطــر الدائم الذي يؤول بالمرء إلى الموت أو الوقوع في الأسر، وهذا ما تخشاه المرأة دائماً.

إن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان تستهويها، نضارة الشباب، لما فيها مــن فتوة وقوة ، وانطلاق نحو الحياة بكل حيوية ونشاط، لذلك ليس عجباً أن نجدها تعرض عن الرجل إذا ما وخطة الشيب، فهذا قيس بن الحدادية يدرك هذه الحقيقة كما أدركهــا غيــــره حيث يقــول[2]:

هل الأدم كلآرام والزهر كالدمى　　　معــاودتـــي أيامهــن الصوالح
زمــان سلاحي بينهـــن شبيبتي　　　لهــــا سائف في سيبهن ورائح
فأقسمن لا يسقينني قطــر مزنة　　　لشيبي ولو سالت بهن الأباطــح

إن هؤلاء النسوة ضنن عليه بالوصل، لا لشيء إلا لأنه قد شاب رأسه،وهو مـــا لا ترغب فيه النساء.

والزوجة تميل إلى الشباب في الزوج، وتفضل الشاب، على الشيخ الكبير، لذلك ظل الشيب نذير شؤم عليهم، حيث أنه إيذان بنهاية مرحلة اللهو والتصابي والشبــاب، وبدايــــة عهد جديد، إن الصعلوك كغيره من أبناء عصره، كان يؤرقه هذا الأمر، حيث أنه كان يدرك حقيقة حب النساء للشباب في الرجل وعزوفهن عن الشيوخ الكبار، لذلك نجدهم يبررون هذا الشيب بمبررات علها تجد إلى قلوبهن سبيلاً، يقول عــروة[3]:

وما شاب رأسي من سنين تتابعت　　　طوال، ولكن شيبتــه الوقائــــع

إن عروة يريد أن يسلك طريقاً آخر إلى قلب زوجته ألا وهـــو طريـــق الفروســية والبطولة وخوض الأحداث الجسام، فيقول لها إن ما بي من شيب ليس من طول عمر، ولكن بسبب كثرة المعارك التي خضتها، وجابهــت أهوالهـــا، واكتويــت بحــرّ نارهـــا.

وقد نجد سبباً للشيب عند قيس بن الحدادية * غير الذي عند عروة، فقيس لـــم يكـــن

---

(1) ثـــوب صدق : عنى بها الجيد ، البز:

(2) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري، 321 القـــــاهرة 1292 هــــ .

(3) الديـــــوان : 82 .

* هو قيس بن منقد بن عمرو، شاعر من شعراء الجاهلية ،وكان فاتكاً ، شجاعاً صعلوكاً خليعـــاً، خلعتــه خزاعة لسوق عكاظ، وأخذت على نفسها بخلعها إياه، فلا تحتمل جريرته له، ولا تطالب بجريرة يجرّها أحد عليه .

شيبه بسبب خوض المعارك، ولكنه بسبب حب محبوبته التي أحبها، وهام بهـا حتـى أنـه ليتمنى الموت ولا يسمع برحيلها. فهو أيضاً شاب بسبب حبها ولم يـشب بـسبب طـول عمـره يقـول[1]:

وإن الذي أمّلت من أم مـالك ... أشاب قذالي واستهام فؤاديا [2]

فليت المنايـا صبحتني غُدَيَّةً ... بذبحٍ ولم أسمـع لبين مناديا

إن الشيب نذير مقلق للصعلوك كما يراه مالك بن حريم حيث يقـول[3]:

جَزِعْتَ ولم تجزعْ من الشَّيْبِ مَجْزَعَاً ... وقَدْ فَاتَ ربْعيَّ الشَّبابِ فَودَّعا

ولاحَ بياضٌ في سـوادٍ كأنَّهُ ... صُوَارٌ بَجوٍّ كانَ جَدْباً فأَمْرَعا[4]

إن هذه الحقيقة التي أدركها الصعلوك جعلته يعزف هو الآخر، عن طلب ودٍّ من لا يرغب في ودِّه، والسعي وراء من أدار له ظهره، بل يدرك حقيقة تتكشف له يوماً بعد يوم، أن التصابي واللهو مع الناس قد أضحى لا يتناسب مع سنه وعمره.

لذلك فهو يشغل نفسه بوصف ناقته التي يبدع في وصفها، ويتحدث عـن خـوض الصحراء التي طالما تنقل في مجاهلها، وألف وحوشها، وربما يكون الصعلوك يهدف مـن وراء هذا أن يقول أنه ما زال قوياً، قادراً على تحمل أعباء الحياة بكل ما فيها، وربما لأنـه يجد في ناقته وارتحالـه فـي الصحـراء علـى ظهرها، ذهاباً لهمـه وأحزانـه، يقول عبدة بن الطبيـب *[5]:

وللأحبة أيـامٌ تذكرهـا ... وللنوى قبـل يوم البين تأويل

إن التي ضربت بيتاً مهاجـرة ... بكوفـة الجند غالت ودها غول

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ... إن الصبابة بعـد الشيب تضليل

بجسرة كعلاة القين دوسـرة ... فيها على الأين إرقال وتبغيل [6]

عنس تشير بقنوان إذا زجـرت ... من خصبة بقيت فيها شماليل [7]

---

(1) الأغـاني : جزء 14 : 151 .

(2) القذال : جماع مؤخر الرأس، – استهام فؤاده : أذهبه

(3) الأصمعيـات : 62 .

(4) صوار : القطيع من البقر ، – الجوّ : ما انخفض من الأرض . أمرع : أخصب وأكلأ .

* هو عبدة بن الطيب ، شاعر صعلوك مجيد أسود اللون مخضرم ، أدرك الإسلام فـأسلم ، شهد مع المثنى بن حـارثة قتـال هـرمـز سنـه 13هـ ،وله في ذلك آثار مشهورة .

(5) المفضليـات : 136 .

(6) الجسـرة : الناقة الصلبة ، علاةالأين : سندان الحداد، الدوسرة : الصلبة الضخمة .

(7) العنس : الناقـة القويـة .

قرواء مقذوفة بالنخض يشغفها فرط المراح إذا كل المراسيل [1]

إن عبدة بن الطبيب يَرى أن السعي في طلب المودة، بعد أن شاب رأسه فيه شـــيء من الضلالة،وهو لم يتوصل إلى هذه الحقيقة المؤلمة إلا بعد تجربة طويلة مع زوجته التـــي رحلت عنه وتركته، لذلك فهو لا يريد أن يقف عند هذا الأمر، ولكنه ينطلق بقوة نحو الحياة الرحبة الواسعة، التي يريد أن يثبت أنه ما زال قادراً على تحمل أعباءها، والمخاطرة فـــي خوض أهوالها، لذلك ينطلق في ذكر ناقته.

وهذا قيس بن الحدادية يجد سلواه وذهاب همومه في ركوب ناقته، متناسياً ذكرهـــا، محاولاً التناسي حيث يرى أن من الجهالة أن يبقى الإنسان مشغولاً بالنساء وقد كبر ووخطه الشيب فيقـــول[2]:

إنَّ الفؤادَ قد أمسى هائمـــــاً كلفاً قد شَفَّه ذكْر سلمى اليومَ فانْتَكَسَـــا
عناهُ ما عَنَاهُ مـــن تـــدكُّرهـــــــا بعدَ السُلُوِّ فأمســـى القلبُ مُخْتَلَسَـــا
وبعدما لاح شَيْبٌ في مَفَارِقـــــه وباتَ عنْه الصّبا والجهلُ فانمَلَسَـــــا
تَذَكَّرَ الوصل منها بَعْدما شَحَطت بها الدِّيارُ فأَمْســـى القَلبُ مُلْتَبِسَـــــا
فَعَّدَ عنْكَ همومَ النفس إذْ طَرَقَت واشْدُدْ برحْلكَ مِذْعَانَ السُّرَى سُدُسا
عير انه عنتريساً ذاتُ مُعْجَمَـــــةٍ إذا الضعيفُ ونى في السَير أو رَجسا
تجتـــابُ كلَّ مطـــاً نـــاءٍ مسافَتُهُ ومهمه ما به حبس لمن حبســـــــــــا
إذا تَرَدىّ السرابُ القورُ فالتَمَعتْ أشباهُ بيضٍ مُلاءٍ لــم تُصبْ دَنَســــــا

والمرأة كما تحب الشباب في الرجل، فهي أيضاً تحـــب فيـــه النـــضارة والحيويـــة والجمال، وحسن المظهر،لذلك نرى الصعلوك يحاول أن يعتذر لها عن سوء مظهره، مبرراً ذلك بكثرة غاراته على الأعداء، واتباعه للسرايا، وأن الحياة ليست كلها لهواً، وإنمـــا هـــي قسمان يوم يلهو فيه مع الحسان حسن المظهر طيب الريح، ويوم يخوض فيه المعارك، فهذا تأبط شراً يرد على أم مالك التي استنكرت مظهره حين رأته أشعث أغبر، وقد كان يوماً من الأيام برّاق المفارق، مشرق الجبين، سهل المخالقة فيقول[3]:

ألا عَجبَ الفتيان من أمِّ مالكٍ تقول أراك اليوم أشعث أغبرا [4]
تبوعـــاً لآثار السَّرِيَّةِ بَعْدَمـــا رأيتك براق المفـــارق أيسرا [5]

---

[1] القرواء : طويلة الظهر، النحض : اللحم ،يشغفها : ينزع فؤادها ويستخفها .

[2] قيس بن الحدادية، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

[3] الأغـــــاني جزء 21 : 186 . ديـــوان الصعاليــك : 131- 132 .

[4] أشعث : متلبد الشعر .

[5] السريِّة : جماعة من المقاتلين – برّاق المفارق : مشرق الجبين ،– أيسر : سهل المخالقة .

فقلت لها يومان: يومُ إقامـــــةٍ أهزُّ به غصناً من البان أخضرا [1]
ويوم أهزُّ السَّيْفَ في جيدِ أغْيدٍ له نسوة لم تلق مِثْلـــــــيَ أنْكرا

كما أن المرأة تحب الحلم في الرجل، فهي برقتها، وضعفها، تميل إلى الرجل الحليم، الخلوق، اللين، الذي يحسن معاملتها، ويرفق بها، ولا يخشن ولا يقسو عليها، لــذلك نجــد زوجة سعد بن ناشب تستنكر على زوجها شراسته وشدته، فيجيبها قائلاً إن الكريم مع لينــه وحسن تعطفه لا بد أن يتخلق بأخلاق أمر من الصبر صــوناً لعرضــه وشــرف نفــسه، فالصعلوك الذي يجابه مجتمع بأكمله لا بد أن يكون صارماً، شرساً، مهيباً، حيث يــرى أن اللين ضعف، وهذا ما لا يريده.

فاللين له وقته، وناسه والشدة لها وقتها وأهلها، فهو لين على مــن لان له،وشــرس شديد على من جابهه وقسا عليه، يقول سعد بن ناشــب[2]:

تُفَنِّدُنـــــي فيما تري من شراستي وَشِدَةَ نَفْسي أمُّ سَعْـــــد وماَ تَدْري[3]
فقُلْتُ لهـــــا إنَّ الكريمَ وإنْ حلا ليُلْفَى علـــى حَـــــال أمَرَّ من الصَّبْر
وفي اللَيـــن ضَعْفٌ والشَّرَاسةُ هَيْبَةٌ ومَنْ لَمْ يُهَبْ يُحْمَـلْ على مَرْكبٍ وعْر
وما بي على مَنْ لانَ لي من فَظَاظةٍ ولكنَّني فَظٌّ أبيٌ علـــــــى القَسر[4]
أقيمُ صَغـــــاذِي المَيْل حتَّى أرُدُّه وأخْطمُهُ حتىَ يَعُودَ إلـــــــى القَدْر[5]
إن تعذُلِينــــي تَعْذُلـــي بي مُرَزَّأً كريمَ نَثَا الإعْســـــــار مُشْتَرك اليُسْرِ

ب – صفاتها المـــادية:

لم ينشغل الصعلوك بالجمال الخُلُقي عن الجمال الخَلْقي، بل إن الــصعاليك أعــاروا الشكل الخارجي للزوجة بعض الاهتمام، لأن الصعلوك بطبيعته البشرية مفطور علي حــب الجمال، غير أن التفاته إلي مفاتن الزوجة فيها شيء من العمومية، فهو يبتعد عــن إبــراز المفاتــن الحسيــة الجسديــة فيهـــا، والتي تثير الرغبة، يقـــول عـــروة في وصــف زوجته التـــي أحبها[6]:

---

(1) يـــوم اقامة : يـــوم راحـــة ، أهـــزُّ ... كناية عن اللهو .
(2) الحماسة لأبي تمام :0 27– 271 .
(3) تفندني : تجهلني . ، الشراسة : سوء الخلق .
(4) القسر : القهر .
(5) أقيم صغا ذي الميل : أي أقيم عوج المعوج .
(6) الأغاني ، جزء 3 : 74 . ، الديوان : 63 .

وقالوا ما تشاء؟ فقلت: ألهو إلي الإصباح آثر ذي أثيـــر[1]
بآنسة الحديث رضــاب فيها بعيد النوم كالعنب العصيـــر[2]

إنها امرأة تؤنس زوجها، يلذُّ له حديثها غير نافرة، ريقها كعصير العنب ولعل عروة يوغل في وصف ريق محبوبته – التي هي زوجته – حين يشبهه بعد النوم الذي غالباً مــا يغير طعم الريق، يشبهه بعصير العنب، بما فيه من لذة ومتعة للــشاربين . كـذلك أعجـب عروة بعيني زوجته فقــال[3]:

تقول: ألا أقصر من الغزو واشتكى لها القول طرف أحور العين دامع
سأغنيك عن رجع الملام بمزمـــعٍ من الأمــر لايعشو عليه المطاوع

إن العرب تحب العين الحوراء، والحور هو سواد شديد ، وبياض صافي في العين ، وهو ما يمنح المرأة جمالاً مميزاً، وهذا ما أعجب عروة ولفت انتباهه .

وهذا تأبط شراً يعجبه من زوجته كبر أردافها، ورخامة صوتها، وطــول جيــدها، وبريق أسنانها، فهي امرأة لينة ناعمة، لذلك نجده يمتدح هذه الصفات في قوله[4]:

وتلك لَئن عُنِيت بهـــا رداحٌ من النسوان مَنْطِقُهـــا رَخيمٌ[5]
نياقٌ القُرط غرّاء الثَّنايـــــا ورَيْداءٌ الشبـــــابِ ونِعمَ خِيْمٌ[6]

ويرى الشنفرى أن حسن امرأته مكتملاً، ولو أن الحسن يؤدى إلي الجنــون، لكــان حسنها سبباً للجنون، يقــول[7]:

فَدَقَّتْ وجلَّت واسبكرَّت وأكْمِلَتْ فَلوْ جُنَّ إنسانٌ من الحسْنِ جُنَّتِ[8]

ويشير عروة إلي جمال زوجته بشكل مجمل حين قــال[9]:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنــع

---

[1] آثر ذي أثير : مثل قولك كل شيء .
[2] الآنسة : غير النفور ، الرضاب : الريق .
[3] الديوان : 82 .
[4] ديوان الصعاليك : 167- 168 .
[5] رداح : كبيرة الردفين .
[6] نياق القرط : طويلة القرط ، كناية علي طول جيدها – غرّاء الثنايا : براقة الفم والأسنان ، ريداء : لينة ناعمة ، نعم خيم : نعم السجية والطبيعة ، فاعل نعم هنا ليس معرفاً .
[7] ديوان الصعاليك : 17 ، المفضليات : 109 .
[8] دقت :نحلت ، جلت : سمنت ، اسبكرت : امتدت واعتدلت ، أى أنها جميلة فيما هو دقيق وسمين .
[9] الديوان : 83 .

فوصف الزوجة بالغزال، يختصر كثيراً من الكلام والوصف، حيث أن الغزال يعني الرشاقة والخفة، واللطافـــه، والوداعة وجمال العينين، وطول الجيد إضـــافة إلـــي البـــراءة والدعة والأمــــــان.

ويصف السليك زوجته بحسن القوام، وطول العنق فيقـــول[1]:

وربَّ قِرْنٍ قدْ تركتُ مَجْدولْ　　　وربَّ زوج قد نَكَحْتُ عُطّبولْ[2]

لقد شغلت الزوجة حيزاً هاماً من حياة الصعلوك العاطفية، فقـــد أحبهـــا واســـتدعي انتباهه جمالها الموشح بالوقار اللطيف، الذي قل أن وجدناه في أحاديث الشعراء.

والمفارقة العجيبة أن الصعلوك إذا غضب من زوجته، لسوء ســـلوك أو تـــصرف، فربما يذكر من صفاتها مالا ترغب فيه، فعروة يصف زوجته أم وهب وهي نائمة متوســـدِّة ذراعيها،ولها شخير فيقـــــول[3]:

تبيتُ على المـــــرافقِ أم وهْبٍ　　　وقد نامَ العيــــــونُ لها كَتيتُ

إن عروة يشبه شخير زوجته، بصوت غليان القدر، وهذا صفة للزوجة لا يعرفهـــا غالباً إلا الزوج،ونادراً ما نجد شاعراً يذكر مثل ذلك في شعره.

ومهما يكن فإن الصعاليك حاولوا دائماً أن يشكلوا نموذجاً فريداً للزوجة تتمازج فيه الصفات المعنوية، والحسية،الراقية، حيث تجتمع فيها مفاتن الـــشكل الخـــارجي، ومحاســـن الأخلاق، فتصبْح حقيقة بتقديرهم واحترامهم ، وشغل فكرهم وقلوبهم، إليها يحنون، وبقربها ينعمون، ومن أجلها يغامرون، وعنها يدافعون.

وإذا كانت طبيعة حياة الصعاليك قد حددت صلتهم بزوجاتهم، فإنها فد حـــددت مـــن اتصالهم بهن أيضاً، فكان غيابهم عنهن أطول من وجودهم بقربهن، لذلك كانوا بأمس الحاجة إلى تلك اللحظات الوجدانية التي تعيشها معهم زوجاتهم يقـــول الشنفـــرى[4]:

فبتنا كأنَّ البيتَ حُجرِّ فوقنـــــا　　　بريْحانَةٍ رِيْحَتْ عِشَاءً وطـــلَّت [5]

بريحانة من بطن حليـــة نورت　　　لها أرجٌ ما حـــولها غُيرُ مُسْنِتِ [6]

---

[1] ديوان الصعاليك : 193 .

[2] العطبول : الطويلة العنق الحسنة القوام .

[3] الديـــــوان : 49 .

[4] المفضليات : 110 . ديوان الصعاليك : 17 .

[5] حُجرِّ : أحيط . – ريحت : أصابتها ريح، فجاءت بنسيمها، طلت : أصابها طلل .

[6] حلية : واد بتهامة ، بطن حلية : أرض غليظة نباتها أطيب من غيره . الأرج : الرائحة الزكية – مسنت : مجدب

لقد عاش معها لحظات من الحياة المنعمة يحيط بهما الجمال اليخضوري مــن كــل جانب،هذا الجمال الذي افتقده الصعاليك في حياتهم وفنهم معاً، إنه الفردوس المفقــود الــذي يحلم به ، بعد أن أفرغ جهده في غارة من غاراته اليومية.

إن تعلق الصعاليك بزوجاتهم يلفت الانتباه، وهذا واضح في شعرهم، وربما يرجــع ذلك إلى كثرة أسفارهم، وبعدهم عن أوطانهم، وزوجاتهم، مما يجعلهم يتشوقون لهن، لــذلك نجدهم يتذكرون أهلهم في ساعة الشدّة والخطر . فهول المعركة واحتدام القتال لا يحول بينه وبين تذكر زوجته وأبنائه، يقول الأعلم الهذلي[1]:

وذكرت أهلـــــــي بالعراء وحاجـــــــة الشعث التوالب[2]

المصـــــرمين مــــن التلاد اللامحيــن إلـــى الأقارب [3]

إن الصعلوك لا يستطيع أن يتجاهل حبه لزوجته، وحنينه إليها ، ولا يفتأ يذكرها في غزواته وغاراته، وفي فخره بنفسه وبجماعته من الصعاليك . يقول الشنفــرى[4]:

ألا هـــل أتـــــى سعاد ودونها مهامـــة بيد تعتلي بالصعالك [5]

بأنا صبحنا الغوص في حرِّ دارهم حمام المنايا بالسيوف البواتك [6]

ظللنا نفـــــرِّي بالسيوف رؤوسهم ونرشقهم بالنبل بيــن الدكادك[7]

ويبلغ الأمر أقصاه حينما يحضره ذكرها، وهو على حافة المــوت، فالــسليك ابــن السلكة تلح عليه صورة الزوج الفتية، البضة، حينما حوصر حصار الموت، وآل الأمر إلى الهلاك يقــول[8]:

من مبلغ جذمي بأني مقتــــــــــول

يارب نهب قد حويت عثكـــــــول [9]

ورب قرن قد تركت مجـــــــــدول [10]

---

[1] ديوان الهذليين : 315 .

[2] العراء : الصحراء لا نبت فيها . الشعث : أولاده ، التوالب : الجحاش .

[3] الصرم : المقل الذي لا ما له . – التلاد : المال القديم الموروث عن الأجداد .

[4] ديوان الصعاليك : 36 .

[5] المهامة : جمع مهمة وهي الصحراء الواسعة . بيد : جمع بيداء وهي الصحراء . ترتفع ، أي يجتازها الصعاليك

[6] العوص : اسم موضع وهو حي من بجيلة – البواتك : القاطعة .

[7] نفرِّي : نقطع – الدكادك : الأرض الغليظة ، مفردها دكدك .

[8] ديــوان الصعاليك : 193 . الأغـــــاني : جز20 : 385 .

[9] العثكول : عنقود التمر في النخل ، وفي القول كناية عن كثرة النهب .

[10] القِرن : الشجاع الثابت في القتال . – مجدول : مقتول .

ورب زوج قد نكحت عطبـــــول [1]

ورب واد قد قطعت مسيـــــــــول

ففي هذا الرجز الذي جاء وليد الانفعال الآني المنبعث من هذه المواجهة الحادة مـــع الموت، تتقلَّص ملامح المرأة المعنوية، وتبرز بشكل واضح صفاتها الأنثوية، حاملـــة بـــين جوانحها دلالات حسية تشدُّ الشاعر إليها، ولعله عمد إلى هذه الدلالات الحسية ليعبـــر مـــن خلالها عن تمسكه الشديد بالحياة، فالجنس في وجهه الإيجابي، هو صانع الحياة، أو بعبـــارة أخـــرى، يحمـــل وعداً بتجـــدد الحيـــاة واستمراريتهـــا، والتغلب على شبـــح المـــوت المخيـــف . ولعلنا نلمس في استحضاره الرغبة الحسية نوعاً من الفخر الممزوج بـــالحزن والأسى العميقين فحياته التي أمضاها في المجاهدة والكفاح من أجل الحرية، حريته وحريـــة أبناء جنسه، قد حرمته من الاستئناس بالمرأة والتمتع بوصلها، وأنّى له ذلك، وهو الشارد في القفار أبداً حتى أنه لطول إلفه المفاوز البعيدة والبيد المترامية الأطراف قد جعله " أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها " [2]. كان من الصعب عليـــه – إذاً – أن يـــصل امـــرأة أو أن تصله، وإن كنا لا ننفي ذلك إلا أن صلته بالنساء كانت واهية، لطبيعة الحياة التي يعيشها.

ولكن حاجته إلي المرأة كانت كامنة في أعماقه، استطاع أن يقمع رغبته فيها إلي حين ولكن سرعان ما أخذت هذه المشاعر تطفو علي السطح، عندما اشتدت عليه المصاعب، واسودت الدنيا في عينه، فعظمت حاجته إلي المرأة التي هي الواحة الخضراء في صحرائه، وأعلـــن عن هذه الرغبة، وازداد من أجلها تمسكاً بالحياة وبما فيها من حـــلاوة ومـــرارة، وســـعادة وشقاء، ومغامرة ينتصر فيها أو ينهزم.

لقد مثلت المرأة هنا حدثاً هاماً من أحداث حياته التي لخصها قبيل مقتله. يحس المرء حين يستقرىء هذه الأحداث، ذلك الفخر المسكون بالحنين الموشح بالأسى، وعلى الرغم من أن الماضي لم يشكل حيزاً هاماً في حياته، بل كان همه هو حاضره ومستقبله فـــإن حياتـــه تستحيل بكل ما فيها – هنا وفي لحظات الوداع الأخيرة لعالمه الذي ملأه بالبطولة والمغامرة – إلي ماضٍ يتوق إليه، ويتمني أن يمتلكه، ولكن هيهات فقد وضع المـــوت حـــداً لحياتـــه ومفاخره وطموحاته، وانتهى مقتولاً بطريقة تعتصرها المرارة والخيبة، ويشفها قليـــل مـــن العزاء، وكانت صورة الزوجة الفتية البضة ترتسم أمام ناظريه، وهو يودع عالمه الـــوداع

---

[1] العطبول : الطويلة العنق والحسنة القوام .

[2] الأغاني جزء 20 : 386 .

الأبدي، تشيعه موسيقى جنائزية حزينة متجسدة في هذا الـسكون المنبعـث مـن الإيقـاع الموسيقي الصامت للأبيات[1].

[1] انظر مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ، مجلد 13 (العدد 1) 1991 م . س

رابعاً : أثـــر الـــزوجـــة علـــى الصعلـــوك

(أ) لومها له، وخوفها عليه من مخاطر الصعلكة :

يصور لنا شعر الصعاليك في كثير من مقطوعاته، لوم الزوجات لأزواجهن علـــى مخاطرتهم، وحرصهن على سلامتهم، يقول عـــروة [1]:

أرى أم حسّان، الغداةَ تلـــومُني	**تخوفني الأعـــداء، والنفس أخْوفُ**
تقول سُلَيمْى لو أقمتَ لسرَّنا !	**ولم تـــدر أنــــــي للمُقام أطوف**
لعل الذي خوفتنا من أمامنـــا،	**يصادفـــه فـــي أهلــــه المتخلف**
إذا قلت جاء الغنى، حال دونه	**أبو صبية، يشكو المفاقرَ، أعجفُ (2)**

إن الحياة التي يحياها الصعلوك، يحيط بها الخطر من كل جانب، فالصعلوك معرض للموت في كل لحظة، هذا الأمر جعل المرأة مهددة بالثكل في كل لحظة، مما دفعهـــا إلـــى الخوف عليه من هذه النهاية شبه المحتومة، إن المرأة تظل رهينة هـــاجس المـــوت الـــذي يطاردها، ويقلق نومها، ويقض مضجعها،وكيف لا، وموت الزوج بالنـــسبة لهـــا فجيعـــة لا يعادلها شيء، فهو سكنها وملاذها، وأمنها، وهو مبعث الطمأنينة في نفسها وهو القيم علـــى شؤونها، إذاً هي تجد أن من حقها الخوف عليه، والوقوف في وجهه من أجل ثنيه عن سلوك الحياة التي اختارها لنفسه يقول عـــروة[3]:

تقول لك الويلات، هل أنت تـــارك	**ضبوءاً برجل، تارة وبمنســــــر (4)**
ومستثبت في مالك العام، إننـــــي	**أراك على أقتاد صرماء مذكـــــر (5)**
فجوع لأهل الصالحين، مزلـــــة	**مخوف رداها أن تصيبك فاحـــذر (6)**

---

[1] الديـــــوان : 87 ، الأغاني جزء 3 : 87 ، الحماسة : 338 .

[2] المفاقر : الحاجات، جمع فقر على غير قياس . – أعجف : أي هزل .

[3] الديـــوان : 67– 68 .

[4] ضبوءاً : الضبوء اللصوق بالأرض . الرجل : الرجالة . أي يغزو مرة بقوم راجلين ، –و مرّة بميسر أي الخيل .

[5] المستثبت هنا : القاعد عن النهارات، – أقتاد ، واحدها قتد : خشب الرجل ،– الصرماء : الناقة ، – المذكر : التي تلذ الذكور

[6] فجوع : أي الناقة الصرماء تفجع ذوي المعروف،– مزلة : أي تزل بأهلها ،– مخوف رداها : أي يخاف الهالك من قبلها .

وقد تلجأ للبكاء من أجل التأثير عليه، إذا لم ينفع اللوم، والتخويف، ورفع الصوت عالياً في وجهه، إنها تحاول ببكائها الذي نبع من ضعفها وقله حيلتها في صده عن غايته، تحاول استثارة العاطفة الكافية في داخله من أجل تحقيق غايتها، يقول عروة [1]:

تقول: ألا اقصر من الغزو، واشتكى   لها القول، طرف أحور العين دامع

سأغنيك عن رجع الملام بمزمعٍ   من الأمر، لا يعشو عليه المطاوع

وقد تلجأ إلى التهديد مرّة والتخويف مرّة، ولكن هيهات أن يتحقق لها ما تريد، من ثنيه عن بغيته، وصرفه عن هدفه الذي ابتغاه، وعن طريقه الذي رسمه لنفسه، يقول السليك[2]:

تُهدِّدُني كي أحْذرَ العامَ خَثْعمَا   وقد علمت أنِّي امروٌ غيرُ مسْلمِ [3]

وما خثعمٌ إلا لِئامٌ أَرِقَّةٌ   إلى الذُّلِّ فالإسحاق تنمي وتنتمي[4]

إنها تحاول أن تخوّف من لا يخاف، وهي تعلم ذلك إلا أنها، تحاول قدر استطاعتها، ألا تترك وسيلة من وسائل الإقناع إلا واستعملتها، وذلك نابع من حب صادق، وعاطفة جيّاشة، أو خوف من المجهول الذي لا يعرفه، إنه تشبث بالحياة الكريمة، في كنف رجل يدير شؤونها، ويكفيها مشقة عيشها، يدافع عنها، ويحنو عليها، ويقيها عاديات الزمن.

إنها تدرك أن حياة زوجها مهددة في كل حين، لذلك نجد هذا الصراع بينها وبين زوجها لمنعه عن الغزو حتى لا يقع ما تحذر، فإذا وقع بعض هذا وجاء زوجها وقد أصيب في إحدى غزواته فإن صوتها يعلو بالبكاء والعويل يقول تأبط شراً [5]:

تولول سُعدى أن أتيت مجرَّحاً   إليها وقد منت عليَّ المقاتل

وكائن أتاها هارباً قبل هذه   ومن غانم أو أين منك الولاول

وفي المقابل فإن الصعلوك برجاحة عقله،وسعة أفقه، وعمق وعيه، يحاول إقناعها بصحة موقفه، إنه لا يقدم على الغزو، والترحال وخوض مجاهل الصحراء حباً في ذلك، وإنما يفعل ويعرض نفسه للأخطار من أجل أن يؤمن الحياة الكريمة له ولأسرته، ولكي يشهد له بحسن البلاء، والمقدرة على تحمل المشاق، والإقدام، والمغامرة، في مجتمع لا حترم إلا القوي،وبذلك يحقق ذاته، ويكسب المجد الخالد، والأحاديث الباقية . يقول عروة[6]:

---

[1] الديوان : 82 .

[2] ديوان الصعاليك : 194 .

[3] غير مسلم : غير مستسلم ، غير مطيع .

[4] أرِقّة : عبيد أذلاء – الاسحاق والسَحْق : الذل، ، تنمي : تتجه .

[5] الأغاني جزء 21 ص 180– 181 ، ديوان الصعاليك : 166

[6] الديوان : 67 .

أقلي عليّ اللــوم يا بنت منذر ونامي، وإن لم تشتهي النوم فاسهري
ذريني ونفسي أم حسان، إننــي بها،قبل أن لا أملك البيع مشتـــري
أحاديث تبقى والفتى غير خالــد إذا هو أمسى هامة فـــوق صُيِّــرِ [1]
ذريني أطوف في البلاد لعلنـــي أخليك أو أغنيك عن سوء محضري
فإن فاز سهم للمنية لـــم أكن جزوعاً وهل عن ذاك من متأخــر؟
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعدٍ لكم خلف أدبار البيوت، ومنظـــر

إنه يوضح لها، أنه يفعل ذلك من أجلها وأجل أبنائهــا، كــي يــوفر لهــم الحيــاة الكريمة،كما أنه يشعر بالمسؤولية عن كثير من أقرانه الذين لجأوا إليه، واستغاثوا به، فهــو يرى أن الإنسان لا بد ميت، ويبقى الذكر الطيب بعد ذلك، إن عروة يحاورها حواراً وديّــاً، يحاول من خلاله إقناعها بوجه نظره ، حيث أنه لا بديل عن الغزو، فإما الفــوز بالغنيمــة والحياة الكريمة، وإما الموت الذي لا يخشاه ولا يجزع منه،

وفي أبيات أخرى يحاول عروة إقناع زوجته، بالكف عن لومه، وتركه وحال سبيله، يسعى في طلب المال والثروة، حيث أن الناس تنظر إلى الفقير علــى أنــه شــر النــاس، وأضعفهم وأهونهم، فلا خير فيه عندهم، يقابل بكل احتقار وازدراء حتى من زوجتــه أمــا الغني مهما كان وزنه فانه يقابل بكل احترام وتقدير يقــول[2]:

دعيني للغنى أسعـــــى فإني رأيت الناس شرُّهم الفقيــــرُ
وأبعدُهم وأهونهـــــم عليهم وإن أمسى لـــــه حسبٌ وخيرُ
ويُقصيه الندىّ وتَزْدَريـــــه حليلته، وينهـــــــرُه الصغيرُ
ويُلفى ذو الغنى ولـــه جلالٌ يكادُ فؤادُ صاحبـــــه يطيرُ
قليل ذنبه والذنب جـــــمٌّ ولكنْ للغنى ربٌّ غفـــــورُ

ويحاول عمرو بن براقة إقناع زوجته التي حاولت ثنية عن التعرض لتلفات (حريم) – وهو رجل من مراد – وذلك لأنها تخشى عليه منه، فيقول لها يجب عليك أن تعلمـــي أن حياة الصعاليك لا تعرف الخوف، ولا الهدوء،بل هي سعي دائب، فهو كغيره من الصعاليك لا يملك شيئاً يأسف عليه إنه لا يملك إلا سيفه الذي يأنس به، فهو يبدي الحزم على الغــزو مثلــه مثــل باقــي الصعاليــك الذيــن لا يهدأون ولا ينامــون إلا غــرراً، ولا يقيمــون إلا قليــلاً، يقــول[3]:

---

(1) صُيِّر : حجارة تجعل زريبة للأغنام .
(2) الديـــوان : 79 .
(3) الأغاني جزء 21 : 198 – 199 .

تقول سليمى لا تعرَّض لتلفـــــة **وليلكَ عن ليل الصعاليك نـــائم**

وكيف ينام الليل من جلّ مالـــــه **حسام كلون الملح أبيضُ صارم**

ألم تعلمي أن الصعاليك نومهــم **قليلٌ إذا نام الـــدثور المســـالــم**

إذا الليل أدجى واكفهرت نجومه **وصاح من الإفراط هام جــواثم**

ومال بأصحاب الكرى غلباتــــه **فإني على أمـــر الغــواية حازم**

أما عبيد الله بن الحر الجعفي، فإنه يخوض المعارك من أجل زوجته التـــي أحبهـــا وكان في مائة وثمانين فارساً، ويخرجها من السجن، ويعيدها إلى ديارها معـــززة مكرّمـــة، ورغم أنها كانت في الأسر، إلا أنها تخاف عليه وتحاول أن تثنية عن قتال القوم، طالبة منه أن يفر وينجو بنفسه، حيث أنه قد أخرجها وأنهى الأمر فيقول لها: إنما يقتل مـــن أجـــل أن يحميها، ويعيدها إلى الحياة الكريمة، بعزة، دون ذلٍ أو مهانة، الحياة التي يـــسودها الأمـــن والطمأنينة، يقـــــول[1]:

ألم تعلمي يا أم توبـــــــــــــة أنني **أنا الفارس الحامي حقـــائق مذحج**

وأني صبحت السجن في رونق الضحى **بكل فتى حامـــي الذمار مدجـــــج**

فما إن برحنا السجن حتــــــى بدا لنا **جبين كقـــرن الشمس غير مشنـــج**

وخد أسيل من فتــــاة حييـــــــــــة **ألا فسقاهـــــا كل مزن مبعـــــــج**

ومثلـــــي حامي دون مثلك إننــــــي **أشدُّ إذا ما غمرة لم تفـــــــــــرج**

أضـــاربهم بالسيف عنك لترجعـــــي **إلى الأمن والعيش الرفيع المخرفج**

ولا غرو إلا قولُ سلمى ظعينتـــــــي **أما أنت يا ابن الحر بالمتحــــــرج**

دع القوم لا تقتلهم وانج ســـــالمـــــاً **وشمر هداك الله بالخيل واخــــرج**

وإني لأرجــو يابنة الخيـــــر أن أرى **على خير أحوال المؤمل فارتجــــي**

إن هذه الأبيات تظهر بطولة الشاعر، وقوته، واستماتته في سبيل القتال مـــن أجـــل زوجته، ولا عجب في ذلك، فهي بعد أن خلصها من السجن تبدو مشفقة خائفة عليه، تود لو أنه يغادر المكان بسرعة حتى لا يمسه مكروه. وهو يحاول أن يقنعها بأنه ما قاتل إلا مرغماً من أجل أن يستنقذها مما هي فيه، ليرفع عنها ظلم الظالمين، وجور الجائرين.

وفي أبيات أخرى، يحاول عروة أن يسمو بهدف الغزو والسعي وراء المال، حيـــث يحاول إقناع زوجته، أن تتركه يسعى من أجل جمع المال الذي يساعد به الآخـــرين ويـــدفع

---

[1] منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن المبارك ص 658 – 659 .

عنهم ويواسيهم، فالموت عند عروة أفضل من أن يأتي الوقت الذي لا يستطيع فيه الدفاع عن أحد نزلت به نازلة، فهو هنا يخاطر بنفسه من أجل الآخرين يقــول[1]:

دَعيني أُطوِّفْ في البلادِ لَعلَّنـــي　　　أُفيدُ غِنىً فيه لِـــذي الحَقِّ مَحْمِلُ

أليسَ عَظيماً أنْ تُلِمِّ مُلِمَّـــــــــةٌ　　　ولَيْسَ عَلينْا فـــي الحُقوُق مُعَوَّلُ

فإن نحْنُ لم نملِكْ دفاعاً بحادثٍ　　　تُلِمُّ به الأيَّـــــــامُ فالْمَوْتُ أجملُ

وهذا الشنفرى، يطلب من زوجته أن تكف عن لومه، وتدعه وحال سبيله، فانه لا بد أن يلاقي الموت يوماً من الأيام، فلم الخوف إذن، يقــول[2]:

دعيني وقولي بعدما شئت إنني　　　سيغــــــــدى بنعشي مرّة فأُغيبُ

إن الزوجة لها حدود يجب أن تلزمها ولا تتعداها، فإذا تمادت في لومها، وحاولــت منعه من أداء واجبه نحو نفسه وجماعته، فإنه لا يتردد في رفض طلبها وعــصيانها، لأنــه يرى أن إطاعة الزوجة في هذا الأمر إخلال بمبادئة وفلسفته يقــول عـــروة[3]:

إذا أمرتني بالعقوق حليلتـــــي　　　فلم أعصهـــا، إني إذا لمضيعُ

ولكنها إذا ما تمادت، وحاولت ثنيه عن عزمه وطريقه الذي خطه لنفسه، مذكرة إياه بعيالها الذين تخشى عليهم اليتم، عمد إلى ضربها، يقول الأعلم الهـذلـــي[4]:

يُلَطِّمُ وَجْهَ حَنَّنته إذا مـــــا　　　تَقُولُ تَلَفَّتنَّ إلـــــــى العِيَالِ

إن هذا الفعل من سوء خلق الرجل، حيث أن ضرب الزوجة من الأفعــال الغريبــة على الصعاليك . ولكن الصعلوك يرفض أن يعترض أي إنسان طريقه الذي خطه لنفــسه، لأنه لا يفعل ما يفعل إلا من أجل من أن يوفر لهم الحياة الكريمة، ويبعدهم عن حياة الــذل والهوان، فالأبناء هم أول من يخطر بباله وهو في ساعة الشدّة والخطر يقول الأعلــم[5]:

وذكــرت أهلـــي بـــالعـــرا　　　ء وحــاجـــة الشعث التوالب[6]

المصــرمين مـــن التـــلا　　　د اللامحيــن إلـــي الأقارب [7]

إن المرأة العربية قد تجد لها مستراحاً في البعد عن هذه الحياة، حياة الخوف مـــن المجهول، فقد ترفض الزواج ممن يعرض نفسه للمخاطر، وذلك خوفاً من فقده ومقاساة حياة

---

(1) الحماسة لأبي تمام : 30 .

(2) الأغـــاني جـــزء 21 : 161 ، ديـــوان الصعاليـــك : 11 .

(3) الديـــــــوان : 84 .

(4) شعـــر هزيـــل :319، وفي رواية :" يدمي وجه جنته " والحنة : هي الزوجـــة .

(5) شعر هـــزيـــل : 315 .

(6) العراء : الصحراء لا نبت فيها، – الشعث : ولده، – التوالب : الجحاش .

(7) المّصرم : المقل الذي لا مال له .

الذل والهوان بعده . وما الذي يجبرها علي هذه الحياة، إن كان في مقدورها تجنبها، وهذا ما فعلته امرأة من عبس خطبها تأبط شراً، فرفضت الزواج منه، وفي ذلك يقــول[1]:

وقالوا لها لا تنكحيه فــــــإنـــه ... لأول نصـــلٍ أن يلاقي مجمعـــــــا
فلم تر من رأي فتيلاً وحـــاذرت ... تأيمها من لابس الليل أروعـــــــا[2]
قليل غرار النوم أكبر همـــــــه ... دم الثأر أو يلقى كمياً مقنعـــــــــا[3]
قليل ادخـــار الزاد إلا تعلـــــــة ... وقد نشز الشرسوف والتصق المعي[4]
يناضله كـــل يشجع قـــــــوه ... وما طبه في طرقه أن يشجّعـــــــا[5]
يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنـــه ... ويصبح لا يحمي لها الدهر مرتعـــا
وإنني وإن عمــرت أعلم أننـــي ... سألقى سنان الموت يبرق أصلعـــا
على غِرَّةٍ أو جهرةٍ من مكاثـــر ... أطال نزال الموت حتى تسعسعـــا[6]

وأخيراً فإن الصعلوك ظل يجد مبررات لخوف المرأة المستمر عليه، وهو بحكمتـــه وسعة أفقه، يحاول أن يحاورها حواراً هادئاً، فيه ودٍ ومحبة، وعطف محاولاً إقناعها بمنهجه الذي رسمه لنفسه، وإن أبدى بعض الحزم أحياناً فإنه يظل رحيماً بها، عطوفاً عليها، يحبها ويتودد إليها، ويتفانى في الدفاع عنها، والذود عن حماها . من أجلها يقاتل، ولرضاها يسعى، وبقربها يسعـــد.

(ب) حثها لــــه علي التحلي بالشجـــاعـــة:

زوجة الصعلوك كأي امرأة عربية، تحب في زوجها الشجاعة، والإقدام، والفروسية وترفض أن يكون جباناً، فراراً من المعارك وساحات الوغى، فهذه زوجة تأبط شـــراً تعنف زوجها علي فراره وتركه صاحبه لبجيلة تقتله، فيجيبها معتذراً ومبرراً فـــراره بكثـــرة من كان يطلبه منهم، وأنـــه لو مكث قليـــلاً للحقوا به وقتـــلوه مـــع صاحبـــه يقـــول[7]:

ألا تكلما عِرْسي منيعــــةُ ضَمَّنَتْ ... من الله إثماً مُسْتَسراً وعالنِـــــــا[8]

---

[1] ديوان الحماسة، لأبي تمام : 189 _ 190 ، ديوان الصعاليك : 138 _ 140 .
[2] فتيلاً: الفتيل والقطمير، والنقير ، يضرب للشئي الحقير ، التأيم : فقد الزوج .
[3] الكمي : البطل المسلح .
[4] التعلة : القلة ، _ الشر سوف : طرف الضلع المشرف علي البطن .
[5] طبُّه : دواؤه .
[6] تسعسع : شاخ وهرم .
[7] ديوان الصعاليك : 173 _ 175 .
[8] عرسي : زوجتي ،– عالنا : ظاهراً .

تقولُ تركْتَ صاحباً لك ضائعـــاً **وجئت إلينا فارقاً متباطئـــــــــاً[1]**
إذا ما تركت صاحبي لثلاثــــــة **أو اثنين مثلينا فلا أبت آمنــــــــا[2]**
وما كنت أبَّاءً على الخل إذ دعــا **ولا المرءُ يدعوني ممرّاً مُداهنـــا[3]**
ولما سَمِعتُ العوص تدعو تنعَّرت **عصافير رأسي من غواةِ فراتنـــا [4]**
ولم أنتظر أن يدهمونـــــي كأنَّهم **ورائي نحْلٌ في الخلَّيةِ داكنـــــــــا**
ولا أن تصيب النافذات مقـــاتلي **ولم أكُ بالشدّ الذليق مدانيـــــــــا[5]**
فأرسلتُ مَثْنِّياً عن الشَّرِّعاطفـــاً **وقلت تزحزح لا تكوننَّ خائنـــــا**

إنها تحضه على الشجاعة والثبات في المعركة، والذود عن أصحابه في ساعة الشدّ ة والضعف ولا يعجبها أن يفّر ناجياً بنفسه، تاركاً أصدقاءه يواجهون مصيرهم . وهذا يظهـــر بجلاء دور المرأة العربية في ترسيخ القيم الإنسانية الراقية التي يجب أن يتحلى بها العربي .

إن الصعلوك لا يجد في الفرار غضاضة أو أمراً يدعو إلى الخجل والمداراة، وفـــيم الخجل ما دام الأمر يضمن النجاة، ليعيدوا الكرة من جديد ، ليحققوا أهـــدافهم الاجتماعيـــة والاقتصادية ؟

إن الفرار فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التي يفتخرون بها دائماً، وهي ســـرعة العدو وهذا هو سرُّ حرصهم على أحاديث الفرار في شعرهم، لأنها أحاديث تتيح لهم مجـــال الفخر بهذه الميزة.

لذلك لا يجد حاجز الأزدي حرجاً في إخبار محبوبته بفراره من أعدائه الذين كـــادوا أن يقتلوه،لكنه نجا منهم، يقـــول[6]:

أَلا هَلْ أتى ذاتِ الخواتمِ فرَّتـــــــي **عَشيَّةَ بينا لجرف والبحر من بعر[7]**
عشية كادت عامرٌ يقتلوننـــــــــي **لدى طَرَفِ السَّلْماءِ راغِيـــةَ البَكْرِ[8]**
فما الظبي أخطت حلقةُ الظفر رجْلَه **وقد كاد يلقى الموت في حلقة الظفـــر**

---

(1) فارقاً : وحيداً؛ من دون رفيق، متباطن : متستر .
(2) لا أبت آمنا : لا رجعت بأمان .
(3) حُمِرًّا : غير مستقيم .
(4) العوص : اسم قبيلة – تنعرت : فار دمها ، –عصفور الرأس : جزء من الدماغ ، – فراتنا : فجارنا .
(5) النافذات : الســـــهـــــام .
(6) الأغـــــاني، جزء 13 ص 217– 218 .
(7) فرتّي : فراري، الجُرف : موقع باليمن، البعر : مكان بين مكة واليمامة ، ماءلبني ربيعة .
(8) داغية البكر : صوته البكر : الفتي من الإبل، يراد به بكر ناقة صالح ، وهو مثل في الشؤم .

كمثلي أوانَ القوم بين معيَّـــــــعٍ وآخر كالنَّشْوان مُرْتَكِز يُغْــــــرِي[1]

إن حاجزاً يحدث إلى صاحبته الجميلة المتأنقة عن فرَّته دون أن يجد في هذا الحديث غضاضة، وما من سبب لذلك سوى إعجابه بنفسه، إذ استطاع النجاة من أعدائه عدواً علـــى قدميه فهو في هذا الحديث كأنما يقدم إلى صاحبته لوناً من ألوان البطولة التي يراها جـــديرة بإعجابهـــا، حتـــــى ليتساءل فـــي أول حديثــــــه في لهفـــة ظاهرة " ألا هـــل أتـــى ذات الخواتم فرَّتـــي "[2].

وفرّ من خثعم وتبعه المرقع الخثعمي ثم الأكلبيّ،ففاته حاجز، وقال في ذلك[3]:

وكأنما تَبِع الفوارسُ أرنبـــــاً أو ظبيَ رابيةٍ خفافاً أَشْعَبَــــــا[4]
وكأنما طردُوا بذِي نمراتــــــه صَرْعَا من الأَرْوَى أحسَّ مكلِّبــا[5]
أعْجِزْتُ منهم والأكفُّ تنالُنـــي ومَضَتْ حياضُهمُ وآبوا خُيَّبــــــا
أدعو شنوءَةَ غثَّها وسَمينَهـــا ودعا المرقَّع يومَ ذلك أكلبـــــا[6]

والواقع أن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة كل الوضوح في أخبار الهذليين وأشعارهم حتى لتعد سمة من سمات الشعر الهذلي [7] ففي شعر الأعلم قصيدة طويلة يتحدث فيها عـــن فراره مع صاحب له، من بلاد كنانة، مصوراً الفزع الذي انتابه عندما اقترب منهم الأعـــداء فلم يستطع القتال،فأطلق رجليه طالباً النجاة من الموت، يقـــول[8]:

لما رأَيْتُ القَوْمَ بالعَلْيَاء دُون قِدَى المُنــــاصَبْ [9]
وَفَرِيتُ من فَزَعٍ فلا أَرمى ولا ودّعْتَ صَاحِب[10]
يُغرون صاحبَهم بِنَا جَهْدَاً وأُغْرِي غَيْرَ كَـــاذِبْ
أُغْري أبَا وَهْبٍ ليُعْجِـــــزَهم وَمدَّوا بالحَلاَئِبْ[11]

---

(1) يغري : يبالغ في النكاية والقتل .

(2) أنظر الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ، ص 214 .

(3) الأغـــــاني جزء 13 ص 218 .

(4) الرابية : ما ارتفع من الأرض، – الظبي الأشعب : البعيد ما بين القرنين .

(5) الصدع : الفتى الشاب القوي من الأوعال وقيل هو الوسط منها ،والأروى : أنثى الوعل ، أو هو تيس الجبل .

(6) شنـــــــوءة : قبيلة ، وكذلك أكلب .

(7) الشعراء الصعاليك ، د . يوسف خليف ، ص 210 .

(8) ديـــــوان الهزليين ص 312 – 314 .

(9) ايقدى : تَقَدْرُ ،– المناصبْ : الرَّامي ترمية ديرميك ،والمناصِبُ : الأغراض والمرامي .

(10) فريت : بطرت : فلم أقدر على المي ، وفَرِيتُ : عجيب ،– ولا ودعت صاحب : أي لم سلم عليه .

(11) المُحلْب : المعيق ، قدُّوا : صاحوا بالإمداد ، الحلائب : جماعات جاء بعضهم في أثر بعض .

ثم يعتذر عن فراره، مبرراً ذلك بخشيته من أن يقتل بسيوفهم، فيصبح بذلك طعامـــاً للوحوش الضارية،والطيور الجارحة:

وخَشِيتُ وَقْعَ ضَرِيبةٍ قد جُرِّبَتْ كُلَّ التَّجـــــارِبْ[1]
فأَكُونَ صيدَهُمُ بها للذِّئبِ والضَّبْعِ والسَّـــــوَاغِبْ [2]
جَزَراً وللطَّيْر المـــــرُبَّةِ والذِّئَابِ وَللثَّعـــــالِبْ [3]
وتجـــــرٌّ مُجْرِيةٌ لها لَحمْي إلى أَجْرٍ حَـــــواشِبْ [4]
سُــودٍ سَحَاليل كأَنَّ جُلُودَهُنَّ ثياب راهـــــــب [5]
يَنْزِعْن جِلْدَ المرْءِ نَزْع القين أَخْلاَقَ المَـــــذَاهِبْ [6]

إن الأعلم يُجْبَر على الفرار من أعدائه بعد أن تكاثروا عليه، واقتربوا منه، الأمــر الذي جعله لا يقدر على قتال ولا رميٍ من شدّة الفزع، وحينها ترتسم في مخيلتــه صــورة مفزعة، صورة القتلى الذين يتركون لوحوش الصحراء من ضباع وذئاب وثعالب ونــسور، وحينها يدرك أنه لا سلاح لديه يستطيع به النجاة من هذه النهاية المفزعة، إلا سلاحاً واحداً، يتميز به عن باقي أعدائه ألا وهو سرعة العدو، الذي يتباها به الأعلم حين يقــول [7]:

فَلاَ وَأَبِيْكَ لا يَنْجـــوُ نَجَائــي   غَدَاةَ لَقَيتُهُمْ بَعْضُ الـــرِّجَالِ
كـــأَنَ مُلاَءَتيَّ على هِــزَفٍّ   يَعُنُّ مع العَشِيَّةِ للرِّئَـــالِ [8]
هِــزَفٍ أصنف الساقين هقْــلٍ   يبادرُ بَيْضَهُ بردُ الشَّمَـــالِ[9]
أحسَ صَبَابَةً وَعَمَـــــاءَ لَيْلٍ   يبادرُ غَوْلَ واد أو رمـــالِ [10]
كَأَنَّ جَنَاحَهُ خَفَقَـــانُ ريـــحٍ   يَمَانِيةٍ بِرَيْطٍ غَيْرِ بالـــي [11]

---

(1) الضريبة : هنا معناها السيف .
(2) الضّبعُ : جمع الضَّبُع ، – السواغب : الجياع . ويروي : " فأصير صيدهم " .
(3) المرِبَّة : المقيمة على لحم أبداً ، يريد : أدبَّ بالمكان : أقام به ، وكلُّ مخوبةٍ : جَزَرَةٌ .
(4) مُجْرِية : صَبُعٌ ذات جراء ،إلى أَجْرٍ : جمع جِروٍ، وحواشب : منتفخات البطون قصار .
(5) سحاليل : واحدها سحلال وهي العظام البطون .
(6) المذاهب : أخلة السيوف وهي بطائن الجفون المذهبة ، واحدها مُذْهَب،، – القَيْن : الحداد .
(7) ديـــــوان الهذليين : 318 – 321 .
(8) االهزف : الظليم السريع، يَعُنّ : لغة هذيل، أي يعرض ، الرِّئال : فراخ النعام .
(9) أصنف : متقشرٌ ، هقل : من أسماء النعام ، وهيقْل : تعني الطويل .
(10) العمَاء : أشد الغيم ارتفاعاً ، – غَـــوْل : بعـــد .
(11) اليمانية : الجنوب ، – الشآمية : الشمال ،– الرَّيــط : ملاحفف غير ملفقة .

وربما يصرح الأعلم الهذلي، بأنه يفر من أعدائه دون أن يبذل جهداً في قتالهم وذلك حين يقــول[1]:

بَذَلْتُ لهم بِذِي وَسْطَـــانَ شَدِّي غـــدا تئـــذٍ ولم أبذل قتالـــــي [2]

إن الصعلوك يرى الفرار سلاحاً من أسلحته في القتال، فهو يرجع إليه الفضل فـــي كثير من الأحيان، حيث أنه لولا العدو السريع الذي يتميز به، ويلجأ إله في الشدّة والضيق ما نجا، لذلك نجدهُ يبدي إعجابه برجليه اللتين تتيحان له فرصة الفرار والنجـــاة مـــن عـــدوة، فحاجز الأزدي يفدي رجليه بأمه وخالته فلولاهما لما نجا من عـــدوه[3]:

فغير قتالي في المضيق أغاثني ولكنَّ بَذْلي الشدَّ غيـــــر الأكـــاذب

فداً لكما رجْليَّ أمي وخــــــالتي بشر كما بين الصفـــــا و الأثائب [4]

ويرى أبـــو خـــراش بأنـــه لـــولا سرعـــة عدوة فـــراراً من أعدائه لآمت امرأتـــه وليتم ابنـــه[5]:

ولولا دِراكُ الشد قاظت حليلتي * تَخيّرُ من خطَّـــــابها وهي أيمُ** [6]

فتقعد أو تَرضَى مكاني خليفةً وكاد خراشٌ يـــــــوم ذلك ييتم

إن الخوف والشعور بالمطاردة، هو طابع عام طبع حياة الصعاليك، نظراً لطبيعـــة علاقتهم بالمجتمع الذي ناصبوه العداء، وناصبهم، وتنكّروا له، وتنكّر لهم وليس من الغريب أن يسيطر على الصعاليك شعور عام بأنهم مطاردون، بل الغريب ألا يكـــون لـــديهم هـــذا الشعور، فطائفة أعلنت الحرب على الناس جميعاً،وأصبح المجتمـــع بالنـــسبة لهـــم طالـــب ومطلوب، وبدء هذا الشعور كان عدم تكيفهم مع المجتمع ونفورهم منـــه، وهجـــرتهم عنـــه للعوامل التي أدت بهم إلى الصعلكة، فنرى الصعاليك بصفة عامة يحملون طابعاً بارزاً مـــن النفور من المجتمع وقد عبروا عن هذا الشعور بصراحة[7].

يقول الشنفرى مصرحاً بتصميمه على ترك الناس، والهجرة عنهم إلـــى الـــصحراء الموحشة، فهو يستبدل بني البشر، ويفضل العيش مع مجتمع الوحـــوش ، الوحـــوش التـــي

---

[1] ديـــوان الهذليين : 312 .

[2] وسطان : اسم موضع، أي خرجت أعدو ولم أقاتل .

[3] الأغـــــاني ، جزء 13 : 216 .

[4] الأثائب : جمع أثأب ، وهو شجر ينبت في بطون الأودية .

[5] الأغـــــاني ، جزء 21 :233 .

[6] قاظت : أتت عليها قيظة أي صيفة . ، القيْظ: الصيف .

[7] أنظر شعر الصعاليك . د. عبد الحليم حفني ، ص 283 الهيئة المصرية للكتاب .

أصبحت أهله، فلا تخذله، ولا تفشي له سرّاً، فهناك يجد متسعاً من الحياة، وأمناً ممن يخاف يقــول[1]:

أقيموا بَني أمِّـــــي صُدُورَ مَطِيِّكُم فإني إلــى قومٍ ســـواكم لأَمْيَلُ
فقد حُمَّتْ الحــاجــات والليلُ مقمــرٌ وشَدَّت لِطَيَّاتِ مطــايا وأرْحُلُ [2]
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خَــافَ القِلَى متعزَّلُ [3]
ولي دُونَكم أهْلُون سِيدٌ عَمَلَّـــسٌ وأرْقَطُ زُهْلُوكٌ وَعَرْفَــاءُ جَيْأَلُ [4]
همُ الأهل لا مستودع السِّر ذائـــعٌ لَدَيْهم ولا الجَانِي بما جَرَّ يُخْذَلُ [5]

ويصور لنا الشنفري حياة المطاردة، بسبب جناياته العديدة، فهو لا يستطيع النوم مطمئناً، هادئ البال، لأنه يعلم أن هناك من يترصده، ويسعي في طلبه ليل نهار، وهذا ما جعل الشنفرى يشعر شعوراً عميقاً بمدى العزلة التي يعانيها، حيث لا مفر من حياة المطاردة التي فرضت عليه، يقــول[6]:

طَرِيْدُ جِنَاياتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ عَقيْرتُـــه لأَيِهـــا حَمَّ أَوُلُ [7]
تنامُ إذا ما نَامَ يَقْظَى عُيُونُها حَثَاثاً إلى مَكْرُوهــــه تَتَعَجَّلُ [8]

ويصور مالك بن الريب حياة الخوف، والشعور بالرهبــة، والفــزع مــن الوحــدة الموحشة، حيث العيش في الصحراء المقفرة بعيداً عن الناس[9]:

أدْلَجْتُ في قمةٍ ما إنْ أَرَى أَحَــداً حتى إذا حانَ تَعْــريسٌ لِمَنْ نَزَلا
وضعتُ جَنْبي وَقُلْتُ الله يَكْلُؤنــي مهما تَنَمْ عَنْك من عينٍ فمــا غَفَلا
والسيف بيني وبين الثوب مُشْعِرُه أخشي الحوادث إني لم أكــنْ وَكِلا
ما نِمْتُ إلا قَليلاً نمْتُــه شَـــئِزاً حتى وَجَدْتُ على جُثْماني الثقلا [10]
أما تَرَي الدارَ قَفْراً لا أَنِيسَ بهــا إلا الوحوش وأمسى أهلها احتملا ؟

---

(1) ديـــوان الصعاليك : 38- 39 .
(2) حُمّت : تهيَّأت ، – الطات : الحاجات ، – مطايا وأرحل : نياق مجهزّة للرحيل .
(3) القلي : البغض – العداوة .
(4) السيد : الذئب ، العملس : القوي – الأرقط : صفة النمر – زهلول : أملس ، جيأل : ضبع .
(5) بما جر : بما ارتكب .
(6) ديوان الصعاليك : 45 .
(7) تياسرن : إقتسمته بالميسر – عقيرته : جثته أو روحه ، – حمَّ : مُدر ُ .
(8) الضمير عائد إلي الجنايات ، – حثاثاً : سراعاً .
(9) الأغـــاني الجزء : 22 : 311 – 312 .
(10) الشئز : القلق .

ويتمني عبيد بن أيوب العنبري أن يذوق طعم الأمن ولو للحظة واحدة ، وذلك بعــد أن أصبح طريداً للسلطان ، مما أجبره علي العيش في الفلوات وحيداً خائفاً قلقاً مترقباً كــل أمر ، يقــول[1]:

أذقني طعمَ الأمن أوسل حقيقــة　　　علي وإن قامت ففصل بنا نيـــا

خلعتَ فؤادي فأستطير فأصبحت　　　ترامي به البيد القفار تراميـــــا

ويصرح عبيد بن أيوب مشيراً إلي سبب خوفه ، بأنه يشعر بأن كل شيء من حوله عدو مطارد متعقب له، حتى طيران الحمامة يظنه عدواً، وحتى أصبح لا يصدق إلا حديث الخوف ولا يثق في أحد.

لقد خفت حتى لو تطير حمامة　　　لقلت عدو أو طليعة معشـــــر

فإن قِيل خير قلت هذى خديعة　　　وإن قيل شر قلت حقاً فشمـــر

وخفت خليلي ذا الصفاء ورابني　　　وقلت فلاناً أو فلانة فـــــا حذر [2]

بل العجيب أنه وصل به هذا الشعور لدرجة أنه يطلب من ظباء الوحش أن تخفيــه فيقــول[3]:

ألا يا ظباء الوحش لا تشمتنَّ بي　　　وأخفنني إن كنت فيكن خـــافيا

هذه الحياة التي فرضت على الصعاليك، إلا أن هــذا الــشعور العميــق بــالخوف، والمطاردة، لم يكن ينقص من شجاعة هؤلاء وبأسهم ، بل كان محط فخر واعتزاز، حيث أن العيش في مجاهل الصحراء وقفارها، لا يقوى عليه إلا رجال أشداء أقويــاء ، لــديهم مــن الصبر والتحمل ما ليس عند غيرهم .

يصور لنا عبيد بن أيوب جانباً من حياته في الصحراء برفقة الوحــوش، مــصرحاً بشجاعته وبأسه حيث يقول[4]:

وقد لقيت مني السباع بَلِيَّـــةَ　　　وقَدْ لاقَت الغِيلانُ منِّي الدَوَاهِيا

ومنْهنَّ قد لاقَيْتُ ذاك فلم أكُنْ　　　جَبَاناً إِذَا هَوْلُ الجبانِ اعْتَرانيا

أذَقْتُ المنايا بَعْضَهُنَّ بِأَسْهُمي　　　وقَدَّدْن لَحْمي وامْتَشَقْنَ رِدَائيـا

إن الصعلوك لا يرى بأساً في الفرار من أعدائه إذا كان لا قبل له بهم، حيث يكــون الفرار حاجة ملحة ، تضمن له البقاء على قيد الحياة، كي يعاود الكرة مــرةً ثانيــة ، وهــو يفتخر بفراره وسرعة عدوه الذي يتميز به ، ويتفوق على أعدائه به، ثم إنه لا يجد البعد عن

---

(1) الشعر والشعراء : جزء 2 :668 – 669 .

(2) شعر الصعاليك : د/ عبد الحليم حفني ص 286 .

(3) الشعر والشعراء : جزء 2 : 669 .

(4) الشعر والشعراء ، الجزء 2 : 669 .

الناس أمراً مخجلاً ، أو معيباً ، حيث أن الحياة بعيداً في مجاهل الصحراء ، إنما فرضت على الصعاليك فرضاً، لطبيعة علاقتهم بالمجتمع ، لذلك طالما افتخروا، بقدرتهم علي العيش في أماكن لا يقدر غيرهم على العيش فيها، وكل هذه الأمور طبيعية في مجتمع الصعاليك، الذين يقاتلون ويغزون في أعداد قليلة وليس في جيوش جرّارة.

إنه يرى أن الفرار من المعركة، قد يكون أمراً طبيعياً في بعض الحالات التي يكون فيها الخطر محدقاً، ولا قِبل للإنسان بمواجهته، إنه قرار المقاتل الشجاع لا الجبان الرعديد، فإذا ما اتهم بالجبن فإنه يسارع إلى نفي ذلك، مذكراً بصفاته التي يتصف بها، في قتال أعدائه، يقول أبو خراش[1]:

فإن تزعمي أني جبنت فإنني	**أفر وأرمي مرّة كل ذلك**
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً	**وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك**

فالشاعر هنا لا ينفي الفرار، ولكنه فرار الفارس الشجاع الذي لا يكف عن القتال، لا فرار الجبان الخائف.

إن الزوجة تحب أن ترى زوجها على أكمل صورة، تحب أن يكون شجاعاً فلا يجبن، صبوراً لا يجزع،وفيا لا يغدر،لا يتخلى عن أصحابه في ساحات الوغى،وكي تكتمل الصورة لديها، فإنه يجب عليه ألا يخلف وعده الذي وعده،وعهده الذي عاهد عليه، فإن فعل ذلك سارعت المرأة إلى تذكيره بهذا الوعد مثلما فعلت زوجة الشنفرى، حين ذكرته بعهده الذي قطعه على نفسه، بأن يقتل من بني سلامان مائة رجل مقابل مقتل أبيها، وقالت له خست بميثاق أبي عليك فقال[2]:

كأنْ قدْ فلا يغرْركِ منيِّ تمكُّثي	**سلكتُ طريقاً بين يَرْبَعَ فالسَّرَدِ [3]**
وإني زعيمٌ أنْ تثورَ عَجاجتي	**على ذي كساءٍ من سلامان أو بُردِ [4]**
وأمشي لدى العَصْداء أَبغْي سَرَاتهمْ	**وأَسْلُكُ خلاً بين أرْفَاغَ والسَّرْدِ [5]**
هُمُ أعدموني ناشئاً ذا مَخيلةٍ	**أُمَشِّي خلال الدار كالفرسِ الوَرْدِ [6]**

---

[1] ديوان الهزليين : جزء 2 : 169 .

[2] الأغاني، جزء 21 : 216 ، ديوان الصعاليك : 24

[3] يربع : اسم موضع لبني تميم ، – السّرد : موضع للأزد .

[4] زعيم : كفيل ، – ألف عجاجتي : أن أعير ،– ذو كساء : كناية عن الفقير ، – ذو بُرْد : كناية عن الغنى .

[5] العصداء : ماء لبني سلامان ، – السِّراة : رؤساء القوم وأشرافهم – الخلّ : الطريق المرمل – أرفاغ والسَّرد : جبلان لبني سلامان .

[6] أعدموني ناشئاً : كناية عن سبيه صغيراً، – ذو مخيله : ذو خيلاء ، وهو كناية عن جهله بالأمور .

كأني إذا لم يُمس في الحي مالــك بتَيْماءَ لا أُهْدَى السبيل ولا أَهْـــدِي

إن الشنفرى يخبر زوجته، أنه لم ينس عهده، ولم يتغافل عنه، بل إنه عازم على البر به وإنفاذه، لذلك نجده يخبرها بما سيفعل، معتداً بنفسه، واثقاً من قدراته، مؤمناً بقضيته،.

والزوجة ترى أنه من الشجاعة ألا ينام الرجل على ضيم، ولا يتقاعس عن ثأر، ولا يتخلى عن حق ، وربما تجد أنه من الوفاء لزوجها ألا يتناسى ثأره فهذه أميمة امرأة عــروة بن مرّة تدخل على أبي خراش وهو يلاعب ابنه، فتقول له : يا أبا خراش تناســيت عــروة وتركت الطلب بثأره، ولهوت مع ابنك، أما والله لو كنت المقتول، ما غفل عنــك، ولطلــب قاتلك حتى يقتله، فلما سمع ذلك أبو خراش بكى، وأنشأ يقول لها أنه لم يتناسى عهــد أخيــه وثأره، ولكنه رجلٌ صبور، ينتظر الوقت المناسب للأخذ بثأره يقــول[1]:

لعمري لقد راعت أميمة طلعتـــي وإن ثَوائي عندهـــــا لقليلُ [2]
وقالت أَراهُ بعدَ عروةَ لا هيــــاً وذلك رزءٌ لــــو عَلمت جليلُ
فلا تحسبي أني تناسيت عهـــده ولكن صبري يـــا أُمَيمَ جَميلُ
ألم تعلمي أن قَدْ تفرَّقَ قَبلنـــا نديما صفاءٍ مالكٌ وعقيــــلُ
أبى الصبرُ إنيَّ لا يزالُ يهُيجُني مبيتٌ لنا فيما خلا ومقيــــلُ
وإنيّ إذا ما الصبح آنست ضــوءَه يعاوِدُني قطعٌ علي ثقــــلُ

(ت) حرصها على ماله وعياله:

إن في شعر الصعاليك نماذج تتحدث عن حرص الزوجة على مال زوجها ولومها له على إنفاقه، حيث كانت تحرص على القصد في إنفاقه، فالصعاليك كــانوا يحبــون الجــود والكرم، ويحاولون إقناع زوجاتهم بذلك، وربما لا يطيق الصعلوك لوم زوجته، ويضيق بــه ذرعاً إذا ما تمادت في لومها، وقد يصل به الأمر إلى التهديد بالرحيل عنهــا فــي مجاهــل الصحراء كما يقــول تأبــط شــراً [3]:

بَلْ مَــنْ لعَذالَهة خَذَّالَـــةٍ أَشب حرَّقَ باللُّومِ جلْدي أَيّ تَحْـــراقَ
تقــولُ أَهْلَكْتُ مالاً لو قَنعتَ به من ثَوْبِ صدْقٍ ومن بــزٍ وأَعْلاقِ
أَعــاذلتي إنَّ بَعْضَ اللومِ مَعْنَفَةٌ وهَلْ متاعٌ وإنْ أَبْقَيتُه بـــاقِ
إني زعيمٌ لئن لم تتركي عَذَلــي أن يسألَ الحي عَنِّي أَهْلُ آفـــاقِ

---

(1) الأغـــاني جزء 21 : 247 .

(2) ثـــوائي : مكثي .

(3) المفضليـــات : 30 ، ديـــوان الصعاليـك : 148 .

أن يَسْأَلَ القــوم عنّي أَهْلَ مَعْرِفَةَ   فلا يُخبِّرهُمْ عن ثابتٍ لاقــــــــــي
لَتَقْرعنَّ علىَّ السِّنَّ مِنْ نَـــــــدَمٍ   إذا تَذَكَّرْتِ يَوْماً بَعْضَ أَخْلاقــــــــي

إن حرص الزوجة على المال، وحبها له،قد يجعلها تتخلى عن بعض حــذرها مــن بعض الأخطار التي قد تلم بزوجها، فتأمره بالمخاطرة من أجل المال، المال الــذي يجعــل لصاحبه هيبة، في مجتمع لا يعترف بالفقراء، وهنا تكون المخاطرة بالنفس أمراً محتوماً أمام قسوة الواقع المعاش، وربما تكون ضرورات الحياة واقتناص العيش ســداً للحاجــة، ودرءاً لخطر الموت جوعاً وراء حث كثير من الزوجات أزواجهن للخروج من أجل طلب الزرق، رغم علمهن بما يحدق بهم من أخطار، ولكنه الأمر الذي لا بد منه، يقــول عــروة[1]:

قالتْ تُماضرُ إذ رأت مالي خوى   وجفا الأقاربُ، فالفــؤادُ قريــحُ
مالي رأيتُكَ في النَّدي منكســـاً   وصِباً، كأنَّكَ في النــــدي نطيحُ
خاطرْ بنفسك كي تصيبَ غنيمةً؛   إنَّ القُعُودَ، مع العيــالِ قبيــحُ
المالُ فيــه مهابةٌ وتجلَّــــــةٌ   والفقرُ فيه مذلَّـــةٌ وفُضُـــوحُ

إن العلاقة بين الفرد والمجتمع مرهونة بما يملكه الفرد، فتماضر أدركت أن المجتمع يجل الأغنياء، ولا يعبأ بالفقراء، لذلك هبت تحث زوجها على المخاطرة من أجل المال، الذي يعلو به شأنه، وتسمو مكانتــه.

إن عروة يرفض أن يكون الثراء هو أساس السيادة والتقدم حين يقــول[2]:

ما بالثراء يسود كل مســوَّدٍ   مثرٍ ولكن بالفعـــال يسودُ

فالمرء يسود بفعاله لا بماله كما يرى عروة.

ويتمثل حرص الزوجة على مال زوجها، في هذه الصورة التي رسمها لنا عروة بن الورد، الذي يأبى إلا أن يكرم ضيفه، حتى وإن أغضب ذلك زوجته، التي تبيت ولها كتيت، فيتساءل، أمن أجل ناقة مسنة أطعمتها للفقراء، تنام أم وهب غاضبة له شخير كصوت غليان القــدر[3]:

أفي ناب منحناهــا فقيـــراً   لــه بِطَنابنــا طنبٌ مصــيتُ [4]
وفضلة سَمْنَهٍ ذهبت إليــــه   وأَكْثَــرُ حَقِّــه مالا يَفُــوتُ [5]

---

(1) الديـــوان : 54 .
(2) الديـــوان : 57 .
(3) الديـــوان : 49 ديـــوان الصعاليك : 61- 62 .
(4) الناب : الناقة المسنة ،- طناب ، جمع طنب: حبل تُشدُّ به الخيمة والوتر،- مُصيت : مسموع صوته .
(5) السمنــــة : السمن .

تَبيتُ على المرافقِ أُمُّ وهـبٍ وقد نام العيونُ لهـا كتيتُ [1]

إن غضبها ليس مبرراً عند عروة، لأنها تعلم أخلاقه، وأن الكرم خصلة مستحكمة منه، فهو كريم في غناه وفقره، لأن الكرم من شيم الكرام، السادة الشرفاء، الذين يحيون لقضاء حاجات الآخرين، ولا يحيون لأنفسهم، يقول[2]:

وقد علِمَتْ سُلَيْمى أَنْ رأْيي ورأْي البخـلِ مُختلفٌ شَتيتُ

وأنِّي لا يريني البخـل رأيٌ سواءٌ إن عطشتُ، وإن رويت

وأني حين تشتجرُ العوالي حوالي اللُّب، ذورأي زميت [3]

وأكفي، ما علمتُ بفضل علم وأسأل ذا البيان إذا عميت

إن الصعلوك إلا يحب أن يلومه أحد في خصلة يعتز بها، ويراها مبدأ راسخاً من مبادئه في الحياة، لذلك يطلب من زوجته أن تسأل عنه ضيوفه الذين يطرقون الباب ليلاً، فتعلم كيف يقابلهم بوجه مشرق، ويعجل لهم بالطعام يقول عروة[4]:

سلي الطارق المعتر يا أم مالكٍ إذا ما أتاني بين قدري ومجزري [5]

أيسفر وجهي، إنه أول القرى وأبذل معروفي له دون منكري [6]

لقد كان الصعلوك مرناً في علاقته بزوجته، يخاطبها في لين ورفق، ويحاول أن يسوغ لنفسه سلوكاً، فهي إن أظهرت البخل، وأمسكت يدها عن المعروف حيال الآخرين أمرها بالبذل والعطاء، وإن أبدت جفاء في معاملتها له، وتأسفت على زواجها منه، وأنكرته، لفقره وبذله المال للمحتاجين، قابل تصرفها هذا بحكمة، وخاطبها برفق، علها تثوب إلى رشدها، وعدد لها خصاله وصفاته، ووصف لها طرق عيشه، علها تتعرف إلى طبيعة حياته القاسية فتكف عن تنكيدها وسوء تصرفاتها، وخير من يمثل هذه الحال أبو خراش في ميميته التي يقول في مطلعها[7]:

لقد علمت أم الأديبر أنني أقول لها: هدي ولاتذخري لحمي

فإن غدا إن لا نجد بعض زادنا نفيء لك زاداً أو نعدك بالأزم

---

(1) المرافق:جمع مرفق، الموصل بين الساعد والعضد،– الكتيت:صوت غليان القدر،– أم وهب : زوجته .

(2) الديوان : 50 ، ديوان الصعاليك : 62 .

(3) حين تشتجر العوالي : يختلط بعضها ببعض في الحرب، اللب : العقل ، الزميت : أي الجليل الوقور .

(4) الديوان : 87 ،ديوان الصعاليك : 92 .

(5) الطارق : القادم ليلاً ، المُعتَّر : الذي يأتي للمعرف من غير سؤال .

(6) يسفر : أي يشرق ، المنكر :القبيح والعمل الرديء ، ومضادة المعروف .

(7) ديوان الهذليين، جزء 2 : 125 – 132 .

وقد رسم في قصيدته هذه صورة دقيقة لجوانب الحياة الزوجية، عبر من خلالها عن النفور وسوء العلاقة وعدم الانسجام بين الزوجين، وبين فيها الملامح السلبية لصورة الزوج، ورصد فيها بعض مواقفها الخاطئة المتمثلة في إثارة المعضلات الأسرية وغيرهـــا.

(ث) عصبية الزوجـــة وعلاقتها بأهلهـــــا :

إن زواج المرأة لا يقطع صلتها بأهلها، وعلاقتها بهم، فروح العصبية عند العــرب كانت قوية، ولهذا نجد الزوجة في الشعر الجاهلي يكون لها ضلع مع أهلها فتشعر بشعورهم، وتميل ميلهم، فإذا ما نشبت حرب بين حي أهلها وحي زوجها فهي برغم إخلاصها الــشديد لزوجها كانت، مدفوعة بدافع العصبية القبلية، تميل مع قبيلتها، وهذا هو موقف جليلة أخــت جساس في حرب البسوس وموفق امرأة من بني النجار في حرب الأوس والخــزرج.

فكانت الزوجة لا تدخر جهداً في إبلاغ قومها بنية أعدائهم إذا ما أرادوا بهم شــرّاً، فكانت تخبرهم بالأسلوب الصريح، وإن تعذر عليها أخبرتهم بالرموز حتى تفهمهم الأمــر، وقد حصل في حرب زهير بن جناب مع بني القين بن جسر أن أرسلت إحدى أخوات زهير وكانت متزوجة في بني القين " فجاء رسولها إلى زهير ومعــه برد فيه صـــرار رمــل وشوكة قتــاد، فقــال زهيــر لأصحابه أتتكم شوكة شديــدة وعــدد كثيــر فاحتمــلــوا ".

وكان أهل الزوجة بدورهم لا يقطعون صلتهم بفتاتهم التي تزوجت في قبيلة أخرى، وهم يتفقدون أحوالها، ويمدون إليها يد المعونة عند الحاجة ووقت الشدّة[1].

ومن أشعار النساء في عشائرهن قول الخِرنق بنت بــدر[2]:

لا يبعدنْ قَومْــــي الذين هُمُ ... سُمُّ العداة وآمــــةُ الجُـــزُرِ[3]
النازلــــــون بكل معترك ... والطيبين معـــــاقد الأزر[4]
الضَّاربُون بِحــــــوْمةٍ نُزِلَتْ ... والطَّـــاعِنُونَ بـــأَذْرعٍ شُعُرِ
إن يَشْرَبُوا يَهَبُــوا، وإن يَذَرُوُا ... يَتَواعَظُـــوا عن مَنْطِقِ الهُجْرِ[5]

---

(1) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي . علي الهاشمي ، ص 178 – 179 .

(2) ديـــوانها، رواية أبي عمرو بن العلاء، تحقيق يسري عبد الغني عبد الله، ص 43 – 46 . دار الكتب العلمية – بيروت .

(3) لا يبعدنَّ قومي : لا يُهلكَنَّ قومي .– العداة : جمع عاد ، – آفة الجزر : الآفة العلة ، الجُزْر : جمع جزور والمراد بآفة الجزر : أنهم كانوا يكثرون نحر الجزر للضيوف .

(4) المعترك : موضع القتال، – الأُزْر : (بضم الهمزة وسكون الزاي) جمع إزار ،– المعاقد : موضع عقد الإزار .

(5) الهُجْـــر : المنطق الفاحـــش .

قوم إذا ركبـــــوا سمعت لهم   لَغَطاً من التَّأييه والـــزجـــر[1]
من عير ما فحشٍ يكـــون بهم   في مَنْتَجِ المُهُراتِ والمُهْــــرِ[2]
هذا ثنائي مـــــا بقيتُ لَهمُ   فإذا هَلَكْتُ أجَنَّني قبـــــري[3]

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب تفخر بيوم عكــاظ [4]:

سائل بنـا فـي قومنــــا   وكفاك من شـرٍّ سَماعـــه
قيساً وما جمعـوا لنــــا   في مجمع باقٍ شنـاعُــه
فيـــه السنَــــورَّ والقنـــا   والكَبْش ملتمــع قنـاعُــه[5]
بعكاظ يعشى الناظـــــر   ن إذا هم لمحـوا شعاعُـه[6]
فيه قتلنــا مالكـــــاً   قَسْـراً وأسلمـه رَعـاعـه
ومجـدّلاً غـــادرنـــــه   بالقـــاع تنهشـــه ضباعُه

وتتضح عصبية الزوجـة، ومـدى انتمـائهـا لأهلها وذويها، في قـصّة زوجـة عروة بن الورد، التي فضلت الرجوع إلى أهلها على البقاء عند زوجها وأطفالهـا، حيـث يروى أن عروة [7] أصاب امرأة من كنانة بكراً يقال لها سلمى،وتكنى بأم وهـب فأعتقهـا واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولاداً، وهو لا يـشك فـي أنهـا أرغب الناس فيه، وهي تقول له لو حججت بي، فأمر على أهلي وأراهم، فحج بها فأتى مكة ثم أتى يثرب، وكان يخالط من أهل يثرب بني النضير فيقرضونه إن احتـــاج ويبـايعهم إن غنـم.

وكان قومها يخالطون بني النضير، فأتوهم، وهو عندهم، فقالت لهم سـلمى : إنــه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام، فتعالوا إليه واخبروه أنكم تستحيون أن تكون امـرأة منكم معروفة النسب، صحيحة سبية، وافتدوني منه، فإنه لا يرى أن أفاديه، ولا أختار علية أحداً، فأتوه، فسقوه الشراب، فلما ثمل قالوا لــه : فادنا بصاحبتنا، فإنها وسيطة النسب فينا،

---

(1) اللغط : الذي لا يكاد يفهم،– التأييه : التصويت ، يقال : أَيّهْتُ به : إذا صحت به ، – الزجر : يعني زجر الخيل .

(2) المُهرات : جمع مُهْرَةَ ، والمهر : تريد به جنس الأمهار .

(3) تقول إني إذا أجنني قبري بقي عليهم ثنائي وشعري .

(4) المرأة العربية عبد الله عفيفي جــ1 :193 .

(5) السنوّر الدروع أو جملة السلاح ، وقناع الفارس بيضته .

(6) الباء في بعكاظ متعلقة بقولها مجمع ، ويجوز أن تكون متعلقة بملتمع ، ويعشى الناظرين أي يخطف أبصارهم .

(7) الأغانـــي جــ 3 : 72 وما بعدها .

معروفة، وإن علينا سبة أن تكون سبية، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها، فاخطبها إلينـــا، فإننا ننكحك.

فقـــال لهـــم : ذاك لكم، ولكن لي الشرط فيها أن تخيروها، فإن اختارتني انطلقـــت معي، إلى ولدها، وإن اختارتكم انطلقتم بها . قـــالوا : ذلك لك.

قـــال: دعوني الليلـــة وأفاديهـــا غداً . فلما كان الغـــد جـــــاؤوه فـــــامتنع مـــن فدائهـــا ، فقالـــوا لـــه: قد فاديتنا بها منذ البارحة،وشهد بذلك جماعة ممن حضر، فلم يقدر على الامتنـــاع وفـــاداها . فلما فادوه بها خيروها فاختارت أهلها . ثم أقبلت عليه فقالـــت : يا عروة أما إني أقول فيك،و إن فارقتك، الحـــق، والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت ستـرَها على بعل خير منك، وأغض طرفاً وأقل فحشاً، وأجود يداً وأحمى للحقيقة.

وما مرّ علي يوم، مذ كنت عندك، إلا و الموت فيه أحب إلي من الحياة بين قومـــك لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا، إلا ســـمعته ، والله لا أنظـــر فـــي وجـــه غطفانيـــة أبدا، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم ، فقـــال عـــروة فـــي ذلك[1]:

أرقتُ وصُحبتي، بمضيق عمقٍ	**لبرق، في تهامة، مستطير**[2]
إذا قلت استهل على قديـــــد	**يحورُ ربابُهُ حور الكسيـــر**[3]
تكشف عائذٍ بلقاء، تنفـــــي	**ذكور الخيل عن ولدٍ شفور**[4]
سقى سلمى، وأين ديار سلمى	**إذا حلت مجاورة السريـــرِ**[5]
إذا حلَّت بأرضِ بني علـــيّ	**وأهلي بين زامرة وكيـــــر**[6]
ذكرت منازلاً من أم وهـــب	**محل الحي أسفلَ ذي النقيـــر**
وأحدث معهداً من أم وهـــب	**معرسنا بدار بني النضيـــر**[7]
وقالوا: ما شاء؟ فقلت ألهـــو	**إلى الأصباح، آثر ذي أثيـــر**

---

(1) الديــــــوان : 62- 64 . ،ديـــــوان الصعاليك : 75 – 77 .

(2) عمق : اسم بلدة بالمدينة ، مستطير : منتشر .

(3) قدير : مكان قريب من مكة، – استهل : صات ،– ربابة : سحابة –يجور : يرجع ، – الكسير : البطيء في المشي .

(4) العائذ : الحديثة النتاج ،– سفور : الشفر هو رفع الرجلين .

(5) السرير : اسم مكان في بلد بني كنانة .

(6) بنو علي : قوم من بني كنانة – زامرة وكير : موضعان .

(7) أم وهب : كنية زوجته . – ذو النقير : اسم موضع لبني القين ولبني كلاب .

بآنسة الحدث، رضـــاب فيها بعيد النوم، كالعنب العصيــــــر[1]
أطعت الآمرين بصرم سلمى فطاروا في عضــــــاه اليستعور[2]
سقوني النسئ، ثم تكنفــوني عداة الله مـــــــــن كذبٍ وزور[3]
وقالوا: لست بعد فداء سلمى بمغن، ما لديك ، ولا فقيـــــــر
ألا وأبيك،لو كاليـــوم أمرى ومن لك بالتدبُّر في الأمــــــور
إذاً لملكت عصمـــة أم وهـــب على ما كان من حسك الصدور[4]
فيا للناس كيف غلبت نفســـي علـــى شيء، ويكرهه ضميـــــري
ألا يا ليتني عاصيت طلقـــــاً وجباراً، ومن لـــــي من أميــــر[5]

إن هذه المرأة الكنانية فضلت العودة إلى قومها، والعيش في كنفهم، تاركــة خلفهــا أطفالا خمسة، وزوجا أحبها وأحبته، وعاشت معه خمسة عشر عاماً، وكان معها نعم الزوج، وهذا يظهره ما قالته فيه عند فراقه، في القصة السالفة الذكر، كما يظهر حب عروة لها جلياً في بكائه عليها، ولوعته على فراقها، وندمه على مفاداتها ورب قائلٍ يقول، إنما تركته لأنها كانت سبية،وهذا تنفيه القصة السالفة، كما أن في أخبار العرب الكثير من القصص التي تدل على أن بعض النساء فضلن البقاء مع أزواجهن على العودة لأهلهن، ومنهن ابنة قيس بـــن عاصم، التي رفضت العودة مع أبيها حين خيرها النعمان [6]. كذلك بقيت ريحانة بنت معـــد يكرب الزبيدي، أخت عمرو بن معد يكرب عند الصمة وأنجبت له دريد بن الصمة، وكـــان سيد بني جشم وقائدهم، وإخوته عبد الله وعبد يغوث وقيس وخالد . وولدت زوجة ثور بـــن حارثة في الجاهلية أربعة نفر كانوا من أشد العرب لساناً ويداً، وأمنعهم جانباً في الجاهليـــة والإسلام، حتى كانوا يأخذون هُدْباً من قطيفة أمهم ويلقونه على الماء فلا يردُه أحـــــد[7].

وفي قصة مماثلة روى ابن الأعرابي [8] أن عروة كان قد سبى امرأة من بني هلال بن عامر بن صعصعة يقال لها ليلى بنت شعواء، فمكثت عنده زمناً، وهي معجبه له، تريـــه أنها تحبه، ثم استزارته أهلها، فحملها حتى أتاهم بها، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه،

---

(1) الآنسة : التي لا تنقر – رضاب فيها : ريق فمها .
(2) اليستعور : اسم موضع .
(3) النسيء : المُسْكر .
(4) الحسك :الخشونة والغل والعداوة .
(5) طلق وجبار : أخوة وابن عمة .
(6) أنظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي جـ 1 : 44 .
(7) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، ص 485 .
(8) الأغـــــــاني : جزء 3 : 77 .

وتوعَّده قومها بالقتل، فانصرف عنهم، وأقبل عليها وقال لها : يا ليلى خبِّري صواحبك عني كيف أنا ، فقالت: ما أرى لك عقلاً، أتراني قد اخترت عليك، وتقول خبري عني ؟ فقال في ذلك[1]:

تحنُّ إلى ليلى بحُرِّ بلادها	**وأنت عليها بالملا كنت أقدار[2]**
يَحلُّ بوادٍ من كَراءٍ مُضلّةٍ	**تُحاولُ ليلى أَنْ أَهابَ وأَحصرا[3]**
وكيف تُرَجِّيها وقد حيل دونها	**وقد جاورت حياً بتَيْمَنَ مَنْكَرا[4]**
تَبغَّانيَ الأَعْدءُ إما إلى دمٍ	**وإمّا عُراضِ السعادين مصَدَّراً[5]**
يَظَلُّ الأباء ساقِطاً فوق متنه	**له العَدْوَةُ الأولى، إذا القِرْنُ أَصْحَرا[6]**
كأنّ خوات الرَّعدِ رِزْءُ زئيره	**من اللأَّء تَسْكُنَّ العَرِيْنَ بعسَّرا[7]**
إذا نَحْنُ أَبْردنا وردت ركابنا	**وعن لنا من أمرنا ما تيسرا[8]**
بدالك مني، عند ذاك صر يمتي	**وصبري، إذا ما الشيئ ولى فأدبرا[9]**
وما أنسم الأشياء لا أنس قولها	**لجارتها ما إن يعيش بأحورا[10]**
لعلك يوماً أن تسري ندامة	**علي بما جشمتني يوم غضورا[11]**
فغربت إن لم تخبريهم فلا أرى	**لي اليوم أدنى منك علماً وأخبرا[12]**
قعيدك، عمر الله، هل تعلمينني	**كريماً إذا اسود الأنامل أزهرا[13]**

---

(1) الديوان : 65 – 66 ، ديوان الصعاليك : 78 – 80 .

(2) بحرّ بلادها : بين قومها ، – الملا : الأرض الواسعة (في الصدرين السابقين سلمى بدل ليلى) وفي الأغاني ليلى وهو الأصوب .

وأشار ديوان الصعاليك إلى الروايتين بليلى وسلمى في الحاشية .

(3) كَراء : أرض تكثر فيها الأسود . – أحصرا : أصيف عن ذلك ، أعجزه ز

(4) تيمن : أرض قريبة من جرش ، وقيل في بلاد اليمن ، – منكر : غير معروف .

(5) عُراض الساعدين : يراد به الأسد .

(6) الأباء : القصب ، أي أن هذا الأسد يسكن الغياض ، ويتساقط القصب على فتنة .

(7) خوات الرعد : شبه صوت زئير الأسد بصوت الرعد ،– الخوات : صوت الرعد . – عُصَّر : مكان مأسَدة .

(8) ردت ركابنا : ردت ما شيتنا من الرعي ، – عنّ لنا : عرض لنا .

(9) صريمتي : أي مضائي وعزيمتي في الأمور .

(10) بأحورا : هو في هذا الموضع العقل ن يقال للرجل : ما إن يعيش بأخور ، أي ذهب عقله .

(11) تسري : تظهر ، عضور : ماء لطئ ، – جشمتني : حملتني .

(12) فَغُرِّبْت : يدعو عليها بالبعد حتى تصير غريبة .

(13) مَعيدك : قسم يعني به : اذكرك – عمُر الله : بقاء الله .

صبوراً على رزء الموالي وحافظاً لعرضي، حتى يؤكل النبت أخضرا[1]
أقب ومخماص الشتاء مـــــرزأ إذا اغبر أولاد الأذلة أسفــــــرا[2]

وفي حادثة أخرى تتجلّى عصبية المرأة لأهلها وقومها من العرب، ولا ترضـــى أن ينتقص شيء من قدرها ومكانتها، وتغضب إذا ما حاول أبناء الإماء التطلع إليها وهي ابنـــه الأشراف، فهذه ابنه السهمي تلطم الشنفرى على وجهه لأنه قال لها : اغـسلي رأســي يــا أخيه،وهو الذي تربى معها صغيراً، إلا أن هذه التربية لم تنسها نفسها، وقدرها، ولم تنــسها أنه مولى ابن أمة، وفي ذلك يقول الشنفرى مفتخراً بنسبه وأمه[3]:

ألا هَلْ أَتى فِتيَانَ قَوْمي جَماعَةً بما لَطَمَتْ كفُّ الفتـــاةِ هجينَها [4]
ولو علمت قُعْوُسُ أَنْساب والدي وولدها ظلَّت تقــاصرُ دونهــــا [5]
أَلَيْسَ أَبي خيرَ الأَواسِ وغَيْرها وأُمِّي ابْنَةَ الخَيْرَيْنِ لــو تَعْلَمِينْهَــــا
إذا ما أرومُ الوُدَّ بيني وبَيْنَهـــا يؤُمُّ بياضَ الوَجْهِ مني يَمينُهـــــــا

وتعيب زوجة الشنفرى عليه تراخيه في الأخذ بالثأر لأبيها ممن قتلوه، حيث أن بني سلامان قتلوا والدها لأنه زوجها منه، وكان الشنفرى قد وعده إن قتلوه، ليقتلن منهم مائـــه، فلما بلغ الشنفرى مقتله، سكت ولم يظهر جزعاً عليه، وطفق يصنع النبل، ويجعل أفواقها من القرون والعظام، ثم إن امرأته بنت السلاماني قالت له ذات يوم :لقد خسْت بميثاق أبي عليك، فجعل يغزوهم ويقتلهم، ويعرفون نبله في قتلاهم، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً . وفي هذه الحادثة يقــول[6]:

كأن قَدْ فلا يُغْرُرْك منـــــي تمكُّثِي سَلَكْتُ طريقــاً بين يَرْبَعَ فالسَّرْدِ[7]
وإني زعيمٌ أنْ أَلُفَّ عَجــــــاجَتي على ذي كساء من سَلامان أوبُرْدِ[8]
وأمشي لدى العَصْداء أبْغي سَرَاتَهُمْ وأَسْلُكَ خلاًّ بَيْنَ أَرْفَــاغَ والسَّــرْدِ[9]

---

(1) رزء الموالي : أي منالهم مني .
(2) ديــــوان الصعاليك : 53 – 54 .
(3) ديــــوان الصعاليك : 53 – 54 .
(4) الهجين : الذي أبوه عربي وأُمُّه غير محصنة .
(5) قَعوس : لقب للجارية، – تقاصَرَ : تتقاصر .
(6) ديــــوان الصعاليك : 24
(7) يربع : اسم موضع لبني تميم ، – السّرد : موضع للأزر .
(8) زعيم : كفيل – ألف عجاجتي : أن أُغير – ذو كساء : كناية عن الفقر ، – ذو برد : كناية عن الغنى ، أي أنا كفيل بأن أغير على الفقير من بني سلامان وعلى الغني .
(9) العصداء : ماء لبني سلامان – السَّراة : رؤوساء القوم وأشرافهم – الخّل : الطريق المرمل – أرفاغ والسرد : جبلان لبني سلامان .

هم أَعْدَموني ناشئاً ذا مَخيلـــــــةٍ بتَيْمَاءَ لا أُهْدَى سبيلاً ولا أهــدي[1]

وهذا يصور لنا شيئاً من روح العصبية القبلية العنيفة التي كانت ضارية أطنابها في الجزيرة حتى جاء الإسلام، فاستعاض عنها الناس بالنزعة الإسلامية التي تجعل المؤمنين في المعاملات أخوة أمام الله ودار الإسلام . وهو خير من العصبية التي كانت تستند إلى الـــدم وليس فيه فضل لإنسان على إنسان بخلاف العقيدة والرأي. على أن ميل الزوجة مع قومهـــا وأهله لم يكن مطرداً عندهن كافة . فقد وجد بعض النساء ملن مع أهل أزواجهن وساعدنهم في الحرب على قبائلهن، فقد روي أن امرأة كانت متزوجة في بني عـــبس فأتاهـــا أهلهـــا ليضموها إليهم وأخبروها بعزمهم على الحرب ضد عبس فأعلمت بدورها زوجهـــا، الـــذي أخبر قومه، واستعدوا فحصنوا مواقعهم ولم ينل منهم العدو شيئـــــاً[2].

(1) أعدموني ناشئاً : كناية عن سبيه صغيراً – ذو مخيلة : ذو خيلاء

(2) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص 180 .

أولاً: الأم

لعل من أكثر النساء تأثيراً في حياة العربي عامة، والصعلوك خاصة، الأم، ولـذلك لأنها هي التي تلد وتربي، وتزرع في ابنها الصفات الحسنة، والخلال الحميدة، لها ينتسب أحياناً وبها يفتخر، وعنها يذود،يخصها بأصفى المودة، وأنقى الحب، الحب الفطري الخالص ومع هذا كله فقد تكون الأم سبب معاناة وشقاء أبنائها، دون قصد منها، أو إرادة حيث أن الأبناء يحملون – قهراً وظلماً من المجتمع – أعباء وضاعة أنساب أمهاتهم، فيحيون حياة المعاناة الدائمة، نفسياً وجسدياً، ..... الخ .

من أجل هذا كله رأيت أن أبدأ هذا الفصل بالأم من حيث مكانتها عند أبنائها، أثرها عليهم، وحبها لهم، وحبهم لها فخرها بهم، وفخرهم بها، كذلك مبيناً معاناة بعضهم بسببها .

1-مكانـة الأم في الشعر الجاهلي :

الأم "هي مَنْبَتُ فتيان العرب، ومعقد فخرهم، ومثار حَمِيَّتهم، ومستقى أدبهم، وملاذهم إن جدَّبهم الدهر،ومفزعهم إن أشكل عليهم الأمر، ومُقولهم إن فدح الخطب، وعز المعين تلك هي الأم العربية موطن ثقة الأب، وفخر الابن وعز العشيرة،

لقد نزع رسول الله ﷺ – بفخره وهو أكرم العالمين خليقة وأكملهم كمالاً – إلى أمهاته في الجاهلية فقال : " **أنا ابن العواتك من سُلَيم** " . وشبيه بذلك قول علي ﷺ للأشعث بن قيس وقد خطب إليه ابنته : غرّك ابن أبي قحافة إذ أعطاك ابنته وليست من الفواطم من قريش، ولا العواتك من سُلَيْم [1].

ليس عجباً بعد ذلك أن نرى كثيراً من القبائل العربية تنتسب إلى أمهاتها مثل خندف وجديلة، وبجيلة ومزينة، وعاملة، وعفراء، وباهلة، وسلول، وبنو رقاش، وبنو طفاوة، وبنو العبدية، وبنو طهية، وبنو حطى .... .

وانتسب الملوك أيضاً إلى أمهم، فالمناذرة نسبوا إلى أمهم ماء السماء، وهي ماويَّة بنت عوف بن جُشم ، ملكة العراق، وأم ملوكها، وإليها ينتهي جلال الجمال، وجمال الخلال، وعنها ورث ملوك العراق سناء الشرف، ومضاء الذكاء، وبها كان العرب يعتزُّون، وباسمها يقسمون ويعتزمون .

ومن النساء العربيات التي اشتهرن بإنجاب الرجال الفرسان السادة في أقوامهم . فاطمة بنت الخُرشب (أم الكملة) وأم البنين ابنة عامر بن عمرو، وهي التي قال فيها لبيد مفتخراً عند النعمان " نحن بنو أم البنين الأربعة " . وخبيئة بنت رياح الغنوية، وعاتكة بنت

---

(1) انظر المرأة العربية، عبد الله عفيفي ، جزء 1 ص 67 وما بعدها .

هلال السلمية، وهي أم هاشم، وعبد شمس، والمُطَّلِب . وريحانة بنت معد يكرب، وهـي أم دريد بين الصمَّة . وغيرهن كثير . وقد عرف العرب للأم المنجبة قدرها فرفعوا من شأنها، وحفظوا لها حقها، فهي التي ولدت، وربت وهي التي تعهدت بـزرع الخـصال الحميـدة، والمعاني النبيلة، في نفوس أبنائها، فأنشأتهم على الأخلاق الحسنة، والهمم العالية، والإقـدام والشجاعة، والكرم وعزة النفس فحق لها بعد ذلك أن يُضرب بها المثل، فقالـت العـرب :" أنجب من مارية " [1] و" أنجب من فاطمة بنت الخُـرشـب "[2] وأنـجـب مـن أم البنيـن " ،[3] و" أنجـب مـن خبيئـة " ،[4] و" أنجـب مـن عـاتكـة" [5].

وبعد فلقد أغرم العرب بأن يفخروا بنسبهم، وبأن يشيدوا بآبائهم، وأولعوا أيضاً بأن يباهوا بأمهاتهم، ويزهوا بحريتهن، وعراقة نسبهن،[6] يقول ربيعة بن عبد ياليل في أمه قِلابة الملقبة بالذيبة [7]:

إنّي لمن أنكرني ابن الذيبـة ... كريمـة عفيفة منسوبـة

وافتخر المقدام بن زيد سيد بني حي بن خولان بأمه وأبيه فقال [8]:

نمتنا إلى عمرٍ وعروقٌ كريمة ... وخـولان معقود المكارم الحمد
وأمي ذات الخيـر بنت ربيعة ... ضريَّةُ من عِيص السماحة المجدُ

وضرية هذه هي بنت ربيعة بن نزار، وهي أم خولان وإخوته بني عمر بن الحاف بن قضاعة . ومدح حريث بن محفظ قومه بأمهاتهم الحرائر فقال [9]:

بنو المجد لم تقعد بهم أمهاتهم ... وآباؤهم آباء صدق فأنجبـوا

كذلك قال حاتم الطائي يمدح الحارث بن عمرو الجفني، وكان ملكاً، حيث لم يمنـع المُلْكُ المَلِك من أن يُمدح بأمه، يقـول[10]:

أرجيّ فَواضلَ ذي بهجـةٍ ... من الناسِ يجمعُ حزْمـاً وجوداً
نَمَتْهُ إمـامةُ والحـارثانِ ... حتى تَمهّلَ سبقـاً جديداً

---

(1) مجمع الأمثال ، للميداني : 4292، جزء 2 : 411 ، والمستقصى :1643 : جزء 1 : 384 .

(2) مجمع الأمثال ، للميداني : 4293 ، جزء 2 : 411 ، المستقصى : 1643 : جزء 1 : 383 .

(3) مجمع الأمثال ، للميداني : 4294 ، جزء 2 : 412 ، المستقصى : 1639 : جزء 1 : 382 .

(4) مجمع الأمثال ، للميداني : 4295 ، جزء 2 : 412 ، المستقصى : 1641 : جزء 1 : 383 .

(5) مجمع الأمثال ، للميداني : 4296 ، جزء 2 : 412 ، المستقصى : 1642 : جزء 1 : 384 .

(6) انظر المرأة في الشعر الجاهلي، أحمد الحوفي :79 وما بعدها .

(7) السـابـق : 80 .

(8) السـابـق : 80 .

(9) طبقات الشعراء ، محمد بن سلّام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف 1952م ص 162 .

(10) ديوان حاتم الطائي : 72 .

ويفتخر ذو الإصبع العدواني بأمه، حيث أنها سيدة حرّة وليست من الإماء وذلك في معرض ردّه على ابن عم له فيقول [1]:

عني إليك فما أُمّي براعيـــــةٍ ترعى المخاض ولارأيي بمغبونِ

لا يخرجُ الكَرْه مني غيرَ مأبيةٍ ولا أَلينُ لمنْ لا يبتغي لينــــــي

وجاور حاتم الطائي بني زياد، في زمن الفساد، وكانت حرب الفساد في الجاهلية بين جديلة والغوث بن زياد بن عبد الله من بني عبس، فأحسنوا جوارهم، فقال يمـدحهم بـأمهم فاطمـة بنت الخُـرشب ملقبـاً إياهـا بالجنّيـة لأنهـا ولدت أسـوداً أشـداء لا تلد الإنسيـه مثلهـم [2]:

لعمرك مـــا أضاع بنو زيادِ ذمارَ أبيهم فيمـــــن يُضيعُ

بنو جنيَّــــــة ولَدَتْ سُيُوفاً صَوارِمَ ،كلُّهـــا ذكرٌ صنيعُ

وجــــارتهم حَصَانٌ ماتُزَنّى وطاعمةُ الشّتاءِ، فما تجـــوعُ

لقد أدرك العرب أهمية الأم وأثرها البالغ في بنيها فحرصوا على انتقاء الـشريفات العفيفات، ذوات الحسب والنسب من النساء، لأن العرب كانت تعتقد أن الخال يـورث ابـن أخته بعض صفاته، يقول الشاعر حاثاً على استحسان اختيار الخال لذريته، لأن ابن الأخـت نازع لا محالة إلى خاله فمشابهه :

عليك الخال إنَّ الخالَ يسري إلى ابن الأختِ بالشَّبَه المبين[3]

ويحث شاعرٌ آخر على تخيُّر الخال للأبناء، فيقول مستعجباً، ممن لا يفعل ذلك :

عجبتُ من المبتاع غثاً لرخصه وللغثُّ مبتاعــاً أقلُّ وأخســـرُ

عجبتَ من المستلئم الخال لا بنه وللشاة يرجو نسلها يتخيَّــــرُ

لبنتك فاسْتَكْرِمْ لبنتك خالهـــا فإنْ بِدال الخال بالخال أعْسَرُ[4]

ويدعو شاعر آخر إلى السؤال عن أخلاق أب المرأة وخالها قبل الزواج منها فإنها لا بد مشابهة لهم [1]:

---

(1) الشعر والشعراء ، الجزء 2 : 597 .

(2) ديـــــوان حاتم الطائي : 98 .

(3) سمط اللآلي على أمالي القالي ، للبكري ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1935م – جزء 2: 794 .

(4) النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، بيروت دار الشروق 1981م : ص 489 .

إذا كنت مرتـــــاداً لنجلك أمه **بنفسك فانظر من أبوها وخالها**

فانهما منها كما هي منهمــــا **كما قيس من نعل بنعل مثالهــا**

لقد ظلت العرب تعزو كثيراً من صفات الفتى إلى أخواله وهم يؤكدون على أهميــة جانب الأم في توريث أبنائها الصفات الخُلُقية والخَلْقِيّة، وهــو رأي معــروف، يقــول أبــو منصور الثعالبي : " قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر، وأنها علــى الشبه أغلب، إن أكثر ما تلد الأمهات الإناث ... والأم والخال عند العرب أنزعُ وأشدُّ جــذباً للولد، لأن الأم والأب قد يستويان في وجوه، ثم تفضل الأم الأب في وجوهٍ بعد ذلك " [(2)].

والدين الإسلامي لم يغفل هذه الحقيقة، بل أكد عليها حين أوصى ﷺ علــى تخيــر الزوجة ، فقال ﷺ " **تخيــروا لنطفكــم فــــإن النســـاء يلــــدن أشبـــــاه إخــوانهــــن وأخــواتهــــن** " [(3)].

وحذر ﷺ من المرأة التي نشأت نشأة سيئة، لأنها لا محالة مؤثرة في أبنائها فقــال " **إياكم وخضراء الدمن** " وخضراء الدمن هي المرأة الحسناء في المنبت السوء وهذا توجيــه إسلامي للناس كي يوازنوا بين جمال الشكل، والتربية الحسنة، والأخلاق الحميدة .

والشاعــر القتـــال الكـــلابــي أشـــار بوضـــوح إلـــى أثـــر الأم السيئـــة علـــى أبنـــائهـــا حيـــن قـــال [(4)]:

وأوّلُ خُبْثُ الماءِ خبث تُرابِــه **وأولُ خُبْثِ النَّجلِ خُبثُ الحــلائلِ**

إن مكانة الأم في الشعر الجاهلي لم تكن كمكانة المحبوبة أو الزوجة، مــن حيــث الحيز الذي شغلته،وذلك أن الشعر العربي كان يستقي مادته– في الحديث عن المرأة – مــن لغة العاطفة حيث الحب والعشق والهيام، لذلك كان للمحبوبة مساحةٌ كبيرة فيه،ومن ثم جاءت الزوجة وهما مبعث على استثارة العواطف والمشاعر والأحاسيس الفياضة، التي يفيض بها الشعر العربي متدفقاً على ألسنة هؤلاء الشعراء، يخطبون ودّ من يحبون ، ويتوددون إليهن، ويحاولون استمالة قلوبهن.

أما الأم فكانت نبعاً من الحب الفطري الصادق الخالص من كل شائبة تشوبه فهــي تحب ابنها لذاته، حباً يخرج من حنايا القلب دافئاً، عذباً فراتاً، فينساب انسياب النــسيم فــي

---

(1) البرصان والعرجان والعميان والحولان ، للجاحظ ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، بيروت مؤسسة الرسالة ، 1981م ص 235 .

(2) أنظر ثمار القلوب للثعالبي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة دار المعارف 1965م ص 343 وما بعدها .

(3) الجامع الصغير للسيوطي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت 1981م ، جزء 1 : 503 .

(4) الحيـــوان للجاحـــــــظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الحلبي 1966م ، جزء 5 : 138 .

ساعات المساء، ويقابل هذا الحب حب الابن لأمه، ذلك الحب الذي يحمل كثيراً من معـــاني التقدير، والفخر والاعتزاز، حب لا يخلو من الشعور بالرحمة والمودة،والطاعة والاحترام .

إن مكانة الأم في الجاهلية تبوأت مكانتها السامية من حيث كون الأم زوجة ومربية ومعلمة ومعدّة للأجيال، ومن حيث كونها عنصراً رابطاً بين نسيج المجتمع، وأواصره، ومن حيث كونها معلماً بارزاً من معالم المجتمع الجاهلي، معلماً لم يغفله الشعر الجـــاهلي، ولـــم يتغافل عنه .

2- مكانـــة الأم عنـــد الصعـــاليك :

اختلفت مكانة الأم عند الصعاليك، فمنهم مفتخرٍ بها، محب لها، مشفق عليها، لا يجد حرجاً في الانتساب إليها، وجل هؤلاء الصعاليك من أبناء الإماء،والذين يـــسمون بأغربـــة العرب، كالشنفرى، والسليك، وتأبط شراً، وعمرو بن براقة وغيرهم .

وآخر نقم عليها، وعلى أهلها، وعلى أبيه الذي تزوجها، لأنه يرى أنها حطت مـــن قدره، وشانته في قومه، بضعة نسبها، مما جعله عرضة لسخرية قومه، الذين عيروه بهـــا، ومثال هؤلاء الشعراء عروة بن الورد .

وآخر جاهر بفخره بها، معتزاً بأنها ليست من الإماء، وليست وضيعة النسب، وإنما هي سليلة حسب ونسب، وشريفة عفيفة، ومثال ذلك من الشعراء القتال الكلابي ،

أما القسم الأول من هؤلاء الصعاليك، الذين أحبوا أمهاتهم، وافتخروا بهن، فإنهم لم يجدوا حرجاً في الانتساب لهن، كقيس بن الحدادية، وعمرو بن براقة، والسليك بن الـــسلكة، وغيرهم وهذا الأمر كان شائعاً عند العرب عامة، ولكن الذي تميز به هؤلاء الصعاليك هـــو أن أمهاتهم من الإماء، وليس من بنات العرب الحرائر، إلا أنهم انتسبوا لهن، واشتهروا بهذا النسب .

ويذهب الشنفرى إلى أبعد من ذلك حين ينادي إخوته بأبناء أمه وليس أبيه حين يقول في مطلع لاميته الشهيرة، حيث أنه " كثيراً ما كان الشاعر يعبر عن الإخوة الأشقاء بـــأنهم أبناء أمه في مجال الاستعطاف وإحياء المودة، أو في مجال الفخر، أو اللوم على قطع أرحام كان يجب أن توصل " [1] .

أقيموا بني أمـــي صدور مطيكم   فإني إلى قومٍ سواكـــــم لأميلُ[2]

---

[1] المرأة في الشعر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ، ص 78 .

[2] ديوان الصعاليك ، ص 38 .

ثم إننا نجد الشنفرى يسارع إلى الاعتزاز بأمه، والفخر بها حين عيرته الفتاة السلامانية بأصله، ولطمته على وجه، متعالية عليه، رافضة أن يكون أخاً لها، ولو حتى بالتسمية، يقول [3]:

ألا هل أتى فتيان قومي جماعةً   بما لطمت كفُّ الفتاةِ هجينَها[4]
ولو علمت قُعسوسُ أنسابَ والدي   ووالدِها ظلتْ تقاصرُ دونَها [5]
أليس أبي خيرُ الأواسِ وغيرِها   وأمَي ابنةُ الخرين لو تعلمينها

والملاحظ أن هذه الحادثة، لم تجعله ينقم على أمه، أو أبيه، كون الأم أمة حبشية أورثته اللون الأسود، والمكانة الوضيعة، بل نجده، يفتخر بأصله،ويعتز بأمه، متهماً الفتاة بجهلها بنسبه وأصله .

بل لقد بلغ من كرامتها عليهم ووفور منزلتها بينهم، أن السليك بن السلكة السّعدي – وأمه جارية حبشية – أطار نومه . وأثار همه، أن تشتمل بلاد العرب على خالاته،ونظائر أمه، جواري قد ملكهن الرِّق، وأزرى بهن التبذل وود لو وجد من ذات يده ما يمكنه من افتدائهن جميعاً [6] وذلك حيث يقول [7]:

ألا عتبت علـيَ فصارمتني   وأعجبها ذوو اللِّمم الطوالِ
فإني يابنة الأقوام أُربـي   على فعل الوضيئ من الرجال
أشاب الرأس أني كل يوم   أرى لي خالة بين الرحال
يشق علـيَّ أن يلقين ضيماً   ويعجز عن تخلُّصِهِنَّ مالـي

فالشاعر يدافع عن رقِّ أمه، وخالاته، ولم يُغْض أبناء الإماء عن مهانة تلحق بأمهاتهم، وإنما دافعو عنهن، وأحسنوا .

وكيف لا يكون موقف تأبط شراً من أمه كذلك، وهي التي تقول[1] فيه : " والله ما حملتُه تُضَعاً، ولا وُضَعاً، ولا وَضَعْتُه يَتْنَاً ، ولا أرْضَعْتُه غَيْلاً، ولا أنمْتُهُ مَئِقاً " [2].

---

[3] ديوان الصعاليك ص 53 .
[4] الهجين : الذي أبوه عربي وأمَّه غير محصنة .
[5] قعسوس : لقب الجارية – تَقَاصَرُ : تتقاصر .
[6] المرأة العربية، عبد الله عفيفي ، جزء 1 : 80 .
[7] الكامل للمبرد ، جزء 1 ،
[1] العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ،جزء 7 : ص 111 .
[2] حَمَلْته وُضعاً : وهي أن تحمله في مقبل الحيض، ووضعته يتناً : أي منكساً ، تخرج رجلاه قبل رأسه، وأرضعته غيلاً : أرضعته لبناً فاسداً ،وذلك أن ترضعه وهي حامل ، وأنمته مئقاً ، أي مُغضباً مغتاظاً .

ويحق للأم أن ترثي ابنها البارّ بها، المحب لها، وذلك كما فعلت أم تأبط شراً حيث رثت ابنها بكلمات مفعمة بالحزن، الذي يعتصر القلب، ويبلغ بها الأمر ذروته حين تتمنى لو أنها استطاعت أن تفديه بنفسها .

إن هذا القسم من الشعراء الصعاليك الذين ولدوا لأمهات من الإماء وجدوا واقعاً،قد فرض عليهم، وكان قاسياً، واقع الأم الأمة التي لم يجدوا بداً من الانتساب لها والاعتزاز بها، وهو واقع آلمهم كثيراً أن يروا أرحامهم يعانين من الرق، ومهانة العيش .

وواقع المجتمع الذي ينظر إلى أبناء الإماء نظرة احتقار وازدراء، وأنهم في مكانة دون أبناء الحرائر من العرب الأمر الذي جعل الكثير من هؤلاء الشعراء يفتخر بفعاله، وبطولاته وهذا الواقع هو الذي دفع كثيراً من هؤلاء الشعراء إلى التصعلك، فعاشوا حياتهم ناقمين على مجتمعاتهم، غير راضين عن أنظمتها وقوانينها الجائرة .

وعنترة بن شداد، وهو من فرسان العرب المعدودين نجده يعاني معاناة شديدة بسبب لونه الذي ورثه عن أمه، أضف إلى ذلك كون أمه حبشية وليست من بنات العرب الحرائر،لذلك نجده يفتخر بفعاله، وهمته وفروسيته لكي يغطي على ما يعيبه – في نظر المجتمع – وذلك كثير في شعرة [3] يقول :

وقد طلبت من العلياء منزلة بصارمي لا بأُمي ولا بأبي

ويقول [4]:

دعوني أُفي السيف في الحرب حَقَّه وأشربُ من كأس المنيَّة صافيا

من قال إنـي سيدٌ وابنُ سَيِّدٍ فَسيفي وهذا الرمحُ عمِّي وخاليا

فالأهل عند عنترة ليس الأب والأم والخال والعم والعشيرة، وإنما سيفه ورمحه وهذا يظهر مدى تمرد عنترة على قومه، الذين استعبدوه ولم يعترفوا به، بل ساموه سوء العذاب، يقول [5]:

إن كنت في عددِ العبيد فِهمَّتي فوق الثريا والسِّماك الأعزلِ[1]

أو أنْكرت فُرسَانُ عَبْس نسبَتي فسنان رمحي والحسامُ يُقَرُّ لي

وبذابلـي ومهندي نلتُ العلا لا بالقرابة والعديد الأَجزلِ[2]

(3) الديوان : 21 .

(4) الديوان : 160 .

(5) الديوان : 111

(1) السماك الأعزل : نجم في السماء .

(2) الأجزل : الكثير

إن المعاناة التي عاناها عنترة لم تجعله ينقم على أمه كما فعل عروة وهو من سادات عبس أيضاً، رغم أن أم عروة لم تكن أمة أو سبية، وإنما نجد عنترة يذكر أمه في معــرض فخره بنفسه بأبيات فيها من الوصف الدقيق ما فيها، يقول منتسباً لها [3]:

أنا ابن سوداء الجبين كأنهـــا ضبع تَرعرع في رَسوم المنزل
الســاق منها مثل ساق نعامــةٍ والشعرُ منهـــا مثل حبِّ الفُلفُلِ
والثغر من تحت اللثـــام كأنَّه بَرْقٌ تلألأ فـــي الظلام المُسْدلِ

ولــــه بيت آخر في قصيدة أخرى يحاول فيها أن يغطي على الجانب المظلم مــن حياته حيث يقــول :

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصلِ[4]

إن عنترة، عانى معاناة كثيرة كغيره من أبناء الإماء في عصره، وما شــفعت لــه بطولاته، وصولاته، وجولاته في كثير من المواقع، لذلك استشهدت بجانب من شعره حيــث أنه عاش حياة الصعلكة حيناً وإن لم يحسب من الصعاليك [5].

حيث أنه ثار على المجتمع الذي يفرق بين الأسود والأبيض، والمولى والــصريح، المجتمع الذي اكتشف فيه أن سيده هو أبوه، الذي يسترقه ويستعبده، مما جعله يصرخ مــن شدّة الهوان قائــــلاً [6]:

العبدُ عبدُكُم والمــــــالُ مالُكُم فهلْ عَذابكَ عني اليــومَ مَصروفُ

ولكن عنترة، رغم كل جراحاته وآلامه النفسية، إلا أنه يفخر بأنه جمع بين الحــامي والسامي، في مزيج من الفخر بأبيه وأمه حيث يقــول [7]:

يقدمه فتى من خيـــر عبس أبوه وأمه من آل حـــــــام
عجوز من بني حــام بن نوح كأن جبينهـــا حَجَرُ المقــامِ

ويقــــول [1]:

وأنا المجِّرب في المواقف كلِّها من آل عبسٍ منصبي وفعالــــي
منهم أبـــــي شدَّادُ أكرم والدٍ والأم من حامٍ فهم أخوالــــي[2]

---

[3] الديـــوان : 111 .

[4] الديــــوان : 98 .

[5] انظر شعر بني عبس في الجاهلية ، رسالة ماجستير مخطوطة ، عزازي على عزازي – جامعة الزقازيق ، ص(33-73).

[6] الديــــوان : 89 .

[7] الديـــوان : 131 .

[1] الديــــوان : 106 .

ومن الشعراء الصعاليك الذين رأوا أن النقص من جانب الأم، لا يُقعد عن همة، ولا يفت من عزيمتة، فإذا كانت الهمة عالية، والنفوس كباراً، وصلت بالإنسان إلى ما لم يــصل إليه أبناء الحرائر، يقول عبيد الله بن الحُرِّ الجعفي [3]:

فإن تكُ أُمِّي من نساءٍ أفاءَهَا جيادُ القنا والمُرهَفاتِ الصَّفَــائحِ

فتباً لِفَضْل الحُرِّ إن لم أنل بهِ كرائمَ أَوْلادِ النِّساءِ الصَّرائـــحِ

وإذا كان هذا حال أبناء الإماء من الصعاليك، فإن بعض الصعاليك من أبناء الحرائر من النساء، كانوا يفتخرون بأمهاتهم، كونهن لسن من الإماء، حيث يجد أن ذلك نقيصة، قــد تحط من قدرة، وتجعله عرضه للنيل منه عند أعدائه، ومن الشعراء الذين افتخــروا بــذلك، القتال الكلابي، الذي يفتخر أنه ليس من الإماء. حيث يقــول [4]:

أما الإماء فلا يدعونني ولـــداً إذا تنادى بنو الإمـــوان بالعار[5]

فالشاعر لا يخشى أن يعيره أحد بأن أُمه أَمة، وذلك إذا سب الناس بعضهم بعــضاً وفي أبيات أُخرى يبرأ من أن تكون أمه أمة، لذلك لن يعيره أحد بها، كمــا يعيِّــر النــاس بعضهم بعضاَ، فهو لم يرضع إلا ثدي امرأة حرَّة، شريفة النسب حيث يقــول[6]:

أنا ابن أسماء أعمامي لها وأبي إذا ترامى بنو الإموان بالعـــار

أما الإماء فلا يدعونني ولـــداً إذا تُحُدث عن نقضي وإمـــراري

لا أرضع الدهر إلا ثديَ واضحةٍ لواضح الخدِّ يحمي حَوْزَةَ الجار[7]

من آل سفيان أوورقـــاء يمنعها تحت العجاجة ضرب غير عــوار

وفي بيت آخر يفتخر بأمه عمرة بنت حرقة من ربيعة، وأنها حرّة لم تُكلَّف، جمــع الحطب كالإماء، فيقــول [1]:

لقد ولَدَتْني حـــــــرَّة ربعيَّةٌ من اللاءِ لم يُحْضرْن في القيظ دندنا[2]

---

[2] الأم من حام : يقصد سوداء حبشية .

[3] الكامل ، للمبرد ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية 1993 . ص 646 .

[4] كتاب الحلل في إصلاح الجمل، البطليوسي، تحقيق سعيد عبد الكريم سعودي، بغداد 1980، ص464 .

[5] الإموان :جمع أمـــــــه .

[6] الكـــامـــل للمبـــرِّد .

[7] واضحة : شريفة النسب حرّة .

[1] المرأة في الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي ص 80 .

[2] دندن : ما اسود من نبات أو شجر والمراد أنها لم تكلف الاحتطاب كالإماء . وفي الأصل ديدنا .

إن القتال الكلابي كان يرى أن عرق الخال نزَّاع، لذلك سعد لأنه ليس بابن أَمة، لئلا تسري إليه أخلاق العبيد، فالعروق لا بد نازعة بالإنسان إلى أخــواله يقــول [3]:

أما الإماء فمـــــا يدعونني ولداً   بنفسك فانظر من أبوها وخالها

إن العروق إذا استنزعتها نزعت   كما قيس من نعلٍ بنعلٍ مثالهــا

وفي أُرجوزة يمدح فيها رجلاً نجده يوازن بينه وبين آخر بأصالة كــل مــن خالــه وعمه، يقـــول [4]:

تَخَيَّري خُيِّرت في الرِّجـــــــــــالِ

بَيْنَ قصيرٍ باعُه تِنْبَـــــــــــــالِ

وأُمَّه راعيةُ الجمـــــــــــــــال

تبيت بين القت والحعـــــــــــال

* * * * *

أذاك أم مُخرَّقُ السرِبْـــــــــــــالِ

كَريم عمٍّ وكريمُ خَـــــــــــــالِ

إن القتال الكلابي يمزج في فخره بأمه بين كونها حرة شريفة، وليست مــن الإمــاء وبين كونها ذات حسب، مدركاً أهمية الأخوال بالنسبة للإبن، حيث أن الفتى لا بد نازع إلى أخواله، ونظراً لأهمية الخـــال والــرحــم عنــده، نجــده ينــاشــد ابـــن عـــم لــه بأرحامــه حيث يقـــول[5]:

نشدتُ زياداً والمقامةُ بيننـــــا   وذكرَّته أرحـــــام سَعْدٍ وهيثم

فالشاعر يقسم على ابن عمه، وأهل المجلس حاضرون ويذكره بالرحم التي تجمعهما معاً وفي بيت آخر تظهر مكانة الأم عند الشاعر، وما لها من تأثير في الآخرين حيث يذكر الشاعر أرحامه، ويعتز بشرفهما . مذكراً بمالها من خصاصة وحرمة حيث يقول مــستعطفاً أحد أقربائــه [1]:

فإنَّا بَنُو أُمَّينِ أُخْتَين حَلَّتـــــا   بُيوتَهما في نُجْـــوةٍ فَوْقَ أَبْهرِ[2]

وبعد فإن القتال الكلابي يعتبر مثالاً واضحاً للصعلوك الذي يعتــز بأمــه، ويفخــر بحسبها ونسبها، ولا يجد حرجاً في الانتساب لها صراحة، معتداً بها، يرى أنها أحلته بمنأى

---

[3] كتاب الرياض ، العدد : 81،82 في أفياء الشعر ص 204 .

[4] الأغـــانـــي جزء 20 : 164 .

[5] الأغــانــي، جزء 20 :159 . (دار الفكر) .

[1] كتاب الأمكنة والمياه والجبال ، للزمخشري ، تحقيق إبراهيم السامرّائي طــــ1 1968م ص 17 .

[2] أبهـــر : جبــل .

عن العار أو النقص الذي لحق بكثير من الصعاليك، وهذا الموقف من الأم نجده عند أبي خراش الذي نسب إخوته لأمه وصرّح باسمها حيث رثا أخاً له فقال [3]:

فقدت بني لبنى فلما فقدتهم	**صبرت فلم أقطع عليهم أبا جلي [4]**

ولبنى هذه هي أمهم .

وفي بيت آخر يقول [5] :

أصيبت هذيل بابن لبنى وجُدِّعت	**أنوفهم باللوذعيّ الحُلاحلِ[6]**

والفرق بين القتال الذي يمثل القسم الثاني من الصعاليك من حيث نظرتهم لأمهاتهم، وبين القسم الأول من أبناء الإماء أنه كان من أبناء الحرائر من النساء، واتفق معهم أن كلاً منهما افتخر بأمه واعتز بها، وانتسب لها، وحظيت الأم عندهم بمكانة خاصة تليق بحقها عليهم .

أما القسم الثالث من الصعاليك الذين نقموا على أمهاتهم، وعانوا في قومهم أشد معاناة، فخير مثال عليهم عروة بن الورد، ذلك السيد الذي عرف بكرمه ونبله وزعامته في قومه، إلا أن هذا كله لم يشفع له عند قومه، حيث ظل يُعيَّر بأمه النهدية التي كانت من الحرائر من النساء، إلا أنها لم تكن من ذوات الأنساب الرفيعة، لذلك نجد أن هذا الموضوع أثر في حياته تأثيراً عظيماً، مما جعله ينشأ ناقماً على أبيه أولاً؛ لأنه اختار أمه من قوم ليسوا من أشراف العرب، وناقماً على أمه، وعلى أخواله، وعلى المجتمع الظالم، الذي لا ينظر إلي شخص الإنسان وفعاله، وإقدامه وفروسيته وبطولاته.

إن عروة تمرد على مجتمعه وقبيلته التي كانت تنظر إليه نظرة تشاؤميه، لأن والده كان سبباً في رهان عبس وفزارة، ولأن أمه تنتمي لقبيلة أقل شرفاً من عبس، فأمه امرأة نهديه ليست من ذوي الأنساب، حيث أنها عدت بمثابة الأمة [1]، لذلك عيره، قومه، وهو يذكر ذلك بقوله[2] :

أعيرتموني أن أمي تريعة،	**وهل ينجبن في القوم إلا الترائع ؟[3]**
وما طالب الأوتار غير ابن حرَّةٍ	**طويلُ نجاد السيف عاري الأشاجع [4]**

---

[3] الأغاني ، جزء 21 : 244 .

[4] الأبجل : عرق في الرجل ، ويروى (الانامل) .

[5] الأغاني : جزء 21 : 245 .

[6] اللوذعي : الحديد اللسان ذو القلب الذكي ، الحلاحل : الرزين .

[1] انظر الأغاني جزء 3 ص 88 .

[2] الديوان : 85 .

[3] التريعة : المسرعة إلي الشر، و جمعها ترائع علي وزن فعائل .

لقد ضاق عروة ذرعاً بقومه حيث أنهم عيروه بأمه، وعيروه بفقره حين كان فقيراً، وعيروه بغناه حين كان غنياً، وعيروه في شبابه وشيبه، وهو يصرح بذلك في شعره، معبراً عن حياةٍ كلها هموم ومعاناة ، كلها جفاء و ازدراء، بقولــه [5] :

هم عيروني أَنْ أميَّ غريبــــــــةٌ	**وهل في كريم مــاجدٍ ما يُعَيَّــرُ؟**
وقد عيروني المالَ، حين جمعتــه	**وقد عيروني الفقر، إذ أنا مقترُ[6]**
وعيرني قــــــومي شبابي ولمتي	**متى ما يشاء رهط امــرئ يَتَغَيَّرُ**
ولا أنتمي إلا لجارٍ مجــــــــاورِ	**فما آخر العيشِ الذي أنتظــر؟!**[7]

إن قسوة المجتمع الذي عاش فيه عروة، جعلته ينقم على أمه وأهلها، لذلك نجده يدفع دفعاً إلى هجاء أخواله النهديين، الذين ينتمون إلى قبيلة يمنية، أقــــــل شأنــــــاً وشــرفاً من عبس يقــــول [8]:

لا تلُمْ شيخي، فما أدري به،	**غيرَ أنْ شارك نهداً في النَّسَبْ**
كان في قيسٍ حسيباً ما جداً	**فأتت نهدٌ علــى ذلك الحسب[9]**

ويصرح بهجاء أخواله مرّه ثانية، فيقــول [10]:

مابي من عارٍ إخــال علمُتُـــه	**سوى أن أخوالــي، إذا نسبوا نهدُ**
إذا ما أردتً المجدَ قصَّر مجدهم	**فأعيا عليّ أن يقــــــاربني المجدُ**
فيا ليتهم لم يضربوا فيَّ ضربــة	**وأني عبْدٌ فيهُم، وأبــــــــي عبدُ**
ثعالبُ في الحربِ، فـــإن تبخ	**وتنفرج الجلى، فإنهم الأُسْــــــدُ[1]**

لعل موقف عروة من أمه وأخواله، كونه من سادات عبس، وعبس قبيلة عرف عنها أنها جمرة العرب التي لم تنطفئ، وكون أمه من قبيلة أقل شرفاً ومكانة بين القبائــل، لــذلك رأى أن النقص إنما أتاه من أخواله، فنقم على هؤلاء الأخوال، أما باقي الصعاليك من أغربة العرب فلم يكونوا من الأشراف، أو السادات، بل من عامة الناس ، أو دون ذلك مما جعلهم، لا يجدون في أمهاتهم وأخوالهم ما يدعو إلى التقليل من المكانة الاجتماعية . المكانة التي لم

---

[4] طويل نجاد السيف : كناية عن الشجاعة والإقدام . الأشاجع : هم الأقوياء الأبطال .

[5] ديــوان الصعا :87 .

[6] المقتــــــر : الفقير حسب المعنى في البيت .

[7] يقــــول فهل آخر العيش الذي أنتظر إلا الموت .

[8] الديــــــوان : 46 .

[9] أي كان في بني قيس له المجد واليد الطولى ، وهو أعلى هذا الحسب .

[10] الديــــــوان : 56 .

[1] تبــخ : تنطفئ الحــرب .

تكن موجودة أصلاً في المجتمع حيث أنهم كانوا منبوذين في مجتمعهم للونهم، أو لنسبهم، وحيث ظل المجتمع ينظر إليهم على أنهم دون أبناء الحرائر من العرب، وهذا الأمر هو الذي يفسر رضى هؤلاء بأمهاتهم، وفخرهم بهن، وتبرّم عروة، وعدم رضاه بأمه وأهلها، الأمر الذي أوصله إلى هجائهم .

3- حب الأم لأبنائها وتربيتها لهم :

إذا كان جُلّ الصعاليك قد أحبوا أمهاتهم، واعتزوا بهن، وعرفوا لهن قدرهن، ومكانتهن، وها ما كان ظاهراً في شعرهم فإن هناك آثار أدبية تدل على حب الأم لأبنائها، حباً فطرياً خالصاً، لا تشوبه شائبة، حباً جعلها تحرص دائماً على أن ينشأ ابنها نشأة سوية في المجتمع، كي تقرّ عينها برؤيته شاباً قوياً، فارساً، مؤثراُ في مجتمعه . " فهي تتعهد وليدها قبل أن تحمله، ذلك بأنها كانت لا تحمل إلا في طهر، ولعل الأب كان يشاركها في ذلك، لأنهم اعتقدوا أن الحمل في أعقاب الحيض أو قبل الحيض ينتج ولداً سقيماً " [2].

تقول أم تأبط شراً : " والله ما حَمَلْتُه تُضعاً، ولا وُضَعاً، ولا وَضَعْتُه يَتْنَاً ، ولا أرْضَعْتُه غَيْلاً، ولا أنمْتُهُ مَئِقاً " [3] إن أم تأبط شراً تعتدّ وتفتخر بأنها، ما حملت بابنها قُبيْل الحيض، ولا وضعته منكساً، تخرج رجالاه قبل رأسه، ولا أرضعته لبناً فاسداً، وذلك أن ترضعه وهي حامل، ولا أنامته مغضباً مغتاظاً، إن هذا القول يوضح بجلاء حب الأم لابنها، وحرصها علي أن يولد ، سوياً، سليماً، لا يعيبه شيء . يقول أبو كبير الهذلي في وصف تأبط شراً ابن زوجته، إن أمه حملت به وهي طاهر ليس بها بقية من حيض[4].

ولقد سَرَيت على الظلام بمغْشَمٍ   جلد من الفتيان غير مُهَبَّلِ[5]
ومُبَرَّأٍ من كل غُبَّر حيضة   ورَضاعِ مُغيلةٍ، وداءِ معضلِ[1]

وكانت العرب تظن أن المرأة، إذا حملت وهي فزعة خائفة، وجلة، فإن الابن يولد، قوياً، صلباً، شديداً، يقول الأصمعي: " إن المرأة إذا حملت وهي مذعورة فأذكرت جاءت به

---

(2) المرأة العربية في الشعر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ، ص 114 .

(3) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، جزء 7 : ص 111 .

(4) الشعر والشعراء، جزء 2 :562 .

(5) المغشّم : الذي يظلم الناس، المهبل : الكثير اللحم ، أو الذي يقال له : هبلتك أمك .

(1) غبر : بقية .

لا يطاق "[2]. روي أن أم تأبط شراً قالت: حملت به في ليلة ظلماء، وإن نطـاقي لمـشدود، وقولها : لقد حملت به في ليلة مظلمة، وتحت رأسي سرج، وعلى أبيه درع [3].

ويذكر ذلك أو كبير الهذلي في وصفه لابن زوجته تأبط شراً فيقـول[4]:

ممن حَمَلْنَ به وهُنَّ عواقـــــدٌ حُبُكَ النطاق، فعاشَ غيرُ مُثَقَّلِ[5]

حملت به في ليلةٍ مَـــــزْؤُودَةً كَرْهاً، وعقدُ نطاقهـــا لم يُحْلَلِ[6]

فأتت به حُوش الجِنانِ مبطنـــاً سُهُداً إذا ما نام ليلُ الهوجـــلِ[7]

فإذا نظرت إلى أسرّة وجهـــه برقت كبرق العـــارض المتهللِ

وإذا رميت به الفجاج رأيتَـــهُ يـــهوي مخارقها هــويَّ الأجدلِ[8]

وإذا يهب من المنام رأيتَـــهُ كرتوب كعب الساق ليس بزُمَّــلِ[9]

مـــا إن يمسُّ الأرض إلا منكبٌ منه، وحرفُ الساقِ طيَّ المحْمَـلِ[10]

والأم لا تحب لأبنها أن يحيا خاملاً، متقاعساً، بلا عمل، فيحيا عالة على الآخـرين، فهي تحثه على السعي طالباً للرزق كما يفعل الآخرون فهذه أميمة أم تأبط شراً تقول لابنها : يا بني كلَّ أخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك، فقال لها سآتيك الليلة بشيء [11] وفي رواية أنها قالت له في زمن الكمأة : ألا ترى أن غلمان الحي يجتنون لأهليهم الكمأة فيروحون بها ؟ فقال لها أعطني جرابك كي أجتني لك فيه [12].

إنها تدرك أنه من العيب أن يحيا الإنسان في مجتمعه عاطلاً لا عمل له، وهذا مـا ذكره عروة بن الورد حين وازن بين نوعين من الصعاليك حيـث ذمّ الـصعلوك الخامـل المتكاسل، اللئيم، الذي لا يغادر ساحة الحي، يقـول [1]:

---

[2] المرأة العربية في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي : ص 113 .

[3] السـابق : 114 .

[4] الشعر والشعراء جزء 2 : 562 .

[5] يعني حملت به أمة وهي فزعة ، وكانوا يعتقدون أنها بذلك تنجب .

[6] مزؤدة : فـزعة .

[7] حوش الجنان : فؤاده وحشي ، – مبطن : خميص البطن ، – الهوجل : الثقيل .

[8] الفجاج : الطرق ، المخارم : أنوف الجبال ، – الأجدل : الصقر .

[9] الرتوب : الانتصاب ، – الزمل : الضعيف .

[10] يقول ما إن يمسّ الأرض إذا اضطجع إلا منكبه ، وحرف ساقه ، لأنه خميص البطن فلا يصيب بطنه الأرض . – المحمل : محمل السيف .

[11] الأغـاني ، جزء 21 : 144 .

[12] الأغـاني ، جزء 21 : 145 .

[1] ديوان عروة : 68 .

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليلـــة	**مصافي المشاش، آلفاً كل مجــزر**
يعد الغنى من نفسه كل ليلـــة	**أصاب قراها من صديق ميسَّـــر**
ينام عشاءً لثم يصبح ناعســـاً	**يحث الحصا عن جنبه المتعفِّـــرِ**
قليل التماس الزاد إلا لنفســـه	**إذا هو أمسى كالعريش المجـــور**
يعين نساء الحي مايستعنّـــه	**ويمسي طليحـــاً، الكبعير المحسّر**

إن محبة الأم لأبنائها، لا يختلف عليه اثنان، حيث أن حب الأم لأبنائها هــو حــب فطري فطرها الله عليه، وقد تتجلى مظاهر هذا الحب واضحة بأسمى معانيهــا، وبأوضــح صورها، حين يصل الأمر بأم أن تتمنى لو أنها افتدت ابنها بنفسها، وهو أثمن وأعز ما تملك في الدنيا، وهذا ما يظهر في رثاء أم تأبط شراً له حين سمعت بمقتلــه .

طاف يَبْغي نَجْـــــوَةً	**مــــن هـــــلاك فَهَلَكْ**
ليت شعري ضِلَّـــــةً	**أيُّ شـــــــيء قتلك**
أمريض لم تُعَـــــد	**أم عَـــــــدوٌ خَتَلَك**
أم تولىَّ بك مـــــا	**غال في الدهـــــر السُلَك [2]**
والمنـــايا رَصَـــد	**للفتـــــى حيـــث سَلَك**
أيُّ شـــيء حَسَـــتن	**لفتـــى لـــــم يك لك**
كلُّ شـــيء قاتـــلٌ	**حين تلقـــــى أجلك**
طال مـــا قد نُلتَ فـــي	**غيـــــــر كَد أملك**
إن أمـــراً فـــادحاً	**عن جـــوابـــي شَغَلك**
سأُعـــزِّي النفـــس إذ	**لم تَجبْ مـــــن سألك**
ليت قلبـــــي ساعةً	**صَبْـــــره عنك ملـــك**
ليت نفســـــي قُدِّمــت	**للمنايـــــا بــدلك [3]**

وقالت ترثيه أيضاً [4]:

قتيلٌ ما قتيلُ بني قـــــريم	**إذا ضنَّت جمـــادى بالقطار [1]**
فتى فهم جميعاً غـــــادروه	**مُقيماً بالحريضة من نمـــارِ**

وقالت ترثيه أيضاً [2]:

---

[2] السلك : فرخ الحجل وهو شديد الحرص حذق في إخفاء نفسه عند الخطر ولكن الموت يغلبه .

[3] شرح الحماسة، للخطيب التبريزي، جزء 2 :191-192 .

[4] الأغـــاني : جزء 21 : 195 .

[1] جمادي يطلق أيضاً على الشتاء لجمود الماء فيه ، والقطار جمع القطر وهو المطر .

ويل أم طرف غادروه برَخمان بثاتب بن جابـــــــر بن سفيانْ[3]
يجدِّل القِرن ويـــروي النَّدمْان ذو مأقطٍ يحمـــي وراء الأَضوانْ[4]

وقالت ترثيه أيضاً [5]:

وابناه وابن الليل، ليس بزُمْيل، شروب للقيْل، رقود بالليل، ووادٍ ذي هوْل، وأحَرْتَ بالليل، تضرب بالذيْل، برَجْلٍ كالثَّـــوْل [6].

4- عقــــوق الأم :

الأم هي التي تحمل وتلد، وترضع ،وتتعهد وليدها، بكل حرص وعناية، ترضعه من صدرها لبناً صافياً، وتمنحه من قلبها دفئاً وحباً صادقاً، يخرج من حناياه، منساباً بكل رفق، ترقبه، وهو ينمو ويكبر، وكلها أمل أن تَقَرَّ عينها به، حين يصبح، شاباً قوياً، يحقــق لهـــا أملها، ويدفع عنها عاديات الزمن .

ولكن الذي يفجع الأم ويذهب لبها، هو أن ترى امرأة تأتي على حين غِرَّة، فتستأثر بابنهــــا، وتحـــوزه دونهـــا، وتنزعـــه منها انتزاعـــــــاً، وهذا مـــا يورثهـــا حزنـــاً لا ينقضي، وهمــــــاً لا ينقطع .

فزوجة الابن بمكرها وخداعها، وسوء خلقها هي أكثر أسباب العقوق عند الأبنـــاء، حيث أنها تحرص دائماً على أن تستأثر بالابن دون أمه، يقول الحوفي : " ليس أجلب للعقوق من زوجة الابن المشاكسة، الماكرة، فإنها تريد أن تستأثر بزوجها، كما استأثرت أمها بأبيها، أو كما حاولت أن تستأثر، وعزيز على الأم التي حملت وأرضعت وربَّت وأمِلت، وكانـــت نجي ولدها ومفزعة في مساءته ، وشريكةُ في حبرته، وكان سر سعادتها، عزيز عليهـــا أن تنتزعه منها هذا الفتاه الطارئة انتزاعاً فجائياً قاسياً لا يجامل ولا يتدرج وهنا يقع الابن فـــي الحيرة، وتصطرع في نفسه عاطفتان قويتان، فيحسم الخلاف بحسن سياســـته، ويحـــاول أن يخمد النار كلما بدا خلال ومادها وميض، أو يجنح إلى ناحية من الناحيتين " [1] فالابن العاقل الحكيم، البار بأمه، لا يطيع زوجته في عقوق أمه مهما كان، يقول صخر بن الشريد مؤكداً على مكانة الأم الخاصة حيث لا يمكن مساواتها بالزوجة مهما كان :

---

(2) السابــــــق : 195 .

(3) الطــــــرف : الكريم الأبوين .

(4) المأقط :المكان الذي يقتتلون فيه ، ويراد هنا ذو حرب .

(5) الأغـــــاني : جزء 21 : 195 .

(6) الـــــرَّجْـــل : اسم جمع للرجل أو جمع له ، والثول : جماعة النَّحـــــل .

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ،ص 143 .

أرى أم صخـــر لا تمل عيادتي وملّت سليمى مضجعـــي ومكاني
فأي امرئ ســـــاوى بأمٍ حليلة فلا عاش إلا في شقـــاً وهوانِ[2]

وقد نجد من الناس من يقرِّب الزوجة، ويعصي الأم، وهذا ما يصوره عـــروة بـــن الورد تصويراً دقيقاً، حين يشبه حالة مع أصحابة الكنيف الذين أكرمهم وأحسن إليهم وأساءوا له، منكرين فضله عليهم، بحال الأم التي حملت ووضعت وأرضعت، وربّت، وعاشت على الأمل في الغد المشرق، وإذا بابنها يتنكر لها ويجفوها، ويقرّب زوجته الجميلة التي تتزين له كي تجذبه إليها، مما جعل الأم تصرخ وتتألم مما آل إليه حالها مع ابنها الذي رجته ، حيث أصبحت في حيرة من أمرها، فهي بين أمرين أحلاهما مُّر، فالأول أن تفقد الولد، وهذا أمر لا تطيقه ولا تصبر عليه وإما أن تصبر وتحتسب وهذا أيضاً أمر يصعب عليها ولا تطيقه ، يقـــول عـــروة [3]:

فإني وإياهم كذي الأم أرهنـــت له ماء عينيهـــــا تفدِّي وتَحْمِـــلُ[4]
فلما ترجرّت نفعــــــه وشبـــابه أتت دونها أخـــرى جديداً تكحَّـــل[5]
فباتت لحد المرفقيــــــن كليهما تُوَحْوِحُ ممـــا نالهـــــــا وتولول[6]
تَخيَّرُ من أمرين ليســـــا بغبطة هو الثكلُ إلا أنهـــــــا قـــد تَجمَّلُ[7]

وعروة نفسه لم يكن على علاقة طيبة مع أمه، وأهلها، حيث وصل به الأمـــر إلـــى هجائهم، وشتمهم، الأمر الذي استنكره عليه بعض قومه حيث أن شتم الأخوال وهجائهم من الأمور، الغريبة والمستهجنة في العصر الجاهلي،وكل العصور، روى عن الأصمعي أنه قال : قال قيس بن زهير لعـــروة بن الورد [1]:

أذنبٌ علينا شَتْم عروة خالـــه بُغرِّه أحساء ويوماً ببَدْبَـــــــدِ

---

[2] المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري ، جزء 2 : 69 ، الطبعة الثالثة دار الكتب العلمية بيوت لبنان .

[3] الديــــوان : 92 .

[4] يخاطب أصحاب الكنيف فيقول : إني وإياكم كامرأة لها ولد صغير أرهنت له ماء عينها ، فتفديه مرَّة ، وتحمله مرّة .

[5] الحديد : الزوجة . أي لما تم شبابه وانتظرت منه المنفعة تزوج فغلبت الزوجة الأم، فترك أمَّه من أجلها .

[6] حد المرفقين : ضربها ، والمرفق : الموصل بين الساعد والعضد ، – توحوح : تطلق أصواتاً فيها بحَّة ، – تولول : تعوّل وتدعو بالويل .

[7] تخيّر من أمرين : أي من أمرين ليسا سارّين : إما أن يموت ابنها فتشقى من امرأته وتثلكه ، أو تصبر على أن تكون امرأته آثر عنده منها ، ومت عليها إلا أن تَتَجَمَّل وتتصبَّر .

[1] انظر عروة بن الورد . حياته وشعره . د. إبراهيم الخواجـــه ص 194 .

رأيْتُك َأُلاّ فاً بُيُوتَ معاشـــــرٍ   تزايل ُيدُ في فَضْلِ قَعْبٍ ومرْفدِ

وهكذا عاب قيس بن زهير على عروة تجراه على أخواله النهديين بالهجاء . ومـــا كان عروة ليهجو أخواله، إلا لتبرُّمه من أمه ومن كونها له أماً، وهذا الضيق حتماً سينعكس على علاقته بها، ومعاملته لها .

وكان عروة قد قال في أخوالــه [2]:

وما بي من عارٍ إخال علمتـــــه   سوى أن أخوالي إذا نسبوا نهـــدُ
إذا ما أردت مجداً قصّر مجدهم   فأعيا علي أن يقاربني المجـــــدُ
فياليتهم لم يضربوا فيّ ضربــةً   وأني عبدٌ فيهم وأبي عبـــــــــد
ثعالب في الحرب العوان فإن تبخ   وتنفرج الجلى فإنهم الأُســـــــدُ

إن عروة هجا أخواله، ووالده أيضاً حين تمنى أن يكون عبد من العبيد لانه تــزوج من نهد، وما كان عروة ليفعل ذلك إلا لضيقه وتبرّمه من كون أمه منهم، وهذا كله سينعكس على علاقته بأمه، ومعاملته لهـــا .

ومهاما يكن فإن عقوق الأم كان موجوداً في العصر الجاهلي، وإن كان غير شائع، لما للأم من مكانة عند أبنائها . لذلك نجد الدين الجديد يحرص على برِّ الوالدين، وخصوصاً الأم ، لضعفها وحاجتها لأبنائها . وحذر تحذيراً شديداً من عقوق الأم، وتوعــد مــن يعــق والديه، ويقطع أرحامه بالعذاب الشديــد .

---

[2] الديــــــوان : 56 .

ثانياً : السبيَّـــــــــــــــــة

1- السبي في العصر الجاهلـــي :

كان السبي في العصر الجاهلي، هدفاً وغاية عند القبائل العربية، تحرص عليه لما له من أثر بالغ على العدو، حيث أن سبي النساء، أشد على العربي من وقع السهام، وضـــرب السيوف، يلحق به ذلاً وعاراً لا يفارقانه، كما كان السبي مبعث فخر للســـــابي، وعنـــوان قوة وسطوة، به يزهو، ويتعالى ويفتخر، وكان منع النساء وحمايتهن من السبي مبعث فخـــر وزهو أيضاً، وحيث أن حياة العرب في الجاهلية، قائمة على الاحتراب والصراع القتالي ذباً عن القبيلة، ومصلحتها، وانتقاماً جماعياً أو فردياً من اعتداء سالف، أو استلاباً لمال الآخر، فقد كثر في هذه الحروب والغارات سبي النساء بما يجُّره لضحاياه من آلام نفسية وتبـــاريح وجدانية عميقة ما تَصَوَّرها لعصبيَّ .

"وكان الشعر كالعادة، شديد الاعتناء بأمر السبي، بـــل إن كثافـــة المـــادّة الـــشّعريّة المعالجة له لتؤلف ظاهرة مُبْرزَةً نفسها للدارس، لاسيما في شعر الأيام والوقائع "[1].

أ – فخر الشعراء بحماية النساء من السبي :

يصور لنا الشعر العربي الجاهلي في كثير منه فخر الشاعر العربي بحماية المرأة – زوجة كانت أو أختاً أو أماً أو من سائر نساء القبيلة – من السبي، والذود عنها، ومنعها من أعدائها، حيث " كانت حماية النساء جزء لا يتجزأ من شرفهم وعرضهم، ولعلهم لذلك كانوا يصحبونهن معهم في الحروب، حتى يلهبن حميتهم في القتال، وحتى يـــشعلنهم بأناشـــيدهن وإثارتهن، وتهييجاتهن حماسة وبسالة، وحتى يصمدوا من دونهن ذياداً عنهن، مهما اســـتعر أوار القتال، ومهما أتى علـــــى الرجـــــال والأبطـــال " [2] يقـــــول عمرو بن كلثـــوم فـــــي معلقتـــــه[3] :

على آثارنا بيضٌ حســــــــانٌ نحاذرُ أَنْ تُقَسَّمَ أَوْ تَهوُانــــــــا
ظَعَائِنَ من بني جُشم بْن بَكْــرٍ خَلَطْنَ بِمَيْسَمٍ حَسَباً ودِينـــــــا[4]

---

(1) انظر (كتاب الرياض 181 : 82) في أفياء الشعر منذ الجاهلية حتى آخر العصر الأموي : 142 .

(2) البطولة في الشعر العربي ، لشوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة 1970 م : 33 .

(3) انظر شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات ، ابن النحاس ، جزء 2: 122 وما بعدها .

(4) الميسم : الجمال أي تهن مع جمالهن حسبٌ ودين .

أخذن على بُعُولَتهنَّ عهـــــداً | إذا لاقَوْا فوارسَ مُعْلَينـــــــــا[1]
ليَسْتَلبنَّ أبْداناً وَبَيْضَــــــــاً | وأَسْرَى في الحَديدِ مُقَرَّنينـــــا[2]
إذا مارُحْنَ يَمْشين الهوينـــــا | كما اضْطَرَبَتَ مُتُون الشَّارِبِينـــا[3]
يقتن جيادنا ويقلن لستـــــــم | بُعُولَتُنا إذا لم تمنعونـــــــــــا
إذا لم نحمهنَّ فلا بقينـــــــا | لشيءٍ بعدهن ولا حيينــــــــــا
وما منع الظعائن مثل ضــربٍ | ترى منه السواعد كالقلينـــــا[4]

كذلك يفخر طرفة بن العبد بحمايتهم لنسائهم في ساحة المعركة، وذلك حــين يــشتد القتال، وتفزع النساء، ولا يبقى أمامهن إلا الاستبسال، والتفاني في القتال والمدافعــة عــن الحرمات يقـــول [5]:

ونحن إذا ما الخيل زايل بينهـا | من الطَّعنِ نشّــاجٌ مُخلٌّ ومُزْعِفُ[6]
وجالَتْ عذارى الحيّ شتىّ، كأنّها | توالي صوارٍ، والأَسِنّةُ تَـــرْعَفُ[7]
ولم يحمِ أهل الحيّ، إلا ابنُ حُرَّةٍ | وعَمِّ الدّعاءَ المُرْهَــقُ المتلهِّـــفُ[8]
ففئنا، غداةَ الغبِّ،كلَّ نقيــــذةٍ | ومنّا الكميُّ الصّابرُ المُتَعــــرِّفُ[9]
وكارِهَةٍ، قد طَلَّقَتَهْا رماحُنَــــــا | وأَنْقَذْنَها ، والعَيْنُ بالمــــاءِ تَذْرِفُ[10]
تَرُدّ النّحيبَ في حيازيم غُصَّــةٍ | على بَطَلٍ، غادَرْتَـــهُ وهو مزعف[11]

ويقول الحارث بن غزوان الزيدي [12]:

---

[1] المُعلِمْ : الذي أعلم نفسه بعلامةٍ في الحرب يُعَرفُ بها لشجاعته .

[2] الأبدان : الدروع ، وأحدها بدن . البيض : الحديد ، والبيض بالكسر : السيوف .

[3] الهوينى : المشي على ترسل بلا قلق .

[4] القلون : جمع قلة وهي خشبة يرفعها الصبيان يضربونها شبه السواعد إذا قُطعت فطارت بها .

[5] ديوان طُرفة بن العبد، شرحه وقدّم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1987 ص 55-56 .

[6] زايل : فُرّق، – النَّشاج : الضرب الذي يشخب دم منه ،– المخل المزعف : المقاتل .

[7] الصوار : قطيع البقر الوحشي ،– الأسنة : مفردها سنان ، وهو رأس الرمح ،– ترعف : تقطر دماً .

[8] المُرهَق : المتعب من شدَّة الحرب،– المتلهف : المتحسِّر على خسارته .

[9] قئنا : أعطينا الفيء أو الغنيمة،– النقيذة : كل ما أُنقذ من الأموال والماشية، الغب : اليوم الذي يتلو المعركة . الكمي : الفارس الشجاع . المعرِّف : الذي يُعِّف عن نفسه في الحرب .

[10] الكارهة : المرأة التي تكره العيش مع زوجها ، تذرف : تسيل منها الدموع .

[11] النحيب :البكاء،– المحزوم : وسط الصدر،– المزعف : المردى المقتول .

[12] الأشباه والنظائر، للخالدين، تحقيق السيد محمد يـــــــوسف، القاهرة ، لجنه التأليف والترجمة 1965م جزء 1 : 94 .

وما تحت السماء لنا ابـن أختٍ بِمُـرِدَفَـةٍ عليها القِدْحُ جَـالا

وافتخر المطوح بن عثمان التغلبي بعدم استطاعة أحد من الأعداء سبي نساء قومه فقـال [1]:

وما كان منَّا عند قومٍ سبيّـةٌ وما كان من أموالنـا عندهم نهبُ

وافتخر الطرماح بأن نساء قومة طيء لم تتقاسمهن أحد من الأعداء، كما يتقاسمون نساء غيرهم فيقـول [2]:

لنا نسوةٌ لـم يَجْرِ فيهن مَقسَمٌ إذا ما العذارى بالرِّماح استُحلَّتِ

وافتخر حُرَيث بنُ عنّاب الطائي، بأن نساءهم لم يتعرضن للسبي، ولم يقسمّن بـين أعدائهن، لأن قومه دافعوا عنهن، فمنعوهن، يقـول [3]:

لنا نسوة لم يجر فيهن مقسم خمسٌ ولا بعد التسَّـاهمِ مَرْبَعُ

حماهُنَ من بنهان جمع عَرمْرَمٌ وصُمٌ العوالي، والحجاز الممنَّعُ

وإذا كان عمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، وغيرهم قد افتخـروا بحمايـة القبيلـة لنسائها وذبِّها عنهن، فإن من العرب من افتخر بنفسه، وفعاله، ومن هؤلاء، ربيعة بن مكدّم، الذي ضرب به المثل في حماية النساء، حيث استبسل في الدفاع عنهن، ولم أحسّ بدنو أجله اتكأ على رمحة، ووقف في وجه أعدائه، وأمر النساء باللحاق بالحمى وظل هكذا مدّه مـن الوقت ولا أحد يقربه هيبةً له .

يقول عمرو بن العلاء :" **ما نعلم قتيلاً حمى ظعائن غير ربيعة بن مكدّم** " [4] وقالت العرب فيه :" أحمى من مجير الظُّعْن " [5] يقـول عنه دريـد بـن الصمـة – الذي كـان مـن أعدائـه – في إعجاب بفتوته وبطولته، وفروسيتـه [6]:

ما إن رأيتَ ولا سمعت بمثلـه حامي الظَّعائـن فارساً لم يُقْتَـلِ

أرْدَى فوارس لم يكونوا نُهْـزَةً ثم استمرّ كأنَّهُ لم يَفْعَـلِ

يُزْجي ظعينَتَهُ ويَسْحَبُ ذَيْلَـهُ متوجِّهاً يُمْنَاه نحو المنـزلِ

وافتخر ربيعة بن مكدَّم بنفسه وبحمايته للظعائن، فقـال [7]:

---

(1) السـابـق ، 1 : 93 .

(2) انظر ديـوان الطرماح، تحقيق عزّة حسن ، دمشق وزارة الثقافة والسياحة 1968م ، ص 49 .

(3) انظر كتاب الرياض ص 126 . أراد بالحجاز : الجبـل .

(4) مجمع الأمثال جزء 1 : 286 .

(5) السـابـق جزء 1 : 286. ، المستقصى : 335 : 188 .

(6) انظر كتاب الرياض عدد 82/81 ، ص 165 .

(7) السـابـق ص 165 – 166 .

إن كان ينفعك اليقين فسائلـــــي عنّي الظعائنَ يومَ وادي الأَخَــرّمِ
إذا هي لأَوَّل من أتاها نُهْـــزَةٌ لولا طَعَانُ ربيعَة بْنِ مكـــــــدَّمِ
إذ قال لي أدنـــى الفوارس ميتةً خلِّ الظعائن طــــــائعاً لا تندمِ
فهتكت بالرمح الأصم إهابـــــه فهوى صريعاً لليديـــــن وللفم [1]
وَمَنَحْتُ آخر بعده جَيَّاشــــــةً نَجْلاَءَ مُثْغِــــرةً كَشِدْقِ الاضْجَمِ [2]
ولقد شَفَعتْهُمُا بآخـــر ثالثٍ وأَبى الفِرارَ لـــي الغَدَاةَ تَكَرُّمي

ب – عجز العربي عن حماية النساء يجعله عرضة للهجاء :

أما إذا عجز العربي عن حماية نسائه، فإنه يكون عرضة للهجاء من أعدائه وذلـك بتعيرهم، بسبي نسائهم، اللائي لم يستطيعوا منعهن، والذب عنهن، يقول جرير في هجائـه تغلب، مذكراً إياهم بما فعل بهم زفـر بـن الحـارث، الـذي سبـى نسـاءهـم، وأخـذ أمـوالهـم [3]:

أنسيتَ يومَك بالجزيرة بعدمـا كانت عواقبـــــــهُ عليك وَبَالا
حَمَلَتْ عليك حماةُ قيسٍ خَيْلَهـا شُعْثاً عَوَابسَ تَحمـــــلُ الأبطالا
زُفَرُ الرئيس أبو الهزيـل أبادَكُمْ فسبى النِّساء وآحْرَزَ الأَمْــــوَالا

ويقـــــول [4]:

ما كنتَ تَلْقَى في الحُروبِ فوارسِي مِيْلاً، إذا رَكِبُوا ولا أَكْفَـــالا
صبَّحْن نِسْوَةَ تَغْلبٍ فَسَبَيْنَهَــــا ورَأَى الهُزَيْلُ لِورْدِهِنَّ رِعَــالا [5]

وقد يمن بعض الشعراء على مَهْجُوِّهم وقومهم أن استطاعوا تحرير سباياهم الـذين عجزوا هم عن تخلصهن، فقد من الحطيئة على بني نجاد، وهم حي من عبس قبيلته، بأنـه وقومه الأدْنَين كانوا يدفعون عن نسائهم، لمنعهن من السبي دفع الأسـود الـضواري عـن أشبالها، يقـول [6]:

---

(1) لليدين وللقم : أي سقط على التراب ، فالتصقت به يداه وفمه . أي هـــلك .

(2) جياشـــة : طعنة تدع الدم يجيش ويتدفق، نجلاء : واسعة ، – مثغرة : لها ثغـــر أي فم .
– أضجم : الأعوج الفم ، المائل الشدق .

(3) ديوان جرير، شرح وتقديم نهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العليمة بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، 1992م ص 339 .

(4) الســـابـق ، ص 340 .

(5) الهزيل : ابن هبيرة التغلبي . – الرعال : طلائع القوم أو الإبل .

(6) ديوان الحطيئة، رواية وشرح ابن السّكّيت ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1993 .ص 83-84 .

ونحن إذا ما الخيل جاءت كأنها ... جرادٌ زفت أعجازُ الرِّيحُ منتشرْ[1]
إذا الخفرات البيض أبدت خدامها ... وقامت فزالت عن معاقدها الأُزُرْ[2]
نحامي وراء السَّبي منكُمْ كما حمت ... أسودٌ ضواري حول أشبالها عُفُرْ[3]
على كل محبوك المراكل سابح ... إذا أشرعت للموت خطَّةٌ سُمُرْ[4]
نعامٌ إذا ما صيح في صَحَراتِكم ... وأنتم إذا لم تسمعوا صارخاً دُثُرْ[5]

ويقول جرير [6]:

وكنتم تأمنون إذا أَقَمْنَا ... وإن نَظْعَنْ، فما لَكَ من مَقَامِ
وَنَحْنُ الذائدون، إذا جَبُنْتُم ... عن السَّبْيِ المُصَبِّحِ والسُّوامِ
تُفَدِّينا نساؤكُمُ، إذا ما ... رَقَصْنَ وقد رَفَعْنَ عن الخدامِ [7]

وقال يهجو التيميين، مذكراً إياهم بأن يربوعاً قد ردّت سبيهم في يوم جزع طلال [8]:

تفضّلَ تيمٌ في البراد ولا يُرى ... فَوارِسَ تَيْمٍ مُعْلَمِينَ على الثّغْرِ[9]
أتَهْجُون يَرْبُوعاً وقدْ ردَّ سبيكم ... فَوَارِسُهُمْ والبيض يلوين بالخُمر

ت – معاملة السبايا :

اختلفت معاملة السبايا باختلاف السابي لها، فإذا كان هناك بعض العرب الذين يأنفون من سبي النساء، فن هناك آخرين من الذين سبوا النساء عاملوهن معاملة حسنة، يقول حاتم الطائي مفتخراً بمعاملته الحسنة للنساء [10]:

فما زادَها فينا السِّباءُ مَذَلَّةً ... ولا كلَّفت خبزاً ولا طبخت قدرا

---

(1) زَفَتَ : استخفَّت وساقت ، – أعجازه : أواخره ، – منتشر : متفرق .

(2) الخفرات : الجواري الحَيَّات، الواحدة خَفِرَه ،– الخِدام :الخلاخيل ، قوله : (فزالت عنهن) أي زالت من ا لعجلة .

(3) عُفُر : أي يعفرن من دنا منهنّ .

(4) المحبوك : الشديد الفتل، يعني فرساً،– المراكل : جمع مركل وهو موضع عقب الفارس، حيث يركل الفارس برجله،إذا حركها للرّكض .

(5) الحجرات : النواحي . الدثور : البطيء النهوض ، الناقة الدّثور : التي لا تكاد تقوم من مبركها .

(6) ديوان جرير : 376–377 .

(7) الخِدام : الخلاخيل ويشير إلى أن النساء قد شمرت ثيابها هرباً فبانت خلاخيلها .

(8) ديوان جرير : 160 .

(9) البراد : مفردها البردة : وهي من الأكسية .

(10) العقد الفريد ، الجزء السابع : 123 –124 .

ولكن خلطناها بخيرِ نسائنـــــا   فجاءت بِهِمْ بيضاً وجوهُهُمْ زُهْرا
وكانت ترى فينا ابن سَبِيَّــــــةٍ   إذا لقي الأبطال يَطْعَنُهُم شَــزْرا

وأعتق عروة سبيتين من سباياه، وتزوجهن، وأحبهن حباً شديداً، ولبثن معه زمناً، ثم خيرهن، فاخترن أهلهن، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقـــاً .

إذا كان هذا حال بعض العرب الذين يحسنون معاملة السبايا " فإن الجّماء الغفير من الشعراء لا يكتفون بالفخر بسبي النساء، ولا يسكتون سكوت المستحيي عن سوء معـــاملتهم في الإعزاز إياهن، بل يتبارون في وصف ما يقاسين في محنتهنّ وصف الملتذِّ بتألُّم غيره، ويتسابقون في الاعتزاز بأن يكونوا هم المُسَببين فيما تعانيه نسوة أقوى ما يملكن من سلاح دموعُهُنَّ فقد وصفوا عدوهن الشديد خلف المطايا، تُدْمي أقدامَهُنَّ الحجارة، وقيـــامهن علـــى خدمة الأتباع والرعاء والخدم، وتعرُّضهُنَّ لاهانتهم، ووصفوا سَوْقهنَّ ســـوق الحيوانـــات، وقَوْدَهُنّ قَوْدَها، وإردافَهُنّ خلف الرجال، وكأن ليس في السَّبْي، في حد ذاتـــه، مـــن الإذلال وكسر الروح المعنوية ما يكفي " [1].

إن هناك من الشعراء من يفتخر بأنه يسوق النساء المنعمات – الحرائر سوق البهائم، في أرض مليئة بالحجارة الحادّة التي تدمي الأقدام، يقول معقل بن خويلـــد [2] :

أرى أمّ عمرو في السياق تَغَضَّبتْ   وهان علينا دَمعها وصغارهـــــا
وكــــــم من فتـــاة قبلها سقت عُنْوةً   منعمة الرِّزْقُ بادٍ حرارهـــــــا [3]

ومن الشعراء من افتخر بتمكن قومه من سوق السبايا واقتسامهن ذليلات صاغرات مستسلمات يقول الأعشـــــى[4]:

فما بَرِحُوا حَتَّى استَحمثَّتْ نِساؤهُمْ   وأَجْرَوْا عَلَيْها بالسِّهامِ فَـــــــذَلَّتِ

وقد نجد بعض الشعراء يفخر بتقييده للنساء، حتى أن القيد قد أضـــرّ بمعاصـــمهن ومزقت السيوف ثيابهن، يقول مالك بن خالد الهذلـــي[5]:

فَيَبْرَحُ عان موثق في حبالنـــا   وعَبْرَى متى يُذْكَرْ لها الشَّجْوُ تَشْهَقِ
مكبَّلةٌ قد حَرَّق السيفُ حِقْوَهـــا   وأُخْرى عليها حِقْوُها لم يحــــرِّقِ[6]

---

(1)

(2) شرح أشعار الهذليين ، للسكري ، تحقيق عبد الستار فرَّاج ، القاهرة دار العروبة 1965 .ص 396 .

(3) الزُّرق : جبال ، حرار جمع حرّة .

(4) ديـــــوان الأعشــــى : 297 .

(5) شرح أشعار الهذليين : 471-472 .

(6) الحقـــو : الإزار ، وأصلة معقد الإزار .

ويقول النابغـــة [1]:

تدعو قُعَيناً وقد عَضَّ الحديدُ بها ... عضّ الثِّقَاف على صمٍّ الأَنـــابيب

ويقــول أيضـــاً [2]:

أو حرِّة كمهاة الرمل قَدْ كُبِلَت ... فوق المعاصم منها العَــراقِيب

وقد نجد في شعر العرب، ما يدل على التنكيل الشنيع بالسبايا، والذي يعتبر، فعـــلاً ممقوتاً، كمقت فاعليه، وشاذاً شذوذ من يقدم عليه ، يقول تميم بن الحباب الـــسلمي مفتخـــراً ببقر بطون الحبالى من النساء السبايـــا[3]:

بَقَرْنَا الحبالى من زُهَير ومالكٍ ... لييْأَس قَوْمٌ من رجاء التَّجَبـــُّـــرِ

وافتخر عامر بن الطفيل ببقر الحبالى فقال[4]:

بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما ... خطبن لقَيْف الريح نَهْداً وخثعما

ونحن صَجَنْا حَيَّ بخران غارةً ... تبيلُ حبلاهـــا فخافَتنا دمـــا

وقد تبلغ القوة من السبايا أَشُدَّها، حين يقدم السابي على حرّق السبايا مبالغة في إيلام العدو، وتشفياً منه، وهذا الأمر شاذاً، وبما لم يقدم عليه إلا المنذر بن مـــاء الـــسماء، الـــذي أحـــرق سبايـــا بني بكـــر، وقتـــل أســـراهم يـــوم أُوارة الأول وأشـــــار إلـــــى ذلـــك الأعشـــى بقولـــــه[5]:

ومنا الذي أعطَاهُ في الجَمْعِ رَبَّهُ ... على فَاقَةٍ ولِلْمُلُوكِ هِبَاتُهَـــــــا

سَبَايَا بني شَيْبَانَ يَـــــوْمَ أُوَارَةٍ ... عَلَى النَّارِ إذ تجْلَى له فَتَياتُهَـــا

ث – صورة السبيَّة في الشعر الجاهلي :

حاول بعض الشعراء رسم صور متعددة للـــسبايا، مظهـــرين بعـــض مفـــاتنهن أو إظهارهن في صورة ذليلة، مهانة، وذلك إيلاماً لأهلها، وقهراً لهم، يقول الشاعر عبيـــد بـــن الأبرص مشبهاً السبايا بالدمى [6]:

وأوانس مثل الـــــــــدُّمى ... حـــــور العيون قد استبينـــــــا

---

[1] شعر الحرب ، على الجندي : 577 .

[2] الســـــابــق : 577 .

[3] المرأة في الشعر الجاهلي : 491 .

[4] الســـــابـــق : 491 .

[5] ديوان الأعشى : 123 .

[6] شعــر ا لحـــرب : 576 .

وصورهن طفيل العنوي بقطيع البقر الوحشي [1]:

عذارى يَسْحَبْنَ الذُّيول كأنهـــــا مع القوم يَنْصُفْنَ العضاريط ربربُ

ويشبههن امرؤ القيس بالسعالي [2]:

أنا تَرَكْنا منكمُ قتلى وجـــــرْ حَـى وَسَبَايـا كالسَّعَـالـــــي

وشبه النابغة صدورهن بالرُّمان [3]:

يُخَطِّطْنَ بالعيدان في كل مَقْعَـدٍ ويَخْبأْن رُمَّانَ الثُّدِي النَّوَاهِـــــد

وشبههن عميرة بن طارق، بالظباء [4]:

فإنِّي لو أمهَلْتُكُمْ فَغَـــــزَوْتُمُ فجئتُمْ بسبيٍ كالظبـاء وجـامـلِ

وشبهها المهلهل بالبدر [5]:

أسلموا كلَّ ذاتِ بعْلٍ وأخْـرَى ذات خدرٍ غَـــرَّاء مثل الهلالِ

وشبهها زهير بن جناب بشمس الضحى بيضاء، عذبة الريق [6]:

وسبينا من تغلب كلَّ بيضـــا ء كنور الضُّحَى بَرُوْد الرُّضَـابِ

وشبهها الجنوب من عجلان بأنها حسناء يفوح المسك من ثيابها [7]:

المخرج الكاعب الحَسْنَاء مُذْعِنَةً في السَّبْيِ يَنْفَحُ من أَرْدَانِها الطيب

وهذا هو حال السبي في الجاهلية، حاولت جاهداً أن أوضح الفكرة في عجالة لأتُخل بالغرض، حيث أنني لم أرغب في الحديث عن السبيَّة في شعر الصعاليك دون المرور على السبي في العصر الذي عاشوا فيه، وكانـوا جزءاً منـه .

---

(1) الســـابــق : 576 .
(2) الســـابــق : 576 .
(3) الســـابــق : 577 .
(4) الســـابــق : 577 .
(5) الســـابــق : 577 .
(6) الســـابــق : 577 .
(7) شرح أشعـــار الهذليين : 580 .

2- السبيَّـــة فــــي شعــر الصعــاليك

لم يكن شعر الصعاليك شاذاً عن شعر غيرهم من شعراء القبائل الذين عاصـــروهم، لذلك يجد القارئ في هذا الشعر بعض الإشارات إلى السبي، حيث أن الــصعاليك اعتــزوا بحماية نسائهم والذود عنهن، كما افتخروا بمقدرتهم على سبي نساء غيرهم، وعيروا أعدائهم بذلك، ووصفوا السبايا بأوصاف متعددة، مشابهة لأوصاف غيرهم من الشعراء، وقد نجد في شعر بعضهم شيئاً من التشفِّي أحياناً .

أ – الفخر بالسبي وتعيير الأعداء :

الفخر بسبي النساء واضح جلي في شعر كثير مـــن شـــعراء العــصر الجـــاهلي، والصعاليك جزء من هولاء الشعراء . حيث أن سبي نساء العدو دليل واضـــح علـــى قـــوة السابي، وسطوته، وظهوره على عدوه، وقهره له، لذلك نجد بعض الصعاليك يفخر بقدرتـــه على سبي نساء عدوه، يروى أن بني عامر أخذوا امرأة من بني عبس، ثم من بني ســـكين، يقال لها أسماء . فما لبثت عندهم إلا يوماً حتى استنقذها قومها، فبلغ عروة أن عـــامر بـــن الطفيل قد افتخر بذلك الأمر، وذكر أخذه إياها، فرد عروة عليهم يعيرهم بأخذه ليلـــى بنـــت شعواء الهلالية ، يقـــول [(1)] :

إن تأخذوا أسماء، موقف ساعةٍ　　　فَمأْخَذُ ليلى، وهي عــذْراءُ، أَعْجَبُ

لبسنا زماناً حُسْنَها وشبابَهـــــا　　　وردّت إلى شعواءَ، والــرأسُ أَشْيبُ

كمأْخَذِنَا حسناءَ كُرْهاً، ودَمْعُهـــا　　　غَدَاةَ اللِّوى، مغْصُوبَـــــةً يَتَصبَّبُ

إن عروة يفخر أنه سبى ليلى بنت شعواء، وهي فتاه عذراء، وبقيت عندهُ زمناً، ولم ترجع إلى أهلها إلا بعد أن شابَ شعرها، وتقدم بها العمر، وهذا يدل على منعـــة الـــشاعر، وقوته، وفيه تعيير بضعف أعدائه وعجزهم عن استنقاذ سباياهم .

وأفتخر حاجز الأزدي في معرض رده على عُزيِّل الخثعمي الذي عيّر حاجزاً بطعنةٍ طعنها إياه عمرو بن معد يكرب في إحدى غارات خثعم على بني ســـلامان، فقـــال حـــاجزٌ مذكراً أعداءة بأيام كثيرة لهم هزموا أعداءهم،وسبوا نـــساءهم، وجـــاؤا بهـــن يقـــودونهن صاغرات ذليلات، وهذا الوصف فيه من التشفي وإيلام العدو ما فيه [(2)] :

إن تذكروا يوم القريِّ فإنـــــه　　　بَواَءٌ بأيامٍ كثرٍ عديدُهـــــــــا[(3)]

---

(1) ديــــــوان عــــــروة : 47 .

(2) الأغـــــاني، جزء 13 : 215 .

(3) القري : واد ، – البواء : الكفء والنظير .

فنحن أبحنا بالشخيصةِ واهنــاً　　　جهاراً فجئنا بالنساء نقودهـــا[1]

وافتخر أيضاً بسبيه نساء بني هلال، وذلك أن ضمر بن ماعز سيد بني هلال، قتــل حُجَّاجاً من الأزد مرّوا ببني هلال بن عامر بن صعصعة، فبلغ ذلك جاجزاً، فجمع جمعاً من بني قومه وأغار على بني هلال فقتل فيهم، وسبى منهم، وفي ذلــك يقــول مخاطبـــاً ضمرة بن ماعــز [2]:

ياضمرُ هل نلْناكم بدمائنـــا　　　أم هل حَذَوْنا نَعْلَكُمْ بمثــالِ

تَبكي لقتلى من فقيم قُتِّلــوا　　　فاليومَ تبكي صادقـــاً لهلالِ

ولقد شَفَاني أنْ رأَيْتُ نســاءَكُم　　　يَبْكيْن مُرْدفةً على الأَكْفَــال[3]

ياضُمر إن الحرب أَضْحَتْ بيننا　　　لقحت على الدكَّاء بعدَ حيَــال[4]

إن جاجزاً لم يشف غليله، ويذهب ما في صدره، رؤية القتلى من أعدائه، ولكن الذي شفاه وأذهب همه، وأطفأ نار صدره المتأججة على أعدائه هو رؤية النساء الباكيــات، وقــد أُردفن على مؤخرات الرحل، وهذا يظهر بجلاء حرص العربي علــى ســبي النــساء، لأن سبيهن يقهر عدوَّه، ويُلْحقه مذلَّة وهوان يلازمانه طيلة حياته .

ويفتخر قيس بن الحدادية بنصره على هوازن، وأخذه أموالهم، وسبيه نساءهم، حيث يروي صاحب الأغاني أن قيس بن الحدادية جمع قومه، فأغار على جموع هوازن فأصــاب سبياً ومالاً، وقتل يومئذٍ من بني قشير : أبازيد وعروة وعامراً ومُروَّحاً، وأصاب أبياتاً مــن كلاب خلوفاً، واستاق أموالهم وسبياً، ثم انصرف وهو يقــول [5]:

نحنُ جَلَبْنا الخيلَ قُبَّاً بطونهـــا　　　تراها إلى الدّاعي المثوّب جُنَّحـــاً [6]

بكل خزاعيٍ إذا الحرب شَمَّــرت　　　تسربل فيها برده وتَوشَّحـــــــا

قتلنا أبا زيدٍ وزيداً وعامــــراً　　　وعُرْوَة أقْصَدْنا بها ومروَّحــــــا[7]

---

(1) الشخيصة : اسم مكان .

(2) الأغـــــاني ، جزء 13 : 216 – 217 .

(3) المردفة : التي أُركبت خلف الراكب ، – الأكفال جمع كفل : العجز .

(4) الدكاء : رابية من طين ، – الحيال : العقم .

(5) انظر الأغاني ، جزء 14 : 140-141 .

(6) القَبَبْ كسبب : دقة الخصر وضمور البطن ،– التثويب : تثنية الدعاء، جنح جمع جانحة : أي مائلة إليه مقبلة عليه .

(7) أقصده : طعنه فلم يخطئه .

وأُبنا بإبْل القوم تُحْدَى ونسْـــوةٍ يبكين شِلواً أو أسيراً مُجرَّحـــــــــا[8]

غداة سقينا أرضهم من دمـــائهم وأبنا بأُدْمٍ كنَّ بالأَمْسِ وضَّحـــــــــاً[1]

وافتخر أيضاً بأنهم يتزوجون النساء بغير مهـــور، بعـــد أن يـــسبوهنَّ بـــسيوفهم، فيقـــــول [2]:

وأنا بلا مهرٍ سوى البيض والقنا نصيب بأفناء القبائل منكحـــــــاً

وغزت عبس طيء، بعد قتل عنترة بن شداد، فسبوا نساءً خارجـــات مـــن الجبـــل فتبعتهم طيء، فقاتلتهم عبس حتى ردّوهم إلى جبلهم، وجاؤوا بالنساء إلى بني عـــبس فقـــال عروة مفتخراً ومتشفياً [3]:

أبلغ لديك عامــــــــراً إن لقيتها فَقَدْ بَلَغَتْ دارُ الحافظ قَرارهـــــا[4]

رحلنا من الأجبال أجبال طــــيء نســـوق النساءَ عُوذَها وعِشَارَها[5]

ترى كل بيضاء العوارضِ طفلةٍ تفري، إذا شال السِّماك صدارَهـــا[6]

وقد علمت أن لا انقلاب لـــرحلها إذا تَركتْ من آخرِ الليل دارَهـــا [7]

إن عروة يفتخر بأنهم ساقوا نساء طيء سوقاً مهيناً، ويـــذكر أن فـــيهن الحوامـــل والمرضعات، وصغار السن، اللائي يئسن من العودة لديارهن .

ويفتخر مالك بن حريم الهمداني، بانتصاره على أعدائه، وتركه قتلاهم فـــي أرض المعركة تحوم الطير فوقهم، وعيرهم بأنهم ولَّوا هاربين، تاركين خلفهم نساءهم كأنهن الظباء يقعن سبايا في يد عدوهم ، يقـــول [8]:

---

[8] تُحدى : تُساق، – الشِّلْو : كل مسلوخ أكل منه شيء ، أو هو الجزء من الجسد .

[1] بأُدْم : أي سبايا من النساء ، وأُدم : جمع أدماء ، والأدْمة : السُمْرة في الناس . – وُضَّحاً : أي بيضاء ، جمع واضحة .

[2] الأغـــــاني : جزء 14 :141 .

[3] الديـــــــوان : 76 .

[4] دار الحفاظ : من المحافظة على الحسب والحزم ، قرارها : مستقرَّها .

[5] عوذها وعشارها : هذا مثلان وهما في الإبل ، والواحد : عائذ : وهي الحديثة النتاج ، والعشار : التي قد قربت على أن تضع . أراد أن من النساء منهنَّ حوامل ، ومنهن مراضع لأطفالهن .

[6] العوارض : جمع تكسير على وزن فواعل ، وهي من ا لأسنان الضواحك . – الطفلة : الناعمة الرخصة الرطبة ، – تغري : تشق صدرها إذا ارتفع السِّماك وهو النجم ، – الصدار : شيء تلبسه المرأة على صدرها يشدُّه .

[7] إذا تركت من آخر الليل دارها : كأنها سبيت قبيل الصبح، وهذا دليل على أن بعض الغارات تكون آخر الليل لمفاجأة العدو .

[8] انظر شعر مالك بن حريم ، في موسوعة الشعر ، المجمَّع الثقافي .

ورهط المازني وأبي كُعَيْـــــب تَرَكْنَاهُم كَبَاقية الرَّمَـــــــــــاد
تحومُ الطيرُ فَوْقَهُمُ وجَالَـــــتْ على خَوْلانَ بالأَسَلِ الحـــــــــداد
فولَّوا عند ذاك وأمكنونـــــا من البيضِ الأَوانس والخِـــــراد[1]
غنيمةُ جيشنا من كلِّ حــــــيٍ مُعَكَّرَةُ الطرائفِ والتِّـــــــــلاد[2]
ولُعسٌ كالظباء مُرَدِّفـــــاتٍ كَأَنَّ عُيونَها واهي المــــــــوادِ

وافتخر تأبط شراً بقتل رجلٍ من بجيلة، وأخذ امرأته سبية فيقــول [3]:

بحليلة البُجْليّ بت من ليلهـــا بين الإزار وكشحهـــا ثم الصَق[4]
بأنيسةٍ طُوِيَتْ على مَطويِّهـــا طيَّ الحَمَـــالةِ أو كطيِّ المِنْطَق[5]

ب : صــورة السبيَّــة فــي شعــرهــم :

تعددت صور السبايا في شعر الصعاليك على الرغم من قلتها، فقد نجد الشاعر أحياناً يسعده أن يرى السبايا، باكيات صاغرات، ذليلات وقد حملن خلف الركبان علــى مــؤخرة الرحل، وهذه الصورة رسمها حاجز الأزدى في قولــه [6]:

ولقد شفاني أن رأيت نساءكم يبكين مردفـــــــة على الأكفال

وهناك صورة للسبية وهي تؤخذ مكرهة، ودمعها يتصبب من عينها على ما آل إليه حالها، يقــول عــروة[7]:

كمأخذ حسناء كرهاً ودمعهـــا غَدَاةَ اللّوى مَغْصُوبــــــةً يَتَصَبَّبُ

وقد نجد صورة أخرى لسبايا وهن يُسقن سوق البهائم، باكيات على القتلى والجرحى والأسرى من قومهن، يقول قيس بن الحدادية [8]:

وأُبْنا بإبْلِ القَوْمِ تُحْدَى ونســوةٍ يبكيْن شِلْوَاً أَوْ أَسيراً مُجرَّحـــــا

وصورة أخرى نجدها في شعر حاجز الأزرى، حيث المبالغة في إهانــة الــسبايا، وامتهانهن ومعاملتهن معاملة البهائم، يقــول [9]:

---

(1) الخراد : مفردها خريدة، وهي البكر لم يمسها أحد .
(2) لعس : المفرد لعساء وهي من كان في شفتيها سواد مستحن .
(3) ديـــوان الصعاليك :151 .
(4) الإزار والكشح : الخصــــر .
(5) الحمالـــة : علاقة السيف ، – المنطق : ما يتمنطق بــــــه .
(6) الأغـــانـــي ، جـزء 13 : 217 .
(7) ديـــوان عـــروة : 47 .
(8) الأغـــانـــي جزء 14 : 140 .

فنحن أبحنا بالشخيصةِ واهنـــاً   جهاراً فجئنا بالنساء نقودهـــــا

ونجد نفس الصورة للسبايا عند عروة حيث يقــول [1]:

رحَلنْا من الأجبال أجبــال طيء   نسوق النساءَ عُوذَهــا وعشارها

إن هذه الصورة المؤلمة المفزعة، التي ترسم بوضوح امتهــان المــرأة، وإذلالهــا، ومعاملتها بقسوة وخشونة، على الرغم من رقتها وضعفها، يوضح بجلاء الجو الــسائد فـــي العصر الجاهلي، والذي يحاول فيه الشعراء إيلام أعدائهم بكل طريقة ممكنة، لذلك يلجــؤون إلى مثل هذه الصور، وهذه الأوصاف .

إن المرأة العربية تكره السبي وتبغضه، لما فيه من مذلةٍ ومهانةٍ، ونجــدها تحــاول تجنبه بكل طريقة ممكنة، فإذا ما فاجأ العدو قومها، ورأت أن ما تخشاه قد يقع فــإن هــول المفاجأة قد يجعلها لا تقوى على الفرار والاختباء على قدميها، فتحبو حبواً حتى تختبئ تحت البيت بعد أن عقد الخوف قدميها، الصورة المفزعة للنساء رسمها مالك بن حريم لنساء قوم غزوهم ليلاً فقـــال [2]:

لما رأيتُ نســـــــاءَهم   يدخلن تحت البيت حبــــوا

أَقْبَلتُ أَفلــــي بالحُســـا   مِ معاً رؤُوسَ القومِ فَلْــــوَا

ويلجأ الشعراء أحياناً إلى ذكر مفاتن السبايا، وجمالهن، من أجــل إيــلام أعــدائهم، وإذلالهم وقهرهم، فقد نجد من يشبههن بالضيـــاء، والغـــزلان، مثــل حاجـــز الأزدي الــذي يقــول [3]:

وأعرضَ جَاملٌ عكـــرٌوسبيٌ   كغزلان الصرايم من بحــــارِ

وشبههن مالك بــن حــريــم بالظبــاء، وأنهــن مــن النــساء البــيض الخرائــد الجميــلات يقــول[4]:

فولَّوا عن ذاك وأمكنونـــا   من البيض الأوانس والخـــرادِ

غنيمة جيشنا من كلٍّ حـــيٍ   مُعَكَّرَةُ الطـــــرائفِ والتلادِ

ولَعْسٍ كالظباء مُرَدَّفـــاتٍ   كَأَنَّ عيونها واهي المـــزادِ

---

(9) الأغـــانـــي جزء 13 : 125 .

(1) ديـــوان عـــروة : 76 .

(2) شعـــر مالك بن حريم ، موسوعة الشعر ، المجمَّع الثقافي .

(3) شعر حاجز الأزدي ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(4) شعر مالك بن حريم ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

إن هؤلاء النسوه الخرائد الحسان، البيض الأوانس، المنعمات، قد يصبحن سمراً بعد البيـــاض من شدَّة ما يلاقين من قســوة الأعــداء، ومن ذل السبي وغلبته، يقــول قــيس بن الحدّاديــة [5]:

غداة سقينا أرضهم من دمــائهم وأُبنا بأُدمٍ كنّ بالأمس وضَّحــــا

وأختم بهذه الصورة، التي رسمها أبو خراش، لامرأة عجوز من فهم حيث يــصفها بالدهاء والمكر والخديعة، يذكر صاحب الأغاني، أن أبا خراش غزا فهماً، فأصــاب مــنهم عجوزاً فأتى بها منزل قومه، فدفعها إلى شيخ منهم، وقال له، احتفظ بها حتى أتيك، وانطلق لحاجته، فأدخلته بيتاً صغيــراً وأغلقت عليه وانطلقت، فجــاء أبــو خــراش وقــد ذهبــت فقـــال [1] :

سدّت عليه دولجــــاً ثم يممت بني فالح باللَّيث أهل الخــزائم [2]
وقالَتْ له دَنِّخْ مكانَكَ إنَّنـــــي سأَلْقَاكَ إن وافيتُ أهْلَ المَــواسمِ[3]

ت : معاملـــــة السبـــايــــا :

لم يكن العرب سواء في معاملتهم للسبايا، وكذلك الصعاليك، فإن كان هناك من كان يقسو على السبايا، ويعاملهن بغلظة وشدّة، وقسوة بالغة، انتقاماً من أهلهن، وشفاء لمــا فــي صدر السابي من غيظ، وحقد دفين، كقول ذي الكلب الهذلــي [4] :

وأبرح في طوال الدهـــرِ حتَّى أُقيمُ نساءَ بَجْلَةَ بالنعــــــالِ

وكذلك فإن ما ذكرته من شواهد سابقة على سوء معاملة السبايا يغني عن التكرار . ولكن هناك من عاملهن معاملة حسنه، وطيبة، فقد يكرم الصعلوك المرأة ويعتقها ويتزوجها، بل يذهب به الأمر إلى أبعد من ذلك حين يتعلق بها، ويحبها حباً عميقاً، يملك عليه فــؤاده، ويشغل فكره، وهذا ما حدث مع عروة بن الورد، الذي أعتق امرأة من كنانـــة وتزوجهــا، وأنجب منها أولاداً وكان يحبها حباً عميقاً، ويعاملها معاملة حسنة، وهذا يؤكده ما قالته فيــه حين تركته وعادت لأهلها، بعد أن فاداها قومها، حيث أقبلت عليه قائلةً :" ياعروة أما إنــي أقول فيك وإن فارقتك الحق، والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعلٍ خير منك

---

[5] الأغاني ،جزء 14 : 141 .

[1] انظر الأغـــاني جزء 21 : 246 : 247 .

[2] الدولج : بيت صغير للبهم .– الليث : ماء لهم ، – الخزائم : البقر ، واحدها خزومة .

[3] يقال : دنّخ الرجل ، – دمّخ إذا أكبّ على وجهه ويديه .

[4] شرح أشعار الهذليين ، جزء الأول : 233 .

وأغض طرفاً وأقل فحشاً، وأجود يداً وأحمى للحقيقة " .[5] إن عروة كان رجلاً حليماً يحيــا بأخلاق الفرسان، ولم يكن له أن يوصف بهذا الوصف من امرأة سبية، فارقته بعد زمــن إلا لأنه كان كما قالت، رجلاً فارساً، تعالى على الأحقاد، والضغائن، وأبى عليه خلقة الإسفاف في معاملة المرأة التي هي عنوان للجمال والوادعة والرقة، واللين والضعف فعاملها بما هي أهل له، من رفق ولين، ومعاملة حسنه، بل أحبها حباً ملك عليه فؤاده، وأطار النــوم مــن عينيه مما جعله يظل نادماً بقية حياته على فراقها، والموافقة على مفاداتها، يقــول :

أرقتُ وصُحبتي، بمضيق عمــقٍ	**لبرق، في تهامة، مستطيــــر[1]**
إذا قلت استهل على قديــــد	**يحورُ ربابُهُ حور الكسيــــر[2]**
تكشف عائذٍ بلقاء، تنفــــي	**ذكور الخيل عن ولدٍ شفـــور[3]**
سقى سلمى، وأين ديار سلمــى	**إذا حلت مجاورة السريــــر[4]**
إذا حلّت بأرضِ بني علـــيّ	**وأهلي بين زامرة وكيــــر[5]**
ذكرت منازلاً مـــن أم وهب	**محل الحي أسفلَ ذي النقيــر**
وأحدث معهداً مـــن أم وهب	**معرسنا بدار بني النضيــر[6]**
وقالوا: ما شــاء؟ فقلت ألهـــو	**إلى الأصباح، آثر ذي أثيــر**
بآنسة الحدث، رضاب فيهـــا	**بعيد النوم، كالعنب العصيــر[7]**
أطعت الآمرين بصرم سلمــى	**فطاروا في عضاه اليستعـــور[8]**
سقوني النسئ، ثم تكنفونـــي	**عداة الله مــــن كذبٍ وزور[9]**
وقالوا : لست بعد فداء سلمــى	**بمغن، ما لديك ، ولا فقيـــر**
ألا وأبيك،لو كاليوم أمــــرى	**ومن لك بالتدبُّر في الأمـــور**
إذاً لملكت عصمـــة أم وهب	**على ما كــان من حسك الصدور[10]**

---

(5) انظر القصة في الأغــاني : جزء ، 3 : 72 وما بعدها .

(1) عمق : اسم بلدة بالمدينة ، مستطير : منتشر .

(2) قدير : مكان قريب من مكة، – استهل : صات ،– ربابة : سحابة – يحور : يرجع ، – الكسير : البطيء في المشي .

(3) العائذ : الحديثة النتاج ،– شفور : الشفر هو رفع الرجلين .

(4) السرير : اسم مكان في بلد بني كنانة .

(5) بنو علي : قوم من بني كنانة – زامرة وكير : موضعان .

(6) أم وهب : كنية زوجته . – ذو النقير : اسم موضع لبني القين ولبني كلاب .

(7) الآنسة : التي لا تنفر – رضاب فيها : ريق فمها .

(8) اليستعور : اسم موضع .

(9) النسيء : المُسْكر .

فيا للنـــــاس كيف غلبت نفسي **على شيء، ويكرهـــــــه ضميري**
ألا يا ليتني عاصيت طلقـــــاً **وجباراً، ومن لي من أميــــــــر**[11]

وفي حادثة أخرى، يسبي عروة امرأة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، يُقال لها ليلى بنت شعواء، فيعتقها، ويتزوجها، وتبقى عنده زمناً، ثم تطلب منـــه أن تـــزور أهلهـــا، فحملها حتى أتاهم بها، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه وتوعّده قومها بالقتل، فانصرف عنهم، وأقبل عليها وقال لها ،: يا ليلى خبِّري صواحبك عني كيف أنا، فقالت : ما أرى لـــك عقلاً، أتراني قد اخترت عليك وتقول خبري عني .[1] وما أرى عروة يطلب منها أن تخبـــر عنه إلا لثقته بأنه كان يعاملها معاملة طيبة، معاملة الزوج لزوجته، معاملة المحب لمحبوبته، يرأف بها، ويعطف عليها ويحسن صحبتها، ولو لم يكن كذلك، لما تجرّأ على الطلب منها أن تخبر عنـــه.

ولعل عروة أحب سلمى الكنانية حباً فاق حبه ليلى بنت شعواء، وهذا يظهـــر مـــن أمرين أولهما شعرة في القصيدة السابقة الذي ينم عن عاطفة صادقة، ومشاعر فياضة، وحب متدفق،وندم وحسرة يعتصران قلبه على التفريط فيها . والثاني أن عروة لم يُعَيِّـــر قومهـــا بسبائها، كما عير قوم ليلى بسبائها، كما في أبيات سابقة . ولكنه على الرغم من ذلك كـــان يحن إلى ليلى وفي ذلك يقـــول [2]:

تحنُّ إلى ليلى بحُرِّ بلادهـــــــا **وأنت عليهـــا بالملا كنت أقـــدرا**[3]
يَحلُّ بوادٍ من كَراءٍ مُضِلّــــــــةٍ **تُحاولُ ليلـــى أَنْ أَهابَ وأَحصـــرا**[4]
وكيف تُرَجِّيها وقد حيل دونهـــا **وقد جاورت حياً بتَيْمَنَ مَنْكَـــــرا**[5]
تبغَّانيَ الأَعْداءُ إما إلـــــــى دمٍ **وإمِّا عُراضِ السعـــاديــن مصَدَّراً**[6]
يَظَلُّ الأَباء ساقِطاً فوق متنــــــه **له العَدْوَةُ الأولى، إذا القِرْنُ أَصْحَرا**[7]

---

(10) الحسك :الخشونة والغل والعداوة .

(11) طلق وجبار : أخوة وابن عمة .

(1) انظر القصة في الأغـــاني : جزء 3 : 77 .

(2) ديـــوان عروة : 65 – 66 ، ديـــوان الصعاليك : 78 – 80 .

(3) بحرّ بلادها : بين قومها ، – الملا : الأرض الواسعة (في المصدرين السابقين سلمى بدل ليلى) وفي الأغاني ليلى وهو الأصوب . وأشار ديوان الصعاليك إلى الروايتين بليلى وسلمى في الحاشية .

(4) كَراء : أرض تكثر فيها الأسود . – أحصرا : أضيق عن ذلك ، أعجزه .

(5) تيمن : أرض قريبة من جرش ، وقيل في بلاد اليمن ، – منكر : غير معروف .

(6) عُراض الساعدين : يراد به الأسد .

(7) الأباء : القصب ، أي أن هذا الأسد يسكن الغياض ، ويتساقط القصب على متنه .

كأنّ خوات الرَّعدِ رِزّْءُ زئيـــــره من اللاَّء تَسْكُنَّ العَرِيْنَ بعسَّـــــــرا[8]
إذا نَحْنُ أَبْردنا وردت ركابنـــــــا وعنّ لنا من أمرنا ما تيســـــــــــرا[9]
بدالك مني، عند ذلك صر يمتـــي وصبري، إذا ما الشيئ ولى فأدبـــرا[1]
وما أنسم الأشياء لا أنس قـــولهـــا لجارتها ما إن يعيش بأحـــــــــورا[2]
لعلك يوماً أن تسري ندامـــــــــة علي بما جشمتني يوم غضـــــــورا[3]
فغربت إن لم تخبـــريهـــم فلا أرى لي اليوم أدنى منك علماً وأخبــــرا[4]
قعيدك ، عمر الله، هـــــل تعلمينني كريماً إذا اسود الأنامل أزهـــــــــرا[5]
صبوراً على رزء الموالي وحافظـــاً لعرضي، حتى يؤكل النبت أخضـــرا[6]
أقب ومخماص الشتـــــاء مـــــرزأ إذا اغبر أولاد الأذلة أسفـــــــــــــرا[7]

ث : حماية النساء والذود عنهن :

حفل الشعر العربي بصور البطولة والشجاعة، والذود عن الحرمـــات وخـــصوصاً النساء، اللائي كان العربي يحرص كل الحرص على ألا يمسهن مكروه، وما أظن مكروهـــاً أشد من الوقوع سبية في يد الأعداء، لذلك ظل العربي حريصاً على التفاني في الذود عنهن، ومنعهن ما استطاع . وهذا الأمر كان مجال فخر عند الشعراء .

والصعاليك جزء من هذا المجتمع، بل إن كثيراً منهم كانوا فرساناً أشداء، يركبـــون الخطر، ولا يهابون الموت، لذلك نجدهم يدافعون عن حرماتهم بكل ما أُوتوا من قوة، . يقول قيس بن الحدادية مفتخراً بقومه، ومعدداً بعض صفاته ومعتدا بها، حيث أنهم أهـــل شـــرف

---

[8] خوات الرعد : شبه صوت زئير الأسد بصوت الرعد ،– الخوات : صوت الرعد . – عُسَّر : مكان مأسَدة .

[9] ردت ركابنا : ردت ما شيتنا من الرعي ، – عنّ لنا : عرض لنا .

[1] صريمتي : أي مضائي وعزيمتي في الأمور .

[2] بأحورا : هو في هذا الموضع العقل ، يقال للرجل : ما إن يعيش بأحور ، أي ذهب عقله .

[3] تسري : تظهر ، عضور : ماء لطيء ، – جشمتني : حملتني .

[4] فَغُرِّبْت : يدعو عليها بالبعد حتى تصير غريبة .

[5] مَعيدك : قسم يعني به : اذكرك – عمُر الله : بقاء الله .

[6] رزء الموالي ك أي منالهم مني

[7] ديـــوان الصعاليك : 53 – 54 .

وحسب ، ونسب ومكانــه عاليــه، وأنهم يذودون عــن حــرمــاتـــهم : بفــروسيـــة وصـــدق [8].

بحرب خزاعة أهـــل العـــلا ... وأهل الثَّناء وأهـــــلُ الحَسبْ
هم المانعو البيت الذائـــــــدون ... عن الحرماتِ جميـــعَ العَــرَبْ
نفوا جُرْهُماً ونفوا بعـــــــدهم ... كنانة غصبــــاً ببيض القضبْ
وسُمر الرماحِ وجُرد الجيـــــاد ... عليها فـــــوارسُ صــدقٍ نُجُبْ
وهم ألحقوا أسداً عنــــــوةً ... بأَحْيَاءَ طيءٍ وحـــــازوا السَّلَبْ

وافتخر عبيد الله بن الحر الجعفي بحمايته لزوجته، والذود عنها، بل إنه تفانى فـــي الحرب من أجلها، وعرّض نفسه للمهالك، لذلك نجده يخاطبها معتداً بنفسه قائلا [1]:

ألم تعلمي يا أُمَّ توبة أننـــــي ... أنا الفارسُ الحامي حقائــقَ مذحج
فبالله هل أبصرت مثلي فارســاً ... وقد ولجوا عليك من كلِّ مَوْلِـــج
ومثلي حامي دونَ مِثْلك إننـــي ... أشدُّ إذا ما غمرةٌ لم تُفْـــــــرَج
أُضَارِبُهم بالسَّيفِ عَنْكِ لَتَرْجِعِي ... إلى الأمنِ والعَيْشِ الرَّفَيعِ المُخَــرْفَج
إذا ما أحاطوني كررتُ عليهــم ... ككرِّ أبي شبلين في الخيس محــرج
ولا غروَ إلا قول سلمى ظعينتي ... أما أنت يابن الحرِّ بالمتحــــــرّج
دع القومُ لا تقتلهم وانج سالمــاً ... وشمر هداك الله بالخيل واخْـــــرُجِ
وإنّي لأرجو يابنة الخير أن أرى ... على خير أحوال المؤمل فارتجـــي

إن هذه الأبيات تظهر تفاني الصعلوك في الذود عن حرماته، تفانياً ينسيه نفسه، وما يحدق بها من أخطار مما يثير شفقة الزوجة عليه، فتطلب منه الكف عن قتل أعدائه، وذلــك بعد أن خلصها ن أيديهم، وفك أسرها . وأن يغادر المكـــان بـــسرعة ، كـــي لا يـــصيبــه مكـــروه .

ومن فخر الشعراء بمنعتهم وحمايتهم لحرماتهم، فخرهم بحمايتهم لجيرانهم، وهــذا فخر بليغ مبطن حيث أن الذي لديه القدرة على حماية جيرانه وحرماتهم هــو أقــدر علـــى حمايـــة أهلـــه وحرماتـــه، ولذلك نجد الشعـــراء يباهـــون بهذا الأمـــر يقـــول مــــــالك بـــن حريـــم الهمدانـــي [2]:

وأوصاني الحريمُ بعزِّ جاري ... وأَمْنَعُهُ وليس به امتنـــــــاعُ

---

[8] الأغــــــاني ، جزء 14 :141 .

[1] منتهى الطلب من أشعار العرب ، لابن المبارك : 658 – 659 .

[2] شعر مالك بن حريم ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

وأدفع ضيمهُ وأَذُودُ عنـــه　　　وأَمْنَعُهُ إذا امْتَنَع المنـــــــاعُ

وفي أبيات أخرى نجده حريصاً على أمن جارته وحمايتها، في وقت يعجز غيره عن حمايـــة جيرانهم يقــول [3]:

فإن شاب الرأس منّي فـــإنني　　　أَبَيْتُ على نفسي مناقب أربعـــــا

وواحدة ألا أبيت بغـــــــرَّة　　　إذا ما سوام الحيَّ حولي تضوعـا

وثانيةً ألا تُفَزَّعَ جارتـــــي　　　إذا كان جار القوم فيهم مُفَزَّعـــا

ويفتخر عروة بأن جاره لا يضام وهو قادرٌ على انصافه، والذود عنه، كما أنـــه لا يتخلى عن أخواله وخالاته، مهما كان الثمن، يقــول [1]:

فلا أترك الإخوان، ما عشت للرَّدى　　　كما أنه لا يتركُ الماءَ شاربـُـــهْ

ولا يستضامُ الدهرَ جاري ولا أرى　　　كمن بات تسري للصديق عقاربـُـه

وإن جارتي ألوت رياحٌ ببيتهـــــا　　　تَغَافَلْتُ حتى يستَر البيتَ جانبُـــهْ[2]

إن هذه الخصال الحميدة، هي التي يفتخر الصعلوك ويعتز بها وهي خصال سامية، حرص العربي على الفخر بها، فحماية الأهل والعشيرة وخصوصاً النساء، وحماية الجـار، والحفاظ على عرضه وحرماته، أمور حرص عليها العربي لأنها عنوان بقائه في مجتمـع، سيطرت عليه النزعات القبلية، ومجتمع يموج بالفتن والحروب التـي لا تهـدأ، مجتمـع لا يعترف إلا بالقوي، أما الضعيف فلا يجد من يقيم عثرته، ويذود عنه إلا إذا احتمى بحمـى الأقوياء . ولاذ بهم فهم خير من يجبر المظلوم، ويفك العانـي .

---

(3) الأصمعيـــات : 64 .

(1) ديـــوان عـــروة : 48 .

(2) ألوت رياح ببيتها : أي ذهبت به وألقته .

ثالثاً : الفتــاة فـــي شعـــــر الصعاليــك

أ- وصفهـــا وتربيتهـــــا :

الفتاة هي البنت قبل زواجها، وهي الشابة الفتية البضّة الناعمة، المرفهـــة، المدلّلـــة المحاطة بكل عناية، سواء بنتاً أو أختاً ، لها ترخى الأسماع، ويلين الكلام، ومـــن أجلهـــا، ينتفض الفرسان، وتشتعل الحروب .

والشعر الجاهلي يصور شيئاً من حياة الفتاة التي تنعم بالحياة، والتربيـــة الحـــسنة، والعيش الهانئ الرغد، في بيت هي فيه مُعزّزة مكرمة، يحوطها أبوها برعايتـــه وحمايتـــه، ويرفق بها ويعطف عليها، ويدللها، ويحنو عليها، يقـــول المـــرّار بـــن منقـــذ [1] :

ناعمتها أم صدق بـــــــــرة وأب بربها غير حكــــــــــــر

في خذواء يعشي ناعـــــــم برد العيش عليها وقصــــــــر

لا تمس الأرض إلا دونهـــــا عن بلاط الأرض ثوب منعفــــر

تطأ الخز ولا تكرمـــــــــه وتطيل الذيل منه وتجـــــــــر

وترى الريط مواديع لهــــــا شعراً تلبسها بعد شعـــــــــر

إنها فتاة منعمة مدللة، وتلبس الحرير والخز، وتحيا حياة رغدة، وهانئة، لها أثـــواب ثمينة، لا يهمها ما بلي منها لكثرتها، وهذه صورة واضحة للفتاة الجاهليـــة، التـــي عَـــزّت مكانتهـــا عند أهلهـــا، فلم يبخلـــوا عليهـــا بشـــيء، بـــل قدمـــوا لهـــا كـــل غالـــي ونفيـــس مـــن أجـــل سعـــادتهـــا .

ويذكر النمر بن تولب بعض وسائل الزينة، والطيب والطعام الحسن الذي نعمت به الفتاة من الطبقات الممتازة عندهم يقـــول [2] :

أناة عليها لؤلؤ وزبرجـــــــــد ونظم كأجواز الجــــراد المفصل [3]

بربتها الترعيب والمحضُ خلفــه ومسكٌ وكافور ولبنــــــــى تأكل[4]

يشن عليها الزعفران كأنـــــــه دم قارت تعلى به ثم تغســـــــل[5]

سواء عليها الشيخ لم تدرما الصبا إذا ما رأته والأَلُوف المقتـــــــل[6]

---

[1] المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها – عبد الله عفيفي ، ج 1 ص 13 .

[2] المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 214 .

[3] أناة : بطيئة ، – أجواز الجراد : أوساطها .

[4] بربتها : يغذوها ، – الترغيب : قطع السنام ،– خلفه : واحد بعد واحد،– لبنى : شجرة من الطيب .

[5] يشن : يصيب،– فارت : جامد،– تعلى : تطلى .

[6] الألوف : من إلف النساء ، – المقتل : الغزل .

يصف الشاعر هذه لفتاة، بأنها بطيئة الحركة، دلالة على ترفها ونعمتهـا، ويـذكر بعض زينتها من أحجار كريمة، كالزبرجد واللؤلؤ وغيرها، وكذلك يذكر اصطفاءها بأطيب الطعام وهو سنام الجمل، ويذكر طيبها من الزعفران الذي يصب عليها صـباً كأنـه الـدم المتخثر المتقطع، ويختم بقوله أنها لصغر سنها، وقلة خبرتها، لا تفرق بين الـشيخ الكبيـر والذي لا حاجة له بالنساء، وبين الشاب القوي، الذي يبحث عن النساء ويتغزل بهن .

إن أفضل ما توصف به امرأة في الجاهلية هو العفة والحياء، لذلك نجـد الـشنفرى الأزدي يتباهى بكون امرأته تتميز بهذه الصفات، ويجاهر بها في شعره، وهو يعرف أن هذه القيم الأخلاقية الراقية هي التي تحيط المرأة بسياج منيع، فتظل مرموقة من بعيـد تهواهـا القلوب، وتشتاق لها الأنفس، ويفتخر بها الزوج، ويزهو بها الأب والأخـوة، وتقتـدي بهـا البنات، ويتسامى بها الأبناء . وإن فقدت هذين العنصرين، أو تخلت عنهما فإنّها، تهوي من مكان عالٍ منيع، إلى منحدر سحيق وترخص وتُبْتذَل، فلا يحفظ الناس لها قدراً، ولا تساوى عندهم شيئاً . وهذا هو حال المجتمع العربي في عصوره . يقول الـشنفرى واصـفاً عفّـة زوجته وحياءها وصفاً دقيقـاً [1]:

أميمة لا يُخْزي نثاهـا حليلَهـا	**إذا ذُكِرَ النِّسـوَانُ عَفَّت وجلَّت**
يحلُّ بمنجاةٍ من اللوم بيتُهـا	**إذا ما بُيوُتٌ بالملامـة حلَّت**
فقد أعجبتني لا سَقُوطٌ قنَاعُهـا	**إذا ما مَشَتْ ولا بـذاتِ تَلَفُّتِ**
كأن لها في الأرضِ نسْياً تَقُصُّـهُ	**على أَمِّها وإنْ تُكلِّمكَ تَبْـلَتِ**

فإذا كانت النساء كذلك فإن " الإفراط في الحياء والمبالغة في العفة من الصفات التي تتميز بها الفتاة عن غيرها من النساء، وهذه من القيم التي توارثتها الأجيال العربيـة، فـإذا فقدتها الفتاة خرجت عن سيرة الفتيات من أمثالها، ومن هذا نجد الخفر والحيـاء مـن أهـم الصفات التي ذكرها لها الجاهليون في أشعارهم " [2].

لذلك نجد السليك يبحث عن وصف – لفتاة من بني عـوار بن مالك فلا يجـد لهـا وصفاً أفضل من الحياء والعفة يقـول [3]:

من الخفرات لم تفضح أباهـا	**ولم تَرْفَعْ لأُخوتها شنـارا[4]**

إن هذه الفتاة الحيية العفيفة الشريفة، قد يترك لها أمرها في اختيار زوجها، فلها أن ترفض من تشاء وتوافق على من تشاء، وقد تستشير فيشار عليها، فربما توافق على الزواج،

---

[1] ديـوان الصعاليك : 16 .

[2] المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 215 .

[3] ديـوان الصعاليك : 187 .

[4] من الخفرات : من الحييات ،– الشنار : العيب والعار .

وترجع عنه بعد ذلك فلا يرغمها أحد، وهذا ما حدث مع تأبط شراً ، الذي خطب فتاة من عبس، ومن بني قارب، فأرادت أن تتزوجه ووعدته بذلك، فلما جاءها وجدها قد رغبت عنه، فقال لها ما غيرك، فقالت والله إن الحسب لكريم، ولكن قومي قالوا لي ما تصنعي برجل يقتل عند أحد اليومين، وتبقين بلا زوج، فانصرف عنها وهو يقول [(1)]:

وقالوا لها لا تنكحيه فإنَّهُ * لأُول نصل أن يلاقي مجمعا**

فلم ترمن رأيٍ فتيلاً وحَاذَرَتْ * تأَيُّمَها من لابس اللَّيْل أَرْوَعَا**

قليلُ غِرارَ النَّوْمِ أكبر همِّهِ * دَمُ الثَّأْرِ أو يلْقى كَمِيّاً مُسَفَّعا**

ب- مكانتها عند أهلها :

لم تكن مكانة الفتاة في بيتها بالهينة،و إنما كانت الفتاة تتبوأ عند أهلها مكانة مرموقة يصونونها، ويدافعون عنها، ويلبون طلبها، ويسعون في راحتها، ويبالغون في تدليلها فتحيا بذلك كريمة عزيزة معتدّة بنفسها، مزهوة بأهلها .

فلا غرو بعد ذلك أن تعلو بها الهمة، فتجير الرجال، وتمتشق السيف، وتدافع عن جوارها، رغم ضعفها، ورقتها، وأنها ما خلقت لقتال .

ومن الدليل على علو مكانتها عند أهلها، أن يهب اخوتها ملبين نداءها، فيدافعون عنها ويجيرون من أجارت، دافعين عنا ظلم الظالمين وجور الجائرين، وكيف لا وهي الفتاة الشريفة العفيفة، الطاهرة، التي لم تخدش لهم شرفاً، ولم تهتك لهم ستراً ولم تدنس لهم عرضاً، بل حفظت نفسها عفيفة شريفة طاهرة، وأحلت أهلها بمنأى عن كل ما يعيبهم .

لقد حفظ لنا شعر الصعاليك قصّة تشير بوضوح، إلى ما قلت في الأسطر السابقة، وذلك أن السليك أغار على بني عوارة، بطن من بني مالك بن ضبيعة، فلم يظفر منهم بفائدة . وأرادوا مواثبته، فقال شيخ منهم : إنه إذا عدا لم يتعلق به شيء فدعوة حتى يرد الماء، فإذا شرب ثقل فلم يستطع العدو، وظفرتم به، فأمهلوه حتى ورد الماء فشرب، ثم بادروه . فلما علم أنه مأخوذ خالفهم وقصد أقرب بيوتهم، فولج على فتاه يقال لها : فكيهه، فاستجار بها . فحمته وجعلته تحت درعها (ثوب من زرد) وامتشقت سيفاً لحمايته . فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بأخوتها، فجاؤوا ودفعوا عنها وعنه، حتى نجا من القتل، فقال السليك في ذلك [(2)]:

[(1)] الحماسة ، لأبي تمام، : 189 ، ديوان الصعاليك : 138 ، الأغاني ، جزء 21 : 164 .

[(2)] ديوان الصعاليك : 187 – 188 .

لعمرُ أبيك والأنبـــــاء تنمي — لنِعمَ الجـــــــارُ أُختُ بني عُوارا
منَ الخفراتِ لم تَفْضَحْ أَبَاهَــــا — ولم تَرْفَعْ لأُخوتهـــــــا شَنَارا
كأنّ مجامع الأرداف منهـــــا — نقيٌ درجت عليه الريحُ هــارا[1]
يعافُ وصالَ ذاتِ البَذْلِ قَلْبــي — ويَتّبعُ المُمَنَّعَةَ النَّـــــــــوارا[2]
وما عجزت فكيهة يوم قــامت — بنصل السَّيْفِ واستلبوا الخمــارا

إن هذه الفتاة رغم تدرعها بالعفة، واعتصامها بالحياء سارعت إلى الوقوف في وجه أعدائه واستلت السيف لنجدته . إذ النجدة خلق عربي صميم في رجـــالهم ونـــسائهم، علـــى السواء، فلا تحفل المحبة بسقوط خمارها، إذا ما قامت لنجدة، وهذا الصورة التي صـــورها السليك من الصور الظريفة الجميلة المحبة، وقد روى عن مبلغ تأثيرها في النفوس فيما بعد أن فتاة متبذلة سمعتها، فتابت بسبب ما خلفته في نفسها من روعة خاصة قوله " من الخفرات لم تفضح أباهـــا " [3].

وكذلك توضح القصة مسارعة الأخوة لنجدة اختهم والذود عنها وحمايـــة جارهـــا، إعزازاً لها، واعتداداً بحمايتها، وهذا يدل على مكانة الأخت عند اخوتها، تلك الأخت التـــي علت همَّتُها حتى غدت تجير كالرجال، وتحمي جوارها، بشدّة وصلابة، حيث تمتشق السيف، وتقاتل المعتدين كاشفة عن وجهها، رافعة خمارها الذي هو عنوان عفتها وشرفها . حتى لقد ضرب بها المثل فقيل : " أوفى من فكيهة " [4].

ومن مكانة الأخت عند اخوتها، أن يفادوا عليها، ويحرصوا على ألا تذكر بـــسوء، حتى تظل بمنأى عن عبث العابثين، وطمع الطامعين، يروى أن القتال الكلابي كان يتحـــدث إلى ابنه عمه فرآه أخوها زيـــاد، فزجره ونهاه عن لقائها، والحديث معها، وتوعده بالقتل إن رآه يتحدث معها ثانية، وبعد أيام رآه يحدثها، فأخذ سيفه ليضربه به، فهرب القتال، فتبعـــه زياد، وحاول القتال عندما رآه دنا منه، أن يستعطفه، حيث ناشده بالله والرحم فلم يلتفت إليه، فعطف عليه القتال فقتله وقـــال [5]:

نهيت زياداً والمهامه بيننـــــا — وذكَّرْتُهُ أرْحــــــامِ سَعْدٍ وهَيْثَم
فلما رأيت أنه غير منتـــــــهٍ — أملتُ له كفِّي بلَدْنٍ مُقَـــــــوَّم
ولما رأَيْتُ أَنَّني قَدْ قَتَلْتُـــــــهُ — نَدِمْتُ عليه أيَّ سَاعــــــةَ مَنْدمِ

---

(1) النَّقي (والنَّقاء) : كثيب الرمل المتحرك .– هار : حرّك .
(2) الممنَّعة : الصعبة . – النّوار : المرأة النفور من الريبة .
(3) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 216 .
(4) مجمع الأمثال ، للميداني : 4439 ص 445 ، المستقصى : 1848 ص 438 .
(5) الأغــــانـــي : جزء 20 :159 . (دار الفكر) .

لم يكن زياد ليضحي بنفسه من أجل سمعة اخته، لولا مكانتها عنده، وحرصه عليها، حتى من ابن عمها الذي هو من حماتها أيضاً، والذائدين عنهـــا .

وبلغ من مكانة الفتاة عند العرب أن يتغنى بذكرها الفرسان في ساحة الوغى حيـــث كانوا " يتغنون بذكرهن كما يتغنون بحبيباتهم وأزواجهم طلباً للاستبـــسال واثـــارة للنخـــوة والحمية في نفوسهم الطريـــة " [1].

ومن الذين تغنوا بذكر بناتهم في الحرب جَحْدَر بنُ ضُبَيْعْةَ بن قيس بن ثعلبة، وكان ذلك في يوم تحلاق اللمم، حيث أن بكراً حلقت رؤوسها يومئذ استبسالاً للموت وجعلوا ذلـــك علامة بينهم وبين نسائهم، إذ كن معهم في الحرب، ولم يبق منهم أحد إلا حلق رأسه غيـــر جحدر فإنه كان رجلاً دميما حسن اللمة فارساً من الفرسان المعدودين، فقال يا قوم إن حلقتم رأسي شوهتم بي فدعوا لمتي لأول فارس يطلع من الثنية غداً من القوم ففعلوا ذلك وتركـــوا لمتـــه . يقـــول جُحْدَر [2]:

قد يُتِّمَتْ بنتـــي وآمَتْ كَنَتَّي ... وشَعِثَت بَعْدَ الرِّهَـــــان جُمَّتي[3]

رُدُّوا علىَّ الخَيْـــــلَ إنْ اَلَمَّت ... إنْ لمْ يُنَا جِزْهَا فَجُـــزُّوا لِمَّتي[4]

قد علِمَتْ والدَةٌ مــــــا ضَمَّتِ ... ما لَفَّفت في خِـــــــــرَق وَشمَّتِ

ت : عواطف الفتاة وأثرهـــا على أهلهـــا :

تربط الفتاة بأبيها علاقة حب متبادلة، وهذا أمر واضح بجلاء في الـــشعر العربـــي، كانت دائمة الخوف على أبيها، دائمة القلق من مستقبل مجهول قد يفجعها بموته، حيث تفقـــد من يوفر لها الأمن والأمان والعيش الهانئ الرغيد، تفقد القلب الذي يحنو عليها، ويحبها حباً فطرياً خالصاً لذلك نجدها تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تمنعه من الخروج للسفر مـــثلاً، وذلك خوفاً من أن يطول السفر، أو يحول الموت بينهما ،

والناظر في شعر مالك بن الريب،يرى مدى علاقة الحب التي تجمع البنت بأبيها في مشهد يجلّي تلك العواطف والمشاعر الجياشة من كلا الطرفين، يقول أبو عبيـــدة :[5] " لمـــا

---

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 218 .

(2) ديـــــوان الحماســـة : 195 .

(3) آمت : الأيْمة المرأة بلا زوج ،– الكنَّة : قال الخليل هي امرأة الأخ أو الابن . ويريد بها هنا امرأة نفسه ، – الشعث : اغبرار الشعر ، – الرهان هنا : الجلاد ، – والجمَّة : مجتمع شعر الرأس .

(4) ألمَّت : نزلت ،– المناجزة بالقتال ،– والجز : القطع ، اللمّة : الشعر المجاوز شحمة الأذن .

(5) انظر الأغـــــاني : جزء 22 : 317 .

خرج مالك بن الريب مع سعيد بن عثمان تعلّقت ابنته بثوبه، وبكت، وقالت لـــه : أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا، فلا نلتقي، فبكى وأنشأ يقــول [1]:

ولقد قلت لابنتي وهـــــي تبكي	**بدخيل الهمـــوم قلباً كئيبـــاً**
وهي تُذري من الدموع على الخد	**ين من لوعة الفــراق غُروباً [2]**
عبرات يكدْن يجرحن مــــا جُزْ	**نَ به أوْ يَدَعْنَ فيـــــــه ندوبا**
حذر الحتفِ أن يصيب أباهـــــا	**ويلاقي في غير أهل شَعُـــوبا[3]**

إن ابنة مالك بن الريب، تحاول ثني أبيها عن السفر، بأقوى سلاح عندها، ألا وهـــو البكاء حيث أنها تتعلق بثوبه، وتبكي بشدّة وحرارة، خوفاً من فـــراق والـــدها، وخـــشية أن يمـــوت والدهـــا، في بلـــد غيـــر بلـــده، إنهـــا عواطف جيَّاشـــة صادقـــة تحملهـــا هـــذه البنت لأبيهـــــا .

ولم يغفل الأب وهو في هذا الجو المفعم بالحزن، والألم الذي يعتــصر القلـــب، أن يصف جمال ابنته ونعومتها، ورقتها، حين يقول : تكاد دموع ابنته أن يجرحن خـــديها، أو يتركن فيهما ندوباً، فأي رقَّة ونعومة وشفافية في الوجه هذه ، يقـــول :

عبرات يكدن يجرحن ما جُزْ	**ن به أو يَدَعْنَ فيه نُدوبـــــــــا**

ويصادف هذه المناشدة، وهذه الدموع وهذه العاطفة الجيَّاشة ، قلباً عطوفاً، يعتـــصر ألماً من شدة هذا الموقف، وأي شيء يؤثر في الآباء أكثر من البنات، لذلك نجـــد الشاعـــر يطلب من ابنتـــه أن تسكت، وتكف عـــن المناشدة، رأفـــــة بحالـــه، فالمـــوت والحيـــاة بيـــد الله يقـــول [4]:

اسكتي قد حززت بالدمع قلبـــي	**طالما حزِّ دَمْعكُنَّ القلوبـــــــــــا**
فعسى الله أن يدافع عنـــــــي	**رَيْبَ ما تحذرين حتى أَؤُوبــــــا**
ليس شيئاً يشاؤه ذو المعالـــي	**بعزيز عليه فادْعِي المُجيبــــــــا**
ودعي أن تقطِّعي الآن قلبـــــي	**أو تُريني في رحلتي تعذيبــــــــا**

إن الشاعر من رقته، واشفاقه على ابنته، لم يرد أن يتركها على هذه الحال، لكـــيلا يظل معذباً في رحلته بسببها، لذلك يطلب منها الكف عن بكائها، والدعاء له، فكل شيء بيـــد الله ورهن قضائه .

---

(1) الســــابــق : 317 .

(2) الغروب : جمع الغرب ومن معانيه : الدار العظيمة ، والدمع ومسيل الدمع .

(3) شعـــــوب : علم على المـــــوت .

(4) الأغـــــانـــــي جزء 22 : 317 .

إن الأب يدرك دائماً أن ابنته بحاجة له دائماً، ويسيطر عليها هاجس المــوت مــن فقده،لذلك نجدها تسعد وتفرح بعودته، يقول أبو خراش [(1)]:

تقول ابنتي لما رأتني عشيّةً   سَلِمْتَ وما إنْ كِدْتَ بالأَمْسِ تَسْلَمُ

والأب يعلم علم اليقين أن ابنته بحاجة دائمة له لذلك فهو يحرص على ألا يــسوؤها شيء، كما يحرص على حياته من أجلها، فما إن ينجو من أعدائه حتى نجد أن صورة أهله وأبنائه أول ما يتبادر إلى ذهنه، يقول الأعلم الهذلـــي [(2)]:

وذَكَرتُ أَهْلي بالعراءِ وحَاجَةَ الشُّعْثِ التَّـــــوالب

المُصْرِمينَ من التِّلاد اللاَّمِحين إلى الأَقـــــارِبْ

انه يدرك بفطرته شدة حاجة أهله وأبنائه بما فيهم الجانب الأضعف وهــو البنــات، يدرك أنهم بحاجــة إليــه، ينتظــرون عودتــه، لان فــي وجــوده أمنــاً وأماناً، ودفعــاً لغائلة الزمن وعادياتــه .

إن البنت أكثر ما يكسر قلبها، هو بعد الأب، أو فقده، لان الأب هو الــذي يحميهــا ويرعاها ويدرأ عنها كل ظلم قد يقع عليها، فتعيش في كنفه هانئة مطمئنة، لأن البنت قد تجد بعض الغفلة من الاخوة، وذلك لانشغالهم بزوجاتهم وأبنائهم . وشئونهم مما يجعلها عرضــة للمعاناة، أما الأب فلا يشغله عن ابنته شيء مهما كان .

وقد يكون الأخ – وهذا كثير – محباً لاخته عطوفاً عليها، رحيماً بها، ممــا يجعــل الاخت تحبه حباً عميقاً ، حباً فطرياً، فتحيا أيضاً في كنفه بعض حياتها معززة مكرّمة فإذا ما أصابه مكروه سارعت إلى البكاء عليه ورثائه، فقد رثت ريطة اخت تأبط شراً أخاها عندما علمت بموته وهي يومئذ متزوجة في بني الديــل فقالــت [(3)]:

نعم الفتى غادرتم برخمـــــان   بثابت بن جابر بن سفيـــــان

ويروى أن حاجز الأزدي خرج في بعض أسفاره فلم يعد ولا عُرف له خبر، فكانوا يرون أنه مات عطشاً أو ضل، فقالت أخته ترثيه [(4)]:

أحيٌّ حاجزٌ أمْ ليسَ حيـــــاً   فَيَسْلُك بين جنْـــدف والبَهيمِ [(5)]

ويشرب شربةً من ماء تــرجٍ   فَيصْدِر مِشْيَةَ السَّبـــعِ الكَلِيمِ [(6)]

---

(1) الأغـــانـــي جزء 21 : 233 .

(2) ديـــوان الهذليين : 315 .

(3) الأغـــانـــي ،جزء 21 : 190 .

(4) الأغـــاني جزء 13 : 217 .

(5) جندف : جبل باليمن ،– البهيم : جبل أيضاً .

(6) ترج وبيشة : قريتان متقابلتان بين مكة واليمن .

ورثت أخت عمرو بن العجلان أخيها عمرو بقــولها [1]:

فأُقْسِمُ يا عَمْرو لَوْ نبَهـــاكَ … إذاً نبّها منكَ دَاءً عُضَــــــالا

إذاً نبها ليثَ عَريسَــــــة … مفيتاً مفيداً نُفوســـــاً ومالا[2]

وَخَرْقٍ تَجاوَزْتَ مَجْهولَـــةً … لو جْنْاءَ حَرْف تَشْكــي الكَــلالا[3]

فكُنْتَ النَّهارَ به شَمْسُـــــهُ … وكُنْتَ دُجَى اللَّيل فيــــه الهِلالا

انهن يشبهن اخوانهن بالأسود الضارية، وهذه الصورة للأخ لم تأت جزافــاً وإنمــا نبعت من احساس عميق لدى الأخت بأن أخاها، هو حاميها والذائد عنهــا، كــذلك تــشبهه بالشمس التي هي مبعث الضوء والفيء والطمأنينة للناس، كما كان هو مبعــث الطمأنينــة والأمن والأمان لها، كذلك شبهته بالبدر في ظلمة الليل حيث أن نور البدر يبدد ظلمة الليــل الحالكة، وكذلك الحياة بدون الأخ تظل حياة سوداوية، مظلمة قاتمة، لا يبدد ظلامها إلا رؤية الأخ الحبيب الغالي . كذلك نجدها ترثيه بوصف آخر فتقـــول [4]:

الطَّاعنُ الطَّعْنَة النجلاءَ يَتْبعُها … مُثْعَنْجرٌ من نَجيعِ الجَوْفِ أُسْكُوبُ

والتارك القِرْنَ مصفراً أناملُــه … كأَنَّه من رجيــع الجوف مَخْضُوبُ

انه الأخ البطل في عين أخته، والذي تتمناه دائماً كذلك، ليحميها ويذود عنها، لــذلك فهي تبكيه، مفجوعة على فراقه،معددة بعض خصاله، وهذا يدل على مــدى حــب الأخــت لأخيها، ذلك الذي ينم عن عاطفة صادقة، وفطرة سليمة، وحب خالــص .

---

(1) العمدة لابن رشيق ، مطبعة السعادة ، جزء 2 : 31 .

(2) العريسة : شجرة الملتف

(3) الخرق : المكان الواسع ذو الرياح ، – الوجناء : الناقة ،– الحرف : الهزيلة .

(4) الأغـــــاني ، جزء 20 : 22– 23 .

رابعــاً : القــريبــــــة

أقصد بالقريبة هنا الخالة، التي هي بمنزلة الأم، فاحترام العربي وحبه لأمـــه يمتــد ليشمل الخالة، الخالة التي لا تقل محبتها عن محبة الأم، وقد نجد من الشعراء الصعاليك من يؤلمه أن تضام خالته، دون أن يجد ما يفتديها إنه أمر شق عليه وأشاب رأسه، يقول السليك مصوراً حسرته وألمه وحرقته من عجزه عن افتداء خالاته وتخليصهن من الــسبي وحيــاة الـــرق :

ألا عتبت علــىَ فصارمتني   وأعجبها ذوو اللِّمم الطــــــوالِ
فإني يابنــــــة الأقوام أُربي   على فعل الوضيئ من الرجـــال
أشاب الرأس أني كل يــــوم   أرى لي خالة بين الرجــــــــال
يشق علــــيَّ أن يلقين ضيماً   ويعجز عن تخلُّصِهِنَّ مالــــــــي

إن من علو مكانة الخالة عند الصعلوك أن يفتدي بها وبأمه رجليه اللتين أنقذتاه من أعدائه، فهو يفتديهما بأفضل وأثمن شيء عنده ألا وهما الأم والخالـــة، وهــذا يــدل علـــى مكانتهما، يقول حاجز الأزدي وقد نجا من خثعم [1] :

فِدىً لكما رِجْلَيَّ أُمِّي وخَالتي   بسَعْيكُما بين الصَّفَـــا والأَثَائب[2]
أوانَ سمِعْتُ القَومَ خَلْفي كأَنَّهم   حــريقُ أباءٍ في الرِّيـــاح الثواقب

والعمة لها أيضاً مكانتها عند أبناء أخيها مثلها مثل الخالة وقد يذكرها الشاعر مـــن بين النساء اللائي يشفقن عليه، ويبكينه إن أصابه مكروه، وكيف لا تبكيه وهـــو يكرمهـــا، ويذود عن حماها، ويصون شرفها ويقتل عدوها، يقـــول الشنفـــري [3] :

إذا ما أَتَتْني حَتْفَتي لَمْ أُبَالِها   ولَمْ تُذْرِ خالاتي الدُّمَوعَ وعَمّتي

فالشاعر لا يبالي بالموت إن مات، كذلك لا يبالي إن لم يبكه أحد، وخـــص العمـــة والخالة بالذكر، لعلمه أنهن يكثرن البكاء عليه،وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدل على مكانة العمة والخالة عند الصعلوك ومكانة الصعلوك عندهن ،

وقد تفاخر العمة بابن أخيها، كما فعلت عمة حاجز الأزدي حين فضَّلَتْه فقالـــت : " كان حاجزٌ لا يشبع ليلة يضاف، ولا ينام ليلة يخاف " .

---

(1) الأغــــانـــــي جزء 13 : 216 .
(2) الأثائب : جمع أثاب وهو شجر ينبت في بطون الأودية .
(3) الأغـــــاني جزء 21 : 211 ، ديــــوان الصعاليك : 18 .

خامسـاً : المـرأة غيـر القريبـة

المرأة غير القريبة، قد نجدها الجارة من القبيلة وقد تكون امرأة من خارج القبيلـة، وهؤلاء النساء تختلف صورهن عند الصعاليك باختلاف الموقف، فقد نجدها حانقـة عليـه شديدة العداء، تبغضه وتكرهه، وتحرص على نصرة قومها عليه، ومساعدتهم على الامساك به . وإما نجدها كريمة معه، تحسن ضيافته، وتؤدي واجبه وقد نجدها وجلة خائفـة منـه، حريصة على ألا تلقاه .

أما المثال على المرأة الناقمة المبغضة للصعلوك، هذه القصة التي ذكرها صـاحب الأغـاني، عن أبي عمرو إذا يقول : بينما حاجز في بعض غزواته إذا أحاطت بـه خـثعم وكان معه بشير بن أخيه، فقال له : يا بشير، ما تشير ؟ قال : دعهم حتى يشربوا ويقفلـوا ويمضوا ونمضي معهم فيظنونا بعضهم . ففعلا، وكانت في ساق حاجز شامة فنظرت إليها امرأة من خثعم، فصاحت : يا آل خثعم، هذا حاجز . فطاروا يتبعونه فقالت لهم عجوز كانت ساحرة : أكفيكم سلاحه أو عَدْوه . فقالوا : لا نريد عدوه فإن معنا عوفاً وهو يعـدو مثلـه، ولكن اكفينا سلاحه . فسحرت لهم سلاحه وتبعه عوف بن الأغرّ حتى قاربه فـصاحت بـه خثعم : يا عوف ارم حاجزاً، فلم يقدم عليه، وجبن، فغضبوا وصاحوا : يا حاجز لك الذمام، فاقتل عوفاً فإنه فضحنا فنزع في قوسه ليرميه، فانقطع وترُهُ، لأن المرأة الخثعمية كانت قـد سحرت سلاحه فأخذ قوس بشير بن أخيه فنزع فيها فانكسرت، وهربا من القـوم ففاتـاهم . فقال في ذلك [1] :

فِدىً لكما رِجْلَيَّ أُمِّي وخَالتـي ... بسَعْيكُما بين الصَّفـا والأَثَائب[2]

أوانَ سمعْتُ القَومَ خَلْفي كأَنَّهـم ... حـريقُ أباءٍ في الرِّيـاح الثواقب

سُيُوفُهم تَغْشَى الجَبَانَ ونَبلُهـم ... يضيءُ لَـدَى الأَقْوام نار الحُباحب[3]

فَغيْر قتالي في المَضْيق أَغَاثنـي ... ولكـن صريح العَدْو غير الأكاذب

نجوتُ نجاءً لا أبيكَ تَبُثُّـه ... وينجـو بشير نجو أزعر خاضب [4]

وأما المثال الثاني على المرأة الكريمة، التي أكرمت الصعلوك وأحـسنت ضـيافته فيروي الأصمعي أن أبا خراش أقفر من الزاد أياماً، ثم مرّ بامرأة من هذيل جزلة شـريفة، فأمرت له بشاة فذبحت وشويت، فلما وجد بطنه ريح الطعام قرقر، فضرب بيده على بطنـه

---

(1) الأغـاني جزء 13 :215 – 216 .

(2) الأثائب : جمع أثاب وهو شجر ينبت في بطون الأودية .

(3) الحباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج .

(4) لا أبيك : لعله أراد : لا وأبيك . نجا ينجوا نجوا : خلص . والأزعر : القليل الشعر ، الخاضب : الظليم إذا أكل الربيع فاحمرّت ساقه وقوادمه ، وهو الذكر من النعام .

وقال : إنك لتقرقر لرائحة الطعام، والله لا طعمت منه شيئاً ثم قال : يا ربَّة البيت، هل عندك شيء من صبر أو مرّ ؟ قالت : تصنع به ماذا ؟ . قال أريده .

فأتته منه بشيء، فاقتمحه[1]، ثم أهوى إلى بعيره فركبه، فناشدته المرأة فأبى، فقالت له: يا هذا، هل رأيت بأساً أو أنكرت شيئاً ؟ قال : لا والله، ثم مضى وأنشأ يقــول [2]:

وإني لأثوي الجــوع حتى يَملَّني　　فأحيا ولم تدنس ثيابي ولا جرمــي[3]
وأصطبح الماء القــراح فأكتفي　　إذا الزاد أضحــــى للمزلّج ذا طعم[4]
أرد شجاع البطــــن قد تعلمينه　　وأُؤثر عُيري مــــــن عيالك بالطُّعم
مخافهَ أن أحيا بـــــــرغمٍ وذلةٍ　　فللموت خيرٌ من حيــــــاة على رَغم

وأما المثال على المرأة الوجلة الخائفة من الصعلوك، المشفقة على نفسها ومالها منه، فقد مرّ شِظاظ وهو صعلوك من بني ضبة بامرأة ترعى بازلاً وتقول : أعوذ بالله من شــرِّ شِظاظ! وكان على بكر فنزل وقال : أتخافين على بعيرك من شظاظ ؟ قــالت : ما آمنـــــه عليه، فجعل يشاغلها حتى تغافلت عن بعيرها فاستوى عليه ورفع عقيرتـــه يقــول [5]:

رُبَّ عجوزٍ من أناس شهيــرة　　علَّمتُها الإنقاض بعد القرقـــرة

ويعني شظاظ بهذا البيت أنه أخذ لها بعيراً مسناً يقرقر، فركبه وذهب به، وترك لها بكــراً تنقض بـــه، فعلمهـــا الاستمـــاع إلى صوت صغــــار الإبــــل بعـد الاستمـــــاع لقرقــرة البعيــر الكبيــر .

وبعيداً عن البغض والكره،والوجل والخوف، والكرم وحسن الضيافة فإن شظاظ هذا رأى امرأة سوداء تكتحل، فأثار انتباهه هذا الموقف، حيث أن المرأة سوداء، والكحل أسود، فقال يصفهـــا [6]:

كأنّها والكُحْل في مرْوَدهـــــا　　تُكْحِّـــلُ عينيها ببعض جلدهـــا

هذا بعض أحوال النساء في شعر الصعاليك، سواء كانت المرأة أماً أو سبية، أو بنتاً أو أختاً، أو كانت خالة وعمّة، أو امــــرأة ليست من ذوات القرابــــة، حاولت أن أتتبــع أحوالهن في شعــر الصعاليك، وجئت من الشواهــد بمـــا يجلّي الـــصــــورة ويوضــــح الفكــرة والله المستعــــــان .

---

[1] اقتمحه : أي سفّه ،أو أخذه في احته فلطمه .

[2] الأغـــــاني : جزء 21 : 238 – 239 .

[3] أثويه : أطيل حبسه عندي .– الجرم : الجسد .

[4] المزلّج : الذي ليس بالمتين . والمزلج من الرجال : الذي ليس بالتام .

[5] المستقصى في أمثال العرب ،للزمخشري، دار الكتب العلمية بيروت 1987 ، جزء 1 : 167 .

[6] المعاني الكبير في أبيات المعاني ، لابن قتيبة ، طبعة حيدر أباد (الدكن) 1949 م ص 876 .

الخـــاتمـــــة

الحمد لله رب العالمين الذي وفقني إلى إتمام هذه الدراسة، التي توصلت من خلالها إلى بعض النقاط المهمة، أذكر منها.

1- وجود الصعلكة بقوة في العصر الجاهلي، ثم اختفاؤها تقريباً في صدر الإسلام، ثـــم عودتها بقوة في العصر الأموي، وذلك لأسباب ذكرتها.

2- احتلال المرأة سواء محبوبة أم زوجة،أم أختاً و بنتاً، أم غيرذلك – مكانة مرموقـــة في العصر الجاهلي، نالت فيه حظاً وافراً من الاحترام والتقدير، والحماية والرعاية، اللهم إلا من بعض المثالب التي سببت لها بعض المعاناة، كالسبي والوأد، والحرمان من الميراث.

3- الحقيقة الثالثة المهمة، هي أن الصعاليك – كغيرهم من شعراء عصرهم – كان لهم مقدمات غزلية وطللية، واضحة لا يمكن إغفالها، أو تجاهلها أو حتـــى تحويرهـــا، فالصعاليك في مقدماتهم شغلتهم المرأة – محبوبة أو زوجة فأحبوها ووقفـــوا علـــى أطلالها، وتألموا لفراقها، وبكوا واشتكوا،من أجلها، ووصفوها وصفاً دقيقاً، ماديـــاً ومعنوياً .. إلخ.

4- وجود نماذج فريدة لوفاء المرأة العربية، وحفظها للعهد وتمسكها بالحب.

5- مثلت المرأة الزوجة نموذجاً فريداً للمرأة المحبة لزوجها،الحريصة علـــى حياتـــه، وأبنائه، وماله، تحاورة بكل ودّ، ومحبة فتلومه حيناً وتنهره حينـــاً، فيـــسمع لهـــا، ويحاورها بكل رفق، ينم عن شخصية متزنة، تعرف للزوجة مكانتها وقدرها.

6- كذلك حظيت زوجة الصعلوك بنصيب وافر من شعر الصعاليك ربمـــا أكثـــر مـــن معاصرتها، وذلك لارتباط الصعاليك بزوجاتهم، فوصفوهن وصفاً ماديـــاً ومعنويـــاً جميلاً.

7- كان للأم أثر بارز في حياة الصعاليك،غير مسار حياتهم، فانقسم الصعاليك تجاهها، بين محب لها، ومشفق عليها، ومعتز بانتمائه لها وبين ناقم عليهـــا وعلـــى أهلهـــا، وعلى أبيه الذي تزوجها.

8- اهتم بعض الصعاليك بسبي النساء، لما له من أثر في إيلام عدوهم وقهره، ووصفوا السبايا وصفاً دقيقاً، وصوروهن تصويراً بارعاً

9- انقسم الصعاليك في معاملتهم للسبايا إلى قسمين، قسم عامل المرأة السبية بكل رفق ومودة ولين، ارتقى في بعض الأحيان إلى الحب العفيف والـــزواج، وقـــسم تلـــذذ بإيذائها، وقهرها.

10- كان أيضاً للبنت والأخت مكانة بارزة في حياة الصعلوك، سواء كان أباً أو أخاً ، وظلت الفتاة عندهم محاطة برعايتهم عنايتهم، ويحبونها ويشفقون عليها، ويمدون لها يد العون لمساعدتها، فعاشت في كنفهم معززة مكرمة.

11- كان الصعاليك محبين لأرحامهم، مشفقين عليهن، يتألمون لمعاناتهن، وهن بادلنهم هذا الشعور وهذا الحب.

12- اختلفت نظرة المرأة غير القريبة تجاه الصعاليك، وذلك بين محبة لهم، تكرمهم وتجيرهم وتدافع عنهم، وبين ناقمة عليهم، كارهة لهم تناصبهم العداء، وبين خائفة وجلة مشفقة منهم، تخشى لقاءهم وتحرص على عدم رؤيتهم.

هذه بعض نتائج البحث باختصار وانتقائية، وفي جنبات البحث، سيجد القارئ الكثير من الأمور المفيدة، والتي لا يتسع المقام لذكرها،

أرجو أن أكون قد وفقت في دراستي هذه لما يحب ربي ويرضى، فله الفضل والمنة وجزيل الثناء، كما يحب ربي ويرضى .

الباحث

المصادر و المراجع

1. القرآن الكريم .
2. الأغانـــــي الأصفهاني ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، 1990م .
3. ابن المبارك ، منتهى الطلب من أشعر العرب ، تحقيق عادل سليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى ، 1994 م . (إلكتروني) .
4. ابن النحاس ، شرح القصائد المشهورات ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
5. ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، مطبعة السعادة القاهرة .
6. ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر . و (العقد الفريد – وفود العرب) ، دار المسيرة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1981 م .
7. ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء ، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الثالثة ، 1983 م .
8. ابن قتيبة ، المعاني الكبير ، طبعة حيدر آباد (الدكن) 1949 م .
9. ابن منظور ، لسان العرب .
10. ابن هشام ، سيرة ابن هشام ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة – مصر .
11. أبو تمام ، الحماسة ، شرح التبريزي ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1927 م .
12. أبو داود ، سنن أبي داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر .
13. أبو زيد الأنصاري ، النوادر في اللغة ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، دار الشروق ، بيروت
14. أبو فراس الحمداني ، الديوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1993 م .
15. أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري ، شرح أشعار الهذليين ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مكتبة العروبة ، القاهرة .
16. أحمد الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، دار نهضة مصر – القاهرة .
17. الأصمعي ، الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون ، الطبعة الرابعة .
18. الأعشى، الديوان، شرح محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان
19. الأعلم الشنتمري ، شعر سهيل بن أبي سلمى ، تحقيق فخر الدين قباوة .
20. إبراهيم الخواجة ، عروة ابن الورد ، حياته و شعره ، مكتبة النصر التجارية ، نابلس ، الطبعة الثانية ، 1987 م .
21. إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، 1987 م .
22. البخاري ، صحيح البخاري ، دار الفكر ، القاهرة – مصر .

23. البطليوسي ، الحلل في إصلاح الجمل ، تحقيق سعيد عبد الكريم سعودي ، بغداد ، 1980 م .
24. البكري، سمط اللآلي على أمالي القالي ، لجنة التاريخ و الترجمة – القاهرة ، 1935 م .
25. الثعالبي، المنتخب في محاسن أشعار العرب ، تحقيق عادل سليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، القاهرة – مصر ، 1993 م .
26. الثعالبي، ثمار القلوب ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، 1965 م .
27. ج.ك.فاديه ، الغزل عند العرب ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، طبعة الأصل ، باريس 1968 م .
28. الجاحظ ، البرصان و العرجان و العميان و الحولان ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1981 م .
29. الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الحلبي القاهرة – مصر ، الطبعة الثانية ، 1966 م .
30. جرير بن عطية ، الديوان ، شرح مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ،1992 م .
31. حاتم الطائي ، الديوان ، شرح فوزي عطوي ، دار صعب ، 1980 م .
32. حسان بن ثابت ، الديوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1986 م .
33. حسين عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي ، دار الطليعة بيروت ، الطبعة الثانية ، 1981م .
34. حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، دار المعارف ، مصر ، 1974 م .
35. حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1970 م .
36. الحطيئة ، الديوان ، رواية و شرح ابن السكيت ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان 1993 م .
37. الخالديان ، الأشباه و النظائر ، تحقيق السيد محمد يوسف ، لجنة التأليف و الترجمة ، القاهرة ، 1965 م .
38. الخرنق بنت بدر ، الديوان ، رواية أبي عمرو بن العلاء ، شرح يسري عبد الله ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1990 .
39. الزمخشري ، المستقصى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة .
40. السليك ، الديوان ، شرح سعد الضناوي ، دار الكتاب العربي ، 1994 م .
41. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق القاهرة – بيروت، الطبعة السابعة عشرة، 1992م .
42. السيوطي ، الجامع الصغير ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت ، 1981 م .
43. شوقي ضيف ، البطولة في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1970 م .
44. طرفة ابن العبد ، الديوان ، شرح مهدي ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ،

1987 م .
45. الطرماح ، الديوان ، وزارة الثقافة و السياحة ، دمشق ، 1968 م .
46. عبد الحليم حفني ، شاعر الصعاليك الشنفرى ، المطبعة النموذجية ، مصر .
47. عبد الحليم حفني ، شعر الصعاليك ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة .
48. عبد الله عفيفي ، المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها ، مطبعة المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، 1932 م .
49. عروة ابن الورد ، الديوان ، شرح أسماء أبو بكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1992 م .
50. عزازي علي عزازي، شعر بني عبس في الجاهلية ، رسالة ماجستير ، جامعة الزقازيق .
51. علي الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي ، دار الفكر العربي القاهرة ، 1989 م .
52. علي الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، مطبعة دار المعرف – بغداد ، 1960 م .
53. عنترة ابن شداد ، الديوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى، 1985 م .
54. الفرزدق ، الديوان ، مطبعة الصاوي ، مصر ، 1354 هـ .
55. المبرّد ، الكامل في اللغة و الأدب ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، 1993 م .
56. محمد بن حسان السديس ، في أفياء الشعر منذ الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ، كتاب الرياض (العدد 81 ، 82) .
57. محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمد شاكر ، دار المعارف ، 1952 م .
58. محمد عبد الحميد القاضي ، بلوغ الأرب في شرح لامية العرب .
59. محمد فؤاد عبد الباقي ، اللؤلؤ و المرجان في ما اتفق عليه الشيخان ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1997 م .
60. محمد مصطفى هدارة ، دراسات في الشعر الجاهلي ، طبعة دار المعارف ، 1982 م .
61. مسلم ، صحيح مسلم ، مكتبة الجمهورية العربية ، القاهرة – مصر .
62. المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بيروت – لبنان ، لاالطبعة السادسة .
63. الميداني ، مجمع الأمثال ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .
64. نبيل خالد أبو علي ، شاعرات عصر الإسلام الأول ، دار الحرم للتراث ، القاهرة – مصر .
65. يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة .

66. يوسف فرحات ، ديوان الصعاليك ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1992 م .
67. مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، مجلد 13، (العدد 1) 1991م .
68. الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي (إلكتروني) .

قائمـــــة المحتويـــــــات